+
67A

المعتمد ابن عبـاد

الملك الشاعـر

مـــــــوجـــــــز

تقسم الدراسة الى قسمين رئيسيين ، اولهما عن المعتمد الملك ، وثانيهما عـــن المعتمد الشاعـر.

يبدأ القسم الاول بتوطئة تاريخية في اوضاع الاندلس السياسية منذ ان نزلهـــا الفاتحون المسلمون الى ان ارغم احفادهم على الانسحاب منها بعد ثمانية قرون.

ويليه استعراض للاحوال السياسية التي مهدت لقيام دولة بني عباد والظروف التي اودت بالدولة الاموية في الاندلس والتي استبدلت وحدة البلاد بقيام عدة دويلات متنازعة تتزعمها دولة اشبيلية ، واستئثار بني عباد بحكم تلك الدولة .

وفي الفصل " بنوعباد : اصلهم ونسبهم " ، تحقيق لانتسابهم الى قبيلة لخـــم اليمنية التي ينتسب اليها ملوك الحيرة دون جزم بانتسابهم الى هؤلاء الملوك.

ويسبق اخبار المعتمد الخاصة فصل عن القاضي ابي القاسم ابن اسماعيل ، جـــد المعتمد ، وابنه المعتضد ، وهما اللذان سبقا المعتمد في حكم اشبيلية . وفيه تاريـــخ لهما ولتوسع حكمهما في اشبيلية .

اما اخبار المعتمد الخاصة فتشمل ولادته وتاريخ تلك الولادة والمهام التي تسلمها في صغره وشبابه ، كقيادة الجيوش وحكم المدن في عهد ابيه ، كما تشمل خبر تعرفه علـى ابن عمار والعلاقة القوية التي قامت بينهما ، وزواج المعتمد من اعتماد وذكر ابنائه ولهوه وصفاته الشخصية .

ولما كانت حياة المعتمد السياسية على مرحلتين ، مرحلة ارتقاء للمجد ومرحلة هبوط عنه ، فقد تناول فصل "المعتمد في اوائل حياته السياسية" تاريخه منذ ان جلس على العرش الى ان بدأ نجمه بالافول . وجاء فيه خبر احتلاله قرطبة ومرسية ، وما رافق ذلك من منازعات بين ملوك الطوائف ، وبينهم وبين ملوك اسبانيا النصارى ، مع اسهاب في الدور الذى لعبه ابن عمار في مشاريع المعتمد السياسية ، الى ان لاقى حتفه على يديه .

وفي الفصل " موقعة الزلاقة وافول نجم المعتمد" اخبار نمو سلطان الفونسو السادس (المعروف عند العرب بالاذفونش) ملك قشتالة المسيحي على حساب المعتمد وباقي ملوك الطوائف . ومع ان يوسف ابن تاشفين ، ملك المرابطين في مراكش الذى هرع لنجدة المعتمد بناء على طلبه ، قد حقق له انتصارا ساحقا في واقعة الزلاقة ، الا ان نهاية المعتمد كانت على يد ذلك المرابطي الذى غدر به بعد ان حالفه ، ثم نفاه الى اغمات ، حيث مات . وفي ختام الفصل وصف لحياة المعتمد في منفاه .

اما القسم الثاني من الاطروحة - وهو الجانب المهم الاخر من حياة المعتمد جانبه الشعرى - فقد مهد له بتوطئة في الشعر الاندلسي ، في خواصه ومميزاته وعلاقته بالشعر العربي في المشرق ، وذلك باعتبار هذا الشعر المنهل الاول الذى شرب المعتمد منه قبل ان يعطي الشعر العربي ما جاء به من قصائد .

اما المنهل الثاني فهو الشعر في عائلته ، فقد عرف بنو عباد بالشعر ، وكان بينهم الشعراء - من قبل المعتمد ومن بعد - وكان بينهم من شجع حركة الشعر في اشبيلية . وفي هذا الفصل ذكر للشعراء الذين كان لهم علاقة مع المعتمد .

ويعرض الفصل "المؤثرات في شعر المعتمد" العوامل التي كان لها اثر في حياته، ومدى انطباع اخباره ومراحل حياته في شعره ، ومدى تعبير شعره عن اختباراته وتجاربه وتأثره بالاحوال السياسية والشخصية التي عاشها المعتمد ملكا وانسانا ، واثر لهوه ومجونه ثم سجنه وشقائه في ما نظم .

ويتبع ذلك تقييم شعر المعتمد بالنسبة الى الاغراض الشعرية وما بين شعره واغراض الشعر المعروفة في عصره من تطابق ، ومدى نجاحه في ذلك ، وتبيان الانفة في مدائحه والاباء في مفاخره والرقة في غزله والعزة والالم في شكاويه . مع اهتمام بشعر المعتمد في اسره واعتباره خير شعره روحا وفنا وصدق عاطفة . اذ هو شعر اصيل يمثل نفسية المعتمد اكثر من باقي شعره ويرتفع عن شعره الذى قاله في المناسبات . وفي الفصل استشهاد بمقاطع من شعر المعتمد تبين الفرق بين شعره الاصيل وشعره غير الاصيل ، ومقارنة بين ما جاء فيه بجديد وبين ما كان مجرد تقليد لمن سبقه .

وفي الفصل الاخير اجابة على سؤال قد يدور في ذهن القارئ ، وهو ما قيمة شعر المعتمد بالنسبة لشعر الاندلس . وهي الموافقة مع القدامى الذين اعتبروا المعتمد من شعراء الاندلس المجيدين ، نظرا لانطباق شعره في اغراضه وصفاته واسلوبه ، على الشعر الاندلسي الى حد بعيد ، ونظرا لتقليده الكثيرين من شعراء المشرق ، كما كان شعراء الاندلس يفعلون . مع اظهار النواحي الخاصة في شعر المعتمد التي خالف فيها الشعر الاندلسي والتي امتاز بها على غيره من شعراء ذلك البلد .

T
67A

المعتمد ابن عباد

الملك الشاعر

هيلدا جليل شعبان

رسالة قدمت الى الدائرة العربية

في الجامعة الاميركية في بيروت

للحصول على درجة ماجستير في الاداب

حزيران ١٩٥٧

المعتمد ابن عباد

الملك الشاعر

المقـــــدمـــة

يألف اسم المعتمد ابن عباد كل من يبحث في تاريخ الاندلس السياسي والادبي . فقد برز المعتمد في شبه الجزيرة الاندلسية في كلا الميدانين ـ ملكا يذود عن حياض اشبيلية في ساحات الوغى وشاعرا تتغنى الاجيال بجميل شعره ورقيق شدوه على ان المعتمد الملك كان اوفر حظاً من المعتمد الشاعر باهتمام المؤرخين بتسجيل اخباره السياسية والعسكرية ، والتوسع في رواية الحوادث التي اسهم المعتمد في صنعهـــا . اما مؤرخو الادب وناقدوه وجامعو الشعر فقد عني بعضهم بالمعتمد ، ولكن تلك العناية كانت محدودة ، واجملوا القول في شعره ، واورده بعضهم في معرض الكلام عن تاريخه حتى انه لم يقم بينهم من جمع شعره في ديوان مستقل . وربما كان سبب ذلك طغيان الحوادث السياسية في الاندلس اواخر ايام المعتمد ، على القضايا الادبية وانشغال المؤرخين بها . كذلك لم يحظ المعتمد الشاعر بدراسات وافية من البحاثة المعاصرين فقد اكتفى معظم هؤلاء بدراسة المعتمد دراسة عابرة . اما ديوان المعتمد الذى جمعه احمد احمد بدوى وحامد عبد المجيد باشراف وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٥١ والذى وردت فيه مقدمة مجملة عن حياة المعتمد وشعره ، فهو يكاد يكون مجهولا عند القراء نظرا لقلة النسخ المطبوعة منه ، ولعدم عرضه في المكتبات العامة للبيع ، وعـدم وجوده في معظم المكتبات الكبرى في العالم العربي .

لذلك اخترت هذا الملك الشاعر ليكون موضوعا لبحثي هذا لاوفاء لرجل اعطـى الادب كثيرا فحسب ، بل لاسهم مع القليلين الذين تناولوا حياة المعتمد بالدرس لحفظ اسم هذا الشاعر من خلال دراسة آثاره وتفحص اخباره ورسم صورة حقيقية للاطار التاريخي والزمني والمكاني الذى عاش المعتمد فيه وتأثر به حتى نفهمه حق فهم ونعرفه حق معرفة .

ولا انكران اكثر ما استهواني الى دراسة المعتمد ما تركته في نفسي حياة هذا الملك الشاعر من قصة شيقة مثيرة للنفوس والعواطف . وقد كان اول تعرفي الى تلك القصة اثناء دراسة جامعية لكتاب نفح الطيب الذى اورد صاحبه الكثير مما كتبه المؤرخون والرواة والادباء عن المعتمد وشعره .

ولم يكن من السهل ان اتتبع اخبار المعتمد في خضم المصادر الاولية والمتأخرة، التي رجعت اليها في هذه الدراسة ، لما في روايات تلك المصادر من تناقض فيما بينها ، لذلك كان عملي الاساسي بعد الاطلاع على تلك المصادر وتقييمها علميا وفنيا وزمنيا ، ان اقارن بين الروايات واتحقق منها ، حتى اصل الى الانباء الحقيقية عن شاعرنا الملك .

وثمة صعوبة اخرى واجهتها اثناء دراستي وهي ان بعض المصادر بعيدة المتناول ، اما لانها ما تزال نسخا خطية ، او لعدم عثوري عليها في المكتبات التي تسنى لي الاطلاع عليها . على انه لا بد ان اذكر مدى اعتمادى على كتاب تاريخ بني عباد الذى جمع فيه المستشرق دوزي اصولا عربية مختلفة منها ما لا يزال مخطوطا ومنها ما لم تصل اليه يدى . كما اني تمكنت من الحصول على ديوان المعتمد المطبوع في مصر واستعنت به في العثور على بعض شعر المعتمد الذى لم يرد في المصادر التي اوردت شعره . وهي قصائد ومقطوعات قليلة رجع فيها ناشرو الديوان الى نسختين خطيتين من مجموعة لشعر المعتضد ابن عباد والمعتمد ملحقتين بديوان ابن زيدون المخطوط .

هذا وقد مهدت لدراستي عن المعتمد الملك بابحاث مختصرة في تاريخ الاندلس السياسي وتاريخ بني عباد وتوصلهم الى الحكم ، مع توسع في الكلام

عن حياة جد المعتمد وابيه ، كما مهدت لدراستي عن المعتمد الشاعر بابحاث مختصرة في تاريخ الشعر في الاندلس وتاريخ فنه في عائلة المعتمد بنوع خاص. اما حياة المعتمد وظروفه السياسية منذ كان اميرا الى ان انزل عن العرش ونفي الى خاج البلاد ، فقد سرت فيها حسب التسلسل الزمني . كذلك اتبعت في دراسة شعره سبل اغراضه وفنونه وظروفه مع تقييمها ومقارنتها بالمظاهر العامة في الشعر الاندلسي .

وحسبي الان ان اشير الى مرجع اعانني في كتابه الاطروحة وكان له فضل كبير في تحضير المواد الادبية وتسجيلها وبلورة الافكار فيها ، اعني بها استاذي الدكتور جبرائيل جبور رئيس دائرة الادب العربي في الجامعة الاميركية في بيروت الذى اقال البحث من عثرات ما كان لي شبيل لوقايته منها لولا ارشاداته وتوجيهاته.

فهـــــرس

مقـــــدمة

فهـــــرس

المعتمـد الملـك

توطئـة تاريخيـة ---------- ١

الاحوال السياسية التي مهدت لقيام دولة بني عبـاد ---------- ٨

بنـوعباد : اصلهم ونسبهـم ---------- ١٧

بـدء حكم بنـي عبـاد في اشبيليـة ---------- ٢٦

القاضي محمد ابـن اسماعيـل ---------- ٢٨

المعتضـد ابن عبـاد ---------- ٣٥

المعتمد ابن عباد في حياته الخاصـة ---------- ٤٤

المعتمد ابن عباد في اوائل حياته السياسية ---------- ٦٧

موقعـة الزلاقة وافول نجم المعتمد ابن عبـاد ---------- ٨٢

المعتمد الشاعـر

توطئـة في الشعـر الاندلسي ---------- ١١٧

بنوعبـاد والشعـــر ---------- ١٢٣

المؤثـرات في شعر المعتمـد ---------- ١٤٢

تقييـم شعـر المعتمـد بالنسبة الى الاغراض الشعرية ---------- ١٥١

تقييـم شعر المعتمد بالنسبة الى الشعـر الاندلسي ---------- ١٨٧

المـــآخـذ ---------- ٢٠٤

المعتمـــــد الملـــك

توطئة تاريخية

صرف العرب السنين الخمس والسبعين التي عقبت هجرة الرسول الى المدينة في فتح المناطق التي واجهتهم اثر خروجهم من شبه الجزيرة العربية ، فاحتلوا سورية والعراق وفارس ومصر وشمال افريقية ، واغاروا على اقسام واسعة من اواسط اسيا ، واسيا الصغرى ، وجزر البحر الابيض المتوسط .

قامت هذه الفتوحات الجبارة على اكتاف نفر قليل من قادة العرب وكبار محاربيهم ، وكان من بين هؤلاء موسى ابن نصير الذى ولاه الخليفة عمر ابن عبد العزيز امارة شمال افريقية فقاد الجيش الاموي في اتجاه غربي حتى وصل المحيط الاطلسي ، وتم له بذلك الاحاطة بالجانب الشمالي من تلك القارة السوداء ، من خليج فارس شرقا الى ساحل الاطلسي غربا ، وكان ذلك في عهد الخليفة الوليد الذى عمل على توسيع حدود الامبراطورية الاسلامية .

وفي سنة ٧١٠ م ارسل موسى مولى عنده ، اسمه طريف ، ليحتل للمسلمين جزيرة صغيرة قرب الساحل الاسباني . وفي العام التالي ارسل مولى اخر ، بربرى الاصل ، هو طارق ابن زياد ليدخل شبه الجزيرة الاسبانية نفسها . ومهما تتضارب الروايات في اسباب تلك الحملة وظروفها فقد كانت حملة بسيطة ، ولكنها آلت الى نتائج لا تقل اهمية بالنسبة للتاريخ الاسلامي ، عن نتائج معركة اليرموك او القادسية او حملة عمرو ابن العاص على مصر . ذلك ان طارقا لم يتمكن من دخول اسبانيا فحسب ، بل انه واصل سيره فيها حتى احتل قسما كبيرا منها . فقد ملأ طارق الفراغ الذى تركه في تلك المنطقة ضعف الدولة القوطية وانحلال نفوذ ملوكها . وانهى

طارق حكم القوط بعد ان انتصر على ملكهم لذريق في معركة وادى بكا (في تمـوز ٧١١م) واضطره الى الهرب، ان لم يكن قتله كما جاء في بعض الروايات . ولم تمض عدة اشهر حتى كانت كبريات المدن الاسبانية قد وقعت بين ايدى المسلمين ، مثل استجة ، وارجذونة ، والبيرة ، وقرطبة ، والعاصمة طليطلة .

وجريا على العادة التي عرفها التاريخ في امراء وقادة تلك العصور في النظر الى امور الدولة السياسية والعسكرية من زوايا مصالحهم الخاصة ، اهتم موسى ابن نصير للانباء التي وصلته عن الفتوحات التي قام بها طارق وهو المولى عنده ، وعن الغنائم التي كسبها ، فاحتفظ ببعضها وارسل بعضها الى بلاط الخلافة في دمشق ، حتى فاز برضى الخليفة . وحملته غيرته على اقتفاء اثر طارق ، والسير الى اسبانيا على رأس فرقة من المسلمين بلغ عدد افرادها عشرة الاف جندى ، من العرب والسوريين . ولقي موسى نجاحا شبيها بنجاح طارق ، فاحتل مدن شذونه وقرمونة واشبيلية وماردة وسرقسطة . والتقى القائدان قرب طليطلة بعد ان اضافا الى الدولة الاسلامية رقعة واسعة جديدة من الارض ، ضمت الى ما كان لتلك الدولة من ممتلكات في اسية وافريقية . وعاد الجنود الى سورية وهم يحملون الغنائم والاماء والعبيد ، ويتحدثون عن بلد الخيرات الذى دان لهم بالولاء في اشهر معدودة ، وهو البلد الذى اطلقوا عليه اسم الاندلس.

كانت اسبانيا قد تعرضت لهجمات القوط منذ القرن الخامس للميلاد ، الا ان العناصر الاخرى في البلاد ، من وطنية ومن رومانية وجرمانية ، لم تنفك تنظر الى القوط كجنس غريب دخيل ، يستوجب العداء ، وزاد في ذلك العداء وحشية المعاملة التي لاقاها السكان من ملوك القوط وقسوة معاملة اصحاب الاراضي والاقطاعات

للمزارعين والفلاحين ، كما ان اليهود غذوا هذا العداء ورعوه بعد ان لحقهم بطش حكام المدن القوطية الذين حاولوا فرض النصرانية عليهم بالقوة . هذا الى جانب ما جرى من تنافس على العرش والامارات بين ملوك البلاد وامرائها ونبلائها وفرسانها ، وهو تنافس تعرضت له دولة المسلمين في اسبانيا فيما بعد .

لم يكن غريبا اذن والوضع هكذا ان يواصل المسلمون توسعهم في شبه الجزيرة الاندلسية في السنوات الخمس التالية ، حتى تمكنوا من احتلالها كلها ، بل انهم زيادة على ذلك ، عبروا جبال البرنيه التي تفصل بين اسبانيا وفرنسا ، واحتلوا قسما غير ضئيل من فرنسا (او بلاد الغال كما كانت تسمى) . وقد بدأت العمليات الحربية في فرنسا عام ٧١٧م بامرة عبد الرحمن الغافقي . الا ان مقام المسلمين في فرنسا لم يدم اكثر من خمس عشرة سنة ، فقد تمكن الملك شارل ، سنة ٧٣٢م ، من ايقاف التوسع الاسلامي ومن الانتصار على عبد الرحمن الغافقي في معركة تور وطرد جنوده من البلاد . ومع ان تلك المعركة التي سميت ببلاط الشهداء لم تكن فاصلة في تاريخ المسلمين ، فانها انهت حياة حافلة بالمغامرات في تاريخ العرب في الاندلس . وانصرف العرب من بعدها الى امور داخلية شغلتهم عن الفتح اعواما عديدة ، وفي مقدمتها امر الانقسام الداخلي .

والانقسام القبلي عند العرب عريق يسبق الدعوة الاسلامية بعدة قرون . فمنذ القدم وعرب الشمال (المضريون) على خلاف مع عرب الجنوب (اليمانيين) . ولما جاء محمد وبعثت رسالته الحمية في النفوس وقادتهم الى اقصى البلاد ، نقل العرب خلافهم التقليدي معهم ، وحافظوا عليه حيثما ساروا . وفي الاندلس بعد

توقف الجنود عن الفتح اثر معركة بلاط الشهداء ، عادت نغمة الصراع المضري - اليماني الى الظهور ، خاصة بعد ان انحاز عرب الجنوب الى العلويين و تمسك عرب الشمال بمبادئ السنة . وظهر البرابرة عنصرا ثالثا ، فتآمروا على الادارة الاموية وانضموا الى جماعات الخوارج ، وقد حملهم على ذلك قسوة العرب في معاملتهم . اما الجنود السوريون الذين ارسلهم خلفاء بني امية لتهدئة الحالة فقد شكلوا طبقة ارستقراطية زادت في الخلافات والانقسام .

وكانت الدولة الاموية في سورية قد سقطت في هذه الاثناء على يد العباسيين ، غير ان واحدا من امراء الامويين ، من احفاد الخليفة هشام ابن عبد الملك ، واسمه عبد الرحمن ، افلت من يد الارهاب الذى نزل باسرته وهرب الى ان وصل به المطاف الى شمال افريقية ، وهناك ركب البحر ودخل الاندلس ، مصمما على استعادة العرش الذى اضاعه اهله في المشرق ، من جديد ، في المغرب .

دخل عبد الرحمن الاندلس عام ٧٥٥م ، وفي السنة التالية كان له جيش كبير احتل به قسما من البلاد ، حتى وصل مدينة قرطبة فدخلها ، وقضى على حكومتها ، وقتل يوسف الفهرى امير الاندلس في ذلك الحين . وصرف عبد الرحمن عشر سنوات اخرى في اتمام الفتح ، واخضاع الثائرين وتعقب العصاة ، من بربر ويمانيين وشيعة ، ومن عملاء للعباسيين وموالين لهم . ولولا البأس الذى تحلى به عبد الرحمن (وهو بأس جعل ابا جعفر المنصور يسميه صقر قريش) لاضاع المسلمون الاندلس ، بسبب تحالف بعض امرائها من اعداء عبد الرحمن ، مع الامبراطور شارلمان ودعوته لاحتلال البلاد .

عاشت الدولة الاموية في الاندلس قرنين وثلاثة ارباع القرن ، ويرجع الفضل في تأسيسها الى عبد الرحمن الداخل الذى دعم كيانه بجيش مدرب وشجع التربية والفنون والبناء والزراعة في عهده ، ولما مات عام (٧٨٨م) خلف دولة قوية . على ان تلك الدولة كانت بحاجة الى حكام اقوياء مثله ، فقد كانت شخصية الحاكم القوى هي الضمانة الوحيدة لتفادي الشقاق . ولكن مثل تلك الشخصية القوية لم تتوافر للامويين في الاندلس الا ايام عبد الرحمن الثالث في القرن العاشر، وهو اول حكام الاندلس الذين حملوا لقب الخلافة .

ومرت الدولة الاموية ، بين عهدي عبد الرحمن الاول والثالث في فترة ضعف ، فتعرضت البلاد لهجمات امراء الدويلات المسيحية . وثارت الاقليات المسيحية في المدن الخاضعة للمسلمين وعصى المولدون في اكثر من ولاية واستمر النزاع المذهبي والطائفي والشخصي والاقليمي في الاندلس بعد وفاة عبدالرحمن الثالث عام ٩٦١ م مع ان ذلك الخليفة حقق للبلاد اسما لامعا في السياسة الدولية وفي مختلف نواحي الحضارة .

وقد حاول محمد ابن ابي عامر المعروف بالحاجب المنصور صيانة الدولة من الانحلال في عهد خلفاء عبد الرحمن الثالث ، ولكن اساليب ذلك الوزير لم تكن سليمة . فقد حجز الخليفة هشام ابن الحكم (المؤيد) في قصره واستبد بالامر هو وابناه من بعده . واستغل الحاجب ضعف الخلفاء لصالحه ، حتى مرغ سمعة الامويين بالوحول ولم يعد لهم الهيبة التي كانت من قبل .

واشتد الصراع بعد انقراض دولة العامريين بين جماعات العرب والبربر

والصقالبة وغيرهم من الفئات التي مثلت الدور الذى مثله فيما بعد الاتراك في الدولة العباسية والمماليك في مصر والانكشارية في الدولة العثمانية عند انحلال تلك الدول وانتقال مقاليد الامور من الملوك الى رؤساء الجيش، وصار الخلفاء يعينون ويخلعون رهن ارادة الفرق المرتزقة والرؤساء المتغلبين .

واغتنم الفرصة البربر المسلمون والصقالبة المسيحيون فاستبد البربر بالمناطق الشرقية ، وكان الحاجب المنصور نفسه قد تعاون مع البربر وخاصة بربر صنهاجة ضد الفئات العربية ، اما ابنه عبد الرحمن فقد اجبر الخليفة المستضعف هشام ان يعينه وليا للعهد فغضب الامويون وخلعوا هشاما وبايعوا محمد ابن هشام حفيد عبد الرحمن الناصر الذى تلقب بالمهدى . ولكن اتباع عبد الرحمن ثاروا بعد اغتياله وبايعوا المستعين بالله سليمان ابن الحكم ، وانشق الامويون الى حزبين واستعان احدهما بالبربر بينما استعان الاخر بالمسيحيين ، وما زال الامر في اضطراب حتى ولى الامر في قرطبة ابو محمد ابن جهور والقاضي ابو القاسم ابن عباد في اشبيلية وصار الامر الى رؤساء انفرد كل منهم ببلد ودخلت الاندلس في عهد ملوك الطوائف .

وعهد الطوائف هو عهد تفتت الدولة الاسلامية في الاندلس سنة ١٠٣١م اي بعد وفاة الحاجب المنصور بثلث قرن تقريبا ، وانقسامها الى عدد من الدويلات المتعادية المتحاربة التي كانت كل منها تسعى لسحق جيرانها . وكانت الدويلة القوية تعمل لابتلاع الدويلة الصغيرة بينما كان ملوك الدويلات الصغيرة يطلبون المعونة من الجانب البربرى او الجانب النصراني . وقد بلغ عدد تلك

الدويلات العشرين . اما اشهرها فكانت دويلة قرطبة وملوكها بنو جهور،واشبيلية وملوكها بنو عباد ، وغرناطة بنو زيري ومالقة بنو حمود ،وطليطلة بنو ذي النون ، وسرقسطة بنو هود . وكان بعض هذه العائلات عربيا وبعضها بربريا ، وقلما كانت العائلة الواحدة ترسخ طويلا في حكم منطقتها ، فهي اما كانت تتعرض لهجوم عائلة اخرى وسحقها او تقوم هي نفسها بسحق عائلة اخرى واحتلال ممتلكاتها .

وقد ظل الحال كذلك في الاندلس حتى جاء يوسف ابن تاشفين واقام في بلاد الاندلس دولة المرابطين . ثم عقبتها دولة الموحدين . واخيرا تمكنت الدويلات المسيحية عام ١٤٩٢ م من احتلال غرناطة وهي آخر ما بقي للعرب في الاندلس . وبدأ دور الجلاء الذى طرد به المسلمون من البلاد وفرضت النصرانية على من بقي منهم فيها .

الاحوال السياسية التي مهدت لقيام دولة

بنـي عبـــاد

خلف هشام الثاني المؤيد اباه الحكم المستنصر في حكم الاندلس سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦م) وكان صغيرا فاستبد الحاجب محمد ابن ابي عامر المنصور بالامور بعد ان حجز على الخليفة هشام وحكم البلاد حكما ديكتاتوريا هازئا بسلطات الخليفة ، يساعده على ذلك مؤازرة ام الخليفة السيدة صبح له ، وكان قد ضمن استقرار الملك لولدها بعد ان تآمر مع بعض رؤساء القصر فقتلوا المغيرة اخا الحكم ، اذ كان قد وصل ابن عامر ان المغيرة يريد ان ينافس الخليفة الصغير في الحكم . (١) ثم عمل المنصور بحزم ودهاء على تثبيت سلطانه ، فقتل معظم اعدائه داخل الدولة من جنود ووزراء وزعماء حتى استتب له الامر ، ثم وسع المملكة بغزو بلاد الافرنج وبنى له قاعدة سماها الزاهرة . (٢) وترك لولديه اللذين جاءا بعده ملكا واسع السلطان ولكنه لم يدم لهما طويلا .

---

(١) قصة المؤامرة هذه وقتل المغيرة موجودة في ابن عذاري المراكشي ، ابو عبد الله محمد ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، (ليدن ، بريل ، ١٩٥١) ج ٢ ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢ .

(٢) ابن الاثير ، عز الدين ابو الحسين علي ابن محمد ، الكامل في التاريخ ، (ليدن ، بريل ، ١٨٦٣) ج ٩ ، ص ١٢٥ ، ابن عذارى ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، المراكشي ، عبد الواحد ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، (القاهرة ، الاستقامة ، ١٩٤٩) ص ٢٩ ـ ٣٠ ، ابن الخطيب ، محمد لسان الدين ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، مصر ، الموسوعات ، ١٣١٩ هـ) ج ١ ص ٦٧ ـ ٦٩ ، المقري ، ابو العباس احمد ابن محمد ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، (ليدن ، بريل ، ١٨٥٨) ج ١ ، ص ٢٥٩ .

لما مات الحاجب المنصور سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) خلفه ابنه عبد الملك المظفر ثم جاء بعده اخوه عبد الرحمن الناصر سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م). وفي عهده اتسع الخلاف بين هذه العائلة المستوزرة وبين الشعب ، وكان الخلاف قد بدأ في عهد اخيه ، حتى عم النفور منهم ، وزاد فيه ان عبد الرحمن ارغم الخليفة السانج هشاما على تعيينه وليا للعهد وتسميته المأمون وناصر الدولة .[1] وزاد فيه ايضا ان آل بني عامر حالفوا بربر صنهاجة . فنقم الشعب على عبد الرحمن واغتنموا فرصة ذهابه على رأس حملة عسكرية الى شمال البلاد ، واعلنوا الثورة عليه بزعامة بعض امراء العائلة الاموية الذين حرمهم العامريون من وراثة العرش . وتمكن قائد الثورة ، محمد ابن هشام ابن عبد الجبار الاموى من ارغام الخليفة هشام على التنازل على العرش ، ثم اخفاه مدعيا انه مات . وتلقب ابن عبد الجبار بالمهدي . وقتل الثائرون الوزير عبد الرحمن ابن ابي عامر لما عاد من حملته واستولوا على ممتلكاته ، وذهبت بقتله دولة العامريين ، وكان ذلك سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م).[2] ومرت بعد ذلك احدى وعشرون سنة تعاقب فيها على الاندلس خلفاء كثيرون من بني حمود وبني امية ، كان الواحد منهم يعين او يخلع او يقتل من قبل اهل

---

(١) نص التعيين موجود في ابن خلدون ، عبد الرحمن ابن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ، (مصر ، بولاق ، ١٢٨٤ هـ) ج ٤ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ، المقري ج ١ ، ص ٢٧٧ .

(٢) ابن الاثير ، ج ٨ ، ص ٤٩٩ - ٥٠٠ ، المراكشي ص ٤٠ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ، المقري ج ١ ، ص ٢٧٨ .

قرطبة او الصقالبة [١] او البربر.

ذلك ان محمد ابن عبد الجبار المهدي لم تستقم له الخلافة بل جابه صعوبات كثيرة كان اولها قيام هشام ابن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر واخوه مع جماعة من البربر الذين كانوا ضد المهدي لانه اضطهدهم واستبد بهم وحاول طردهم من المدينة لميلهم الى العامريين ولكن المهدي هزم هشاما واخاه وقتلهما. [٢]

وازداد حقد البربر عليه فتكتلوا من جديد الى جانب بعض الامراء الناقمين على الاستبداد وبايع المعارضون سليمان ابن الحكم ابن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر خليفة باسم المستعين وذلك سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) وساروا معه الى قرطبة، وقاتلوا المهدي، فانهزم وتخفى، ودخل المستعين البلد. واظهر المهدي هشاما المؤيد ليرجع الامر له، فلم يوافقه احد لظنهم ان المؤيد مات. ولكن محمدا المهدي لم يعترف بالهزيمة بل لجأ الى الاسبانيين النصارى وطلب المعونة منهم، يؤازره واضح العامري، وساروا الى قرطبة، فخرج اليهم سليمان برجاله مدافعا حتى غلب. ودخل المهدي قرطبة وجدد البيعة لنفسه وجعل

---

(١) كان الصقالبة في اول الامر اسرى من قبائل السلاف، قبض عليهم الالمان وسواهم فباعوهم من العرب. ثم اطلق هذا الاسم على جميع الاسرى سواء كانوا من الافرنج او غيرهم من الذين كانوا يؤسرون احداثا ثم يستعربون. انظر حتي، فليب، وادوار جرجي، وجبور جبرائيل، تاريخ العرب، (بيروت، دار الكشاف، ١٩٤٩ - ١٩٥١) ج ٣، ص ٦٢٥

(٢) ابن الاثير ج ٨، ص ٥٠٠ - ٥٠١، المراكشي ص ٤١ - ٤٢، ابن خلدون ج ٤، ص ١٥٠، المقري ج ١، ص ٢٧٩.

الحجابة لواضح . غير ان جماعة من الفتيان العامريين استمالوا واضحا وتآمروا على ابن عبد الجبار واسروه ، ثم قتلوه واخرجوا المؤيد واجلسوه مجلس الخلافة وذلك في السنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) نفسها .(١)

واعيد المؤيد الى الخلافة ثانية ، وكان الحكم في دولته لواضح العامري، وكان المستعين في تلك المدة يحاول ان يرجع الى قرطبة بمساعدة البربر . واخذ يضيق على اهل قرطبة بالحصار وهم يدافعون حتى دخلها ، واقام نفسه خليفة ثانية واخرج المؤيد سنة ٤٠٣ هـ (٢) (١٠١٣ م) . ومن هذا الوقت يدخل هشام المؤيد عالم الاساطير ، اذ تروي الروايات التي تفتقر الى الاثبات التاريخي عدة قصص عن مصيره ، فيقول بعضها انه قتل ويقول بعضها الاخر انه ذهب الى مكة واقام فيها مدة ثم عاد الى الاندلس . والمهم انه لم يعد له اثر فعلي مباشر في مجرى الامور بالرغم من تمسك آل عباد به او باسمه على الاقل بعد ذلك سنوات في عهد القاضي ابي القاسم مؤسس الدولة العبادية في اشبيلية وعهد ابنه المعتضد كما سيأتي ذكره .

وكان من جملة جند المستعين رجلان ينتسبان الى الحسن ابن علي ابن ابي طالب ، هما القاسم وعلي ابنا حمود ، وكان المستعين قد ولى القاسم الجزيرة الخضراء وولى عليا ، وهو الاصغر ، سبتة وطنجة . فطمع علي بولاية الاندلس كلها

---

(١) ابن بسام الشنتريني ، ابو الحسن علي ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، (القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٩ - ١٩٤٥) قسم ١ ، مج ١ ، ص ٢٤-٢٥ و ٣١ ، ابن الاثير ج ٨ ، ص ٥٠١-٥٠٢ ، المراكشي ٤٢-٤٣ ، ابن خلدون ، مج ٤ ، ص ١٥١ ، المقري ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٢) ابن بسام ، ق ١ مج ١ ، ص ٢٦ و ٣٢ ، ابن الاثير ج ٩ ، ص ١٥٢-١٥٤ ، ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٥١ .

وادعى ان هشاما ابن الحكم ولاه عهده، واستمال البربر، فبايعوه، وسار في جنده الى مالقة فاستولى عليها سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٥م) . وبقي احفاده فيها يحكمون زمنا .[١] ثم سار علي ابن حمود الى قرطبة وهزم المستعين ثم قتله بتهمة اغتيال هشام المؤيد، حتى لا يعود الى اظهاره وذلك سنة ٤٠٧هـ[٢] (١٠١٧م) .

وصار الامر لبني حمود في قرطبة في السنين السبع التي تلت استيلاء علي ابن حمود عليها، ولكن الحكم لم يستقم لهم فيها وحدهم، فقد كان ينازعهم فيه طيلة تلك السنوات امراء من بني امية . وكانت فترة حكم الحموديين في قرطبة، وفي مالقة، تتميز بكثرة الاضطرابات والفتن والثورات بين القاسم ابن حمود وابناء اخيه من جهة، وبين ابناء حمود وابناء اميه من جهة اخرى .

لم يدم حكم علي ابن حمود طويلا، فقد تآمر عليه بعض رجال دولته من الصقالبة والموالين للبيت الاموي وقتلوه سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٨م)، واستخلفوا عبد الرحمن ابن محمد من احفاد الناصر الذى تلقب بالمرتضى، ولكنه قتل في السنة نفسها، وكان قد سار يحارب غرناطة واميرها زاوي ابن زيري من البربر، قيل قتل في الهزيمة، وقيل تآمر عليه بعض من بايعوه بالخلافة وقد ندموا على مبايعته لشدته وصرامته . [٣]

---

(١) ابن الاثير ج ٩، ص ١٨٩، ١٩٦ - ١٩٨، المراكشي، ص ٦١ - ٦٩

(٢) ابن بسام قسم ١، مج ١، ص ٢٦، ابن الاثير، ج ٩ ص ١٨٨-١٨٩، المراكشي ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣) ابن الاثير ج ٩، ص ١٩٠، المراكشي ص ٤٩ - ٥٠ .

وكان اهل قرطبة قد بايعوا القاسم ابن حمود بعد اخيه علي ، وتلقب هذا بالمأمون . ودام حكمه اربع سنوات ثم ثار عليه ابن اخيه يحي ابن علي سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١م) وطرده من قرطبة ، وتلقب يحي بالمعتلي . [١] واضطر القاسم ان يتجه الى اشبيلية ، وكانت تابعة لقرطبة في الحكم . فآواه فيها قاضيها ابو القاسم ابن عباد ، ومنها عاد في جيش من البربر سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢م) واحتلها لغياب المعتلي عنها، وأمسك زمامها بضعة اشهر ، ثم ما لبث ان اضطرب امره فيها ، فخلعه السكان مرة اخرى . ومرة ثانية لجأ الى اشبيلية ولكن ليصد عنها هذه المرة ، فلجأ الى مالقة . واعلن اهل قرطبة عودتهم الى موالاة الامويين في شخص عبد الرحمن ابن هشام ابن عبد الجبار الملقب بالمستظهر وذلك سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣م) . ولكن المستظهر هذا قتل بعد اقل من شهرين من ولايته وبايع الناس بقرطبة امويا اخر هو محمد ابن عبد الرحمن ابن عبيد الله ابن الناصر ولقب بالمستكفي ، وكان ضعيفا فلم تدم خلافته الا ستة عشر شهرا . وثار عليه اهل قرطبة سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥م) فخلعوه وقيل مات بعد ذلك مسموما . واعادوا دعوة المعتلي يحيى ابن علي ابن حمود ، وكان بمالقة يدعو لنفسه بالخلافة ، فرجع خليفة الى قرطبة ليخلع في العام التالي . ودخل قرطبة مجاهد وخيران العامريان ، واقاما فيها ما يقرب من شهر ثم اختلفا . [٢] وعند ذلك اجمع اهل قرطبة على خلع العلويين ثانية

---

(١) ابن بسام قسم ١ مج ٢ ، ص ١٢ .

(٢) تفاصيل هذه الخلافات القصيرة والاضطرابات التي نشأت عنها موجودة في المراجع الاتية : ابن بسام قسم ١ ، مج ١ ، ص ٣٤ - ٣٩ و ٧٨-٨٣ ، ابن الاثير ج ٩ ، ص ١٩٠-١٩٩ ، المراكشي ص ٤١-٥٨ ، ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٥٤-١٥٥ ، المقري ج ١ ، ص ٢٨٢ .

وبايعوا هشام ابن محمد ابن عبد الملك ابن الناصر الاموي سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧م) ولقب بالمعتد وكان بعيدا ، فدخل قرطبة سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩م) ولكنه لم يقو على تثبيت الامور فيها ، فعم الاضطراب وسئم سكان قرطبة الفتن والثورات فاجمعوا على خلع الخليفة . واخرج هشام المعتد عن قرطبة مع نسائه واولاده في اسوأ حال وذلك سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) واعلن اهل قرطبة نظام حكم شبيه بالجمهوري[١] برئاسة الوزير ابي الحزم ابن جهور . وكان هذا انتهاء عصر الخلافة الاموية في الاندلس .[٢]

وفي الوقت نفسه اعلنت كل مقاطعة في الاندلس استقلالها ولم تعد البلاد وحدة سياسية ، كما كانت من قبل ، بل انقسمت الى دويلات متنازعة يحكمها امراء عرب او بربر او موال صقالبة . وقد اطلق على هذه الدويلات وامرائها اسم ملوك الطوائف .[٣]

---

(١) راجع ابن بسام قسم ١ ، مجـ ٢ ، ص ١١٥ ، ابن خاقان ، ابو نصر الفتح ، مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس ، (القسطنطينية ، الجوائب ١٣٠٢هـ) ص ١٤ .

(٢) ابن الاثير ، ج ٩ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ، المراكشي ص ٥٧ - ٥٨ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ، المقري ج ١ ، ص ٢٨٦ .

(٣) اطلق المؤرخون هذه التسمية على الدويلات التي حكمت الاندلس بعد انقراض الخلافة الاموية ، من هؤلاء المؤرخين ابن المواعيني ، ريحان الالباب ، في دوزي ، رينهارت بيترآن ، محرر ، تاريخ بني عباد (ليدن ، لشتمان ، ١٨٤٦ - ١٨٦٣) ، ج ٢ ، ص ٦ ، المراكشي ص ٧٠ ، ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٥٥ وقد وردت هذه التسمية كثيرا عند المقري الذي يعد كتابه موسوعة لكل ما قاله الرواة والمؤرخون عن الاندلس راجع المقري ج ١ ، ص ١٣١ ، ص ١٩١ وص ٢٨٠ و ٢٨٦ .

وكان لبعض هذه الدويلات تاريخ يذكر في السياسة والعلم والادب والحضارة ،وكان عددها يزيد عن العشرين ، من اشهرها دولة بني جهور في قرطبة ودولة بني عباد في اشبيلية ودولة بني عبد العزيز في بلنسية ودولة بني الافطس في طليطلة ، ودولة بني ذي النون في اشبونة وشنتمرية الغرب ، ودولة بني برزال في قرمونة ودولة بني يقسن في رندة ودولة بني صمادح في المرية ودولة بني مجاهد العامري في دانية وميورقة وغيرها . (١)

ولم يكتف هؤلاء الامراء بالاستقلال على حساب الدولة الاموية في الاندلس بل تحدوا الدولة العباسية في المشرق واطلقوا على انفسهم اسماء خلفائها والقابهم . تلقب ابني ذي النون بالمأمون وابن صمادح بالمعتصم وابن الافطس بالمتوكل وابن هود بالمستعين . وتلقب ملوك بني عباد بالمعتضد والمعتمد . ولقب المعتمد اولاده الرشيد والمأمون والراضي . حتى قال فيهم ابن رشيق القيرواني :

مما يزهدني في ارض اندلس ... سماع معتضد فيها ومعتمد

القاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد (٢)

ولم تهدأ الاحوال في الاندلس بعد هذه التقسيمات ، فقد كانت كل امارة

---

(١) هذه وغيرها من دويلات ملوك الطوائف ورد ذكرها في المراجع الاتية : ابن المواعيني ، في دوزي ج ٢ ، ص ٦ - ٨ ، ابن الاثير ج ٩ ، ص ٢٠٠-٢٠٧ ، المراكشي ص ٧٠ - ٧٥ و ٩٢ . وافضل المراجع الحديثة لمراجعة اسماء ملوك الطوائف وبلدانهم وملوكهم وتاريخ حكمهم هو زامباور ، ادوارد فون ، معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، (القاهرة ، جامعة فؤاد الاول ، ١٩٥١) ج ١ ، ص ٨٦ - ٩٢ .

(٢) ابن المواعيني ، في دوزي ج ٢ ، ص ٩ ، ابن الخطيب ، محمد لسان الدين ، تاريخ اسبانية الاسلامية او كتاب اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، (بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٥٦) ص ١٤٤ ، المقري ج ١ ، ص ١٣١ .

تسعى للتوسع على حساب جارتها حتى عمت البلاد موجة الحروب الداخلية التي اغرت المسيحيين والمغاربة على محاربة هذه الدويلات والتدخل في شؤون البلاد ، مما ادى في النهاية الى هجوم يوسف ابن تاشفين امير مراكش على الاندلس والقضاء على نظام الطوائف .

وكانت دولة بني عباد من اقوى ملوك الطوائف واوسعها شأنا في مضماري السياسة والادب ، فقد استطاع القاضي ابو القاسم ابن عباد مؤسس الدولة وخليفتاه المعتضد والمعتمد في مدى سبعين سنة من حكمهم فيها ان يوسعوا مملكتهم ويضموا تحت رايتها كبريات مدن الاندلس ، ويقضوا على كبار حكام هذه الدويلات ، حتى قيل ان الدولة العبادية تشبه الدولة العباسية بهاء وسعة ملك وجمع فضائل (١) .

اما في حقل الادب والشعر فلبني عباد فضل فيهما وتاريخ ، فقد كانوا هم واولادهم ووزراؤهم شعراء وادباء ورعوا جميعهم الشعر واصحابه احسن رعاية .

---

(١) المقرى ج ٢ ، ص ٦٠٦ .

بنـــوعبـــاد : اصلهم ونسبهم

تجمع المصادر الاندلسية التي تؤرخ لبني عباد على ارجاع نسبهم الى اصل عربي هو لخم ، و معظمها يعتمد على ما يظهر ، على رواية ابي رافع المعروف بان حـزم في كتابه الهادي الى معرفة النسب العبادي الذى قال فيه ، في ترجمة القاضي ابي القاسم مؤسس حكم بني عباد في اشبيلية : " هو ابو القاسم محمد ابن ذي الوزارتين ابي الوليد اسماعيل ابن محمد ابن اسماعيل ابن قريش ابن عباد ابن عمرو بن اسلم ابن عمرو ابن عطاف ابن نعيم ، وعطاف هو الداخل منهم بالاندلس في طاعة بلـج ابن بشر القشيرى وهو من اهل حمص العريش في اخر الجفار بين مصر والشـــام ، ونزل بالاندلس بقرية يومين في اقليم طشانة ، من ارض اشبيلية ". (١)

على ان اقدم مؤرخ نسّاب يرجعهم الى لخم هو ابن حزم في كتابه جمهرة انساب العرب اذ يقول في ذكر قبائل لخم وفروعها : " ودار لخم بالشام بين مصر وبين حوالي العريش ، ودارهم بالاندلس شذونة واشبيلية ومنهم آل عباد " (٢) واما الفتح ابن خاقان فيقول ايضا بنسبتهم الى لخم وان جدهم هو ابن ماء السماء . (٣)

---

(١) ابن بسام ، ابو الحسن علي ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، في دوزي ، رينهارت بيترآن ، محرر ، تاريخ بني عباد ، (ليدن لشتمان ، ١٨٤٦ ـ ١٨٦٣) ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٢) ابن حزم الاندلسي ، ابو محمد علي ابن سعيد ، جمهرة انساب العرب ، (مصر ، دار المعارف ، ١٩٤٨) ص ٣٩٨ .

(٣) ابن خاقان ، المطمح ، ص ١٠

وفي الحلة السيراء ذكر ابن الابار كلام ابي رافع في نسب بني عباد ثم قال : "وقال غير ابي رافع انهم من ولد النعمان ابن المنذر ابن ماء السماء وبذلك كانوا يفخرون ويمدحون" . (١)

ويقر ابن الخطيب نسب بني عباد الى لخم ويذكر التسلسل كما ورد عند ابي رافع (٢) ويقول في كتابه اعمال الاعلام انهم من العرب الداخلين الى الاندلس من لخم وينسب كلامه الى ابن حيان (٣) فيذكر قول ابن حيان انه "جاز الى الاندلس بعد الفتح رهط من لخم تفرقوا في اقدارها وانحاز منهم الى غربيها اخوان ، نعيم وعطاف ، فنزل احدهما بقرية يومين ، وتناسل ولده بها مدة ثم انتقلوا الى اشبيلية فنموا" ، ثم يذكر ابا القاسم وينسبه كما نسبه ابو رافع ابن حزم . (٤)

وجاء في نفح الطيب عن ابن غالب (المتوفى في القرن السادس) في ذكر انساب قبائل الاندلس "ومنهم من ينتسب الى لخم ابن عدي ابن الحارث ابن

---

(١) ابن الابار ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله ، الحلة السيراء ، في دوزى ، رينهارت بيتر آن ، محرر ، تاريخ بني عباد ، (ليدن ، لشتمان ، ١٨٤٦ - ١٨٦٣) ج ٢ ، ص٤٧ .

(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص٧٣

(٣) توفي ابن حيان سنة ٤٦٩ هـ وقد اعتمد ابن بسام على كتابه في التاريخ كما ذكر في مقدمة كتابه الذخيرة . راجع ابن بسام القسم ١ ، المجلد ١ ص ٧ .

(٤) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

مرة ، منهم بنوعباد اصحاب اشبيلية وغيرها وهم من ولد النعمان ابن المنذر صاحب الحيرة ".(١)

ومن المؤلفين القدامى في تاريخ الاندلس الذين يرجعون نسب آل عباد الى لخم ممن ذكروا ذلك بدون تفصيل في الكلام ، ابن بسام (٢) ، وابن بشكوال (٣) والملك المنصور (٤) وابن الاثير (٥) ، والمراكشي (٦) ، وابن خلكان (٧) والنباهي (٨) ، وابن خلدون (٩).

---

(١) المقري ج ١ ، ص ١٨٨ .

(٢) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٢٠١

(٣) ابن بشكوال ، ابو القاسم خلف بن عبد الملك ، الصلة في تاريخ ائمة الاندلس ، (القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٥٥) ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

(٤) الملك المنصور ، ابو العلاء محمد ، اخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء في دوزي ، رينهارت بيترآن ، محرر ، تاريخ بني عباد ، (ليدن لشتمان ، ١٨٤٦ - ١٨٦٣) ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٥) ابن الاثير ج ٩ ، ص ٢٠١

(٦) المراكشي ، ص ٥١ و ٧٣

(٧) ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد ، وفيات الاعيان ، (القاهرة ، بولاق ، ١٢٩٩ هـ) ج ٢ ، ص ٣٦ .

(٨) النباهي ، ابو الحسن عبد الله ، تاريخ قضاة الاندلس ، (القاهرة ، دار الكاتب المصري ، ١٩٤٨) ص ٩٤ .

(٩) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٦ .

وهكذا نرى ان جميع المصادر تقول بنسبة بني عباد الى لخم وان بعضها ينسبهم الى المنـذر ملك الحيرة ،غير ان الظاهر في هذه الروايات انها تكاد تعتمد كلها - كما سبق وذكرنا - على رواية ابي رافع في كتابه "الهادي" لانها لا تزيـد على ما جاء في روايته ، ولا ترجع نسب القاضي ابن عباد الى ابعد من الجد السابع عطاف ابن نعيم ،الذى كان اول من دخل منهم الى الاندلس . وبعض منها يكتفـي بان ينسب القاضي بعد ذكر ابيه وجده ،الى لخم ، ومنهم من يزيد ، فيقول ، وجدهم المنذر ابن ماء السماء بدون تسلسل الى عطاف ابن نعيم .

اما المحدثون من المؤلفين في تاريخ الاندلس واخبارها ،الذى تناولوا في ابحاثهم ذكر بني عباد ، فمنهم من قبل بهذه النسبة الى لخم والى المنذر مثـل الـطود صاحب كتاب "بنو عباد باشبيلية" ومنهم من ذكرها ذكرا عابرا متبنيا الروايات القديمة في هذا النسب ، مثل يوسف اشباخ الذى قال فيهم : " انهم ينتمون الـى اصل من اصول الشام "[1]، بدون تعليق ، ومثل نيكـل الذى يعرض نسبهم كمـا ورد عند المؤرخين وانتماءهم الى لخم والمناذرة بدون تعليق ايضا .[2]

ومنهم من يشك في اتصال نسب بني عباد بملوك لخم الذين كانوا يحكمـون الحيرة كدوزى حيث يقول : "ان القاضي كان يعوزه ان يضمن الى المؤهلات التي عنده ان تندمج اسرته ضمن السلالات العريقة القديمة" ، ويقول في شيء من التحامل

---

(١) اشباخ ، يوسف ، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة وتعليـق محمد عبد الله عنان ، (القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠) ص ٣٧

(٢) Nykl , A.R., Hispano Arabic Poetry & its relations with the Old Provencal Troubadours, (Baltimore, 1946) p. 127.

على القاضي ابي القاسم وعلى مركزه "ان القاضي لم يشك في ان الارستقراطية العظيمة المجيدة في اشبيلية لا بد ان تثور على صعلوك مثله غير معروف النسب يسمو الى تسنم الخلافة ، ولم يكن ثمة شيء غير هذا في الواقع ، وقد وقع هذا حقيقة عند ما اوشك بنو عباد ان يؤسسوا الخلافة لانفسهم ، وثمة زعم آل عباد انهم من سلالة ملوك لخم الذين كانوا يحكمون الحيرة قديما ، وكان الشعراء الذين يريدون اشباع بطونهم يتحينون الفرص للاشادة بهذا النسب العريق المزعوم" . اما حجته في نفي نسبة بني عباد الى ملوك لخم فهي "ان بني عباد والمتزلفين اليهم ومن يتملقونهم لم يستطيعوا ان يقيموا الدليل على ذلك ، وكل ما يربط هذه الاسرة بملوك الحيرة انها تنتسب الى قبيلة لخم اليمنية التي ينتسب اليها ملوك الحيرة ، ولكن فرع اسرة آل عباد الذى تسلسل فيه آباؤهم لم يقطن على ما يظهر الحيرة بتاتا ، بل كانوا يقيمون اخيرا قرب الحريش الواقعة على حدود مصر وسوريا في ناحية حمص ، ومع ان آل عباد بذلوا ما في استطاعتهم كي يصلوا نسبهم بملوك الحيرة فانهم لم يستطيعوا ان يصعدوا به الى ابعد من نعيم والد عطاف" . (١)

واحب ان اذكرهنا رأي عبد السلام الطود في حكم دوزي هذا . فهو يقر كل الاقرار بنسبة بني عباد الى لخم والى المناذرة وينكر على دوزي نفيه ذلك ويجيب على حجته بان "دوزي يتطلب ان يثبت بنو عباد نسبهم في سلسلة طويلة حتى يصلوا الى المنذر ابن ماء السماء ، وهذا لا حاجة له" ، ويضيف الطود

---

(١) دوزي ، رينهارت بيتر آن ، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام ، ترجمة كامل كيلاني ، (القاهرة ، عيسى البابي الحلبي ، ١٩٣٣) ص١٩ - ٢٠

قائلا وكم تعجبنا القاعدة التي وضعها الفقهاء المسلمون وهي ان الناس مصدقون في انسابهم ما لم يكن هناك دليل قاطع ينقض دعواهم " ، ويقول في سكنى الفرع الذي ينتسب اليه بنوعباد ، العريش وليس الحيرة ، " ولم يدر دوزي ان العرب عندما فتحوا الشام ، استوطن الفاتحون - ومن بينهم عرب الحيرة - اقاليمها ، ولا يبعد ان يكون عطاف وابوه قدانتقل مع هؤلاء في موجة الفتح الاسلامي فاستوطن اقليم حمص والعريش ثم رحل الى الاندلس " . (١)

على ان دوزي كما يتبين يقر نسب بني عباد الى لخم ولكنه يشك بل ينفي نسبتهم الى ملوك الحيرة ، وهذا الشك محتمل لان ليس هناك ما يثبت هذه النسبة فذكر انتسابهم الى المنذر ابن ماء السماء ورد في اقوال الشعراء المداحين اكثر مما ورد في اقوال المؤرخين الذين كان ذكرهم لهذا النسب ذكرا عابرا بدون اثبات وتسلسل قوي ، وهذا لا يمكن الاستناد عليه . اضف الى هذا ، ان القاضي ابن عباد استبدبحكم اشبيلية في وقت تنازع فيه على الحكم اكثر من رجل يؤمن مؤيدوه انه بنسبه جدير بالحكم ، كابن المنصور ابن ابي عامر وخلفاء بني امية وابناء حمود العلويين . فلا غرابة اذن ان يثبت القاضي ابن عباد وهو المعروف بدهائه وحسن سياسته جدارته بالحكم بنسب ملكي اصيل يساعده في ذلك كونه من لخم ، وملوك الحيرة كانوا من لخم . والواقع ان الروايات التي كانت تروى عن ملوك الحيرة وتصور شجاعتهم وباسهم جعلت الناس يتقربون منهم وينتسبون اليهم ليس في الاندلس فحسب بل في سورية نفسها وفي اوقات متأخرة ايضا . فقد ادعى معظم العائلات الدرزية العربية في لبنان ،

---

(١) الطود ، عبد السلام احمد ، بنوعباد باشبيلية ، (تطوان ، كريمادي ، ١٩٤٦) ص ٣٧ - ٣٨ .

مثل التنوخيين والمعنيين وغيرهم انهم من احفاد المنذر ابن ماء السماء وذلك لما شكت قبائل لبنان العربية باصلهم .(١)

ولا بأس هنا ان نذكر شيئا من اقوال الشعراء في نسب بني عباد وارجاعه الى ملوك الحيرة من لخم ، فهذا ابن اللبانة يقول فيهم

من بني المنذرين وهو انتساب زاد في فخره بنو عباد (٢)

ويقول ابن اللبانة ايضا في وصفهم

من حلبة السبق لا برق يخاطفها الى مداها ولا ريح يجاريها
ترد هم نسبة نحو السماء فهم من مائها وعلاهم دراريها

ويقول ايضا

نفر الى ماء السماء نماهم نسب على اوج النجوم مخيم (٣)

ويكثر ابن اللبانة ذكر نسب بني عباد في اشعاره فيهم واخباره عنهم . ويباهي المعتمد نفسه بنسبه اللخمي هذا في اكثر من موضع ، يقول وقد غلب على امره بعد نضال شديد من جانبه :

---

(١) الشدياق ، طنوس ، اخبار الاعيان في جبل لبنان ، (بيروت ، ١٨٥٩) ص ١٢٨ ، ١٦٢ ، ٢٢٤ ، اما الدوافع التي حدت بهم الى هذا الادعاء فطالعها في
Hitti, Philip, The Origins of the Druze People and Religion, (New York, 1928) pp. 18-23.

(٢) ابن الابار ، في دوزي ج ٢ ، ص ٤٧ ، المقري ج ٢ ، ص ٦٨٨

(٣) النويري ، شهاب الدين احمد ، نهاية الارب في فنون الادب ، في دوزي ، رينهارت بيترآن ، محرر ، تاريخ بني عباد ، (ليدن ، لشتمان ، ١٨٤٦-١٨٦٣) ج ٢ ، ص ١٣٢ .

ما سرت يوما للقتا ل وكان من املي الرجوع
شيم الالى انا منهم والاصل تتبعه الفروع (١)

وقال في منفاه مباهيا بنسبة اللخمي وقد قصده الشعراء مستجدين و هو لا يستطيع ان يكافيهم :

سألوا العسير من الاسير وانه بسؤاله لاحق منهم فاعجب
لولا الحياء وعزة لخمية طي الحشا ناغاهم في المطلب (٢)

وللمأمون ابن المعتمد بيتان يذكر فيهما انتسابه الى لخم يقول:

قومي لخم وهم ما هم اهل الندى والباس يوم الكفاح
كم كحلوه من عيون القنا ووردوه من خدود الصفاح (٣)

وبكلمة ، نستطيع ان نقول ان بني عباد ينتسبون الى لخم اعتمادا على الروايات الكثيرة المختلفة التي تنسبهم الى لخم . وليس هذا غريبا ، فتصانيف الادب الاندلسي القديمة تحفل بذكر الشعراء والادباء والامراء والقضاة الذين ينتسبون الى القبائل العربية ، ونظرة سريعة في اي من هذه الكتب ترى فيها نسبة قاض او وال او شاعر

---

(١) ابن خاقان ، الفتح ابو نصر ، قلائد العقيان ، (باريس ، ؟ ١٢٧٧ هـ) ، ص ٢٤ ، المقري ج ٢ ، ص ٦٢٢ .

(٢) الكاتب الاصفهاني عماد الدين محمد بن محمد ، خريدة القصر وجريدة العصر ، في دوزي ، رينهارت بيتر آن ، محرر ، تاريخ بني عباد ، (ليدن ، لشتمان ، ١٨٤٦-١٨٦٣) ج ١ ، ص ٣٩٥ ، ابن بسام ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

(٣) ابن سعيد ، علي ابن موسى ، عنوان المرقصات والمطربات ، (مصر ، جمعية المعارف ، ١٢٨٦ هـ) ، ص ٦٠

اواديب الى لخم اوغير لخم من قبائل المشرق . على انه لا يمكن الجزم بان بنـــي عباد من ولد النعمان ابن المنذر ملك الحيرة لان ليس هناك اثبات على ذلك ولأن الخصام على الحكم في الاندلس في الوقت الذى حاول فيه القاضي الانفراد بحكـــم اشبيلية والاستيلاء على غيرها من مدن الاندلس كان شديدا وكان بين عوائل اصيلة . فقد يكون هذا الخصام حدا بالقاضي الى الانتساب الى ملوك الحيرة ليثبت مكانته وجدارته بالحكم ، وان يكن قد فـعل هذا فهو ليس باول من حاول الالتحـــاق بنسب عريق ولا آخرهم . لذلك يمكننا ان نقول مع دوزي ان هذه الاسرة تنتسب الى قبيلة لخم اليمنية التي ينتسب اليها ملوك الحيرة ، ولا نجزم بانتسابهم الـى هؤلاء الملوك .

بدء حكم بني عبـاد في اشبيليـة

دخل بنوعباد في تاريخ اشبيلية عندما ولي الشرطة الوسطى فيها القاضي اسماعيل ابن محمد ابن عباد ، ويكنـى بابي الوليد ، كما عهد اليه بخطة الامامـة لصلاة الجمعة ، وكان ذلك في عهد هشام ابن الحكم ، ولاه ذلك المنصور ابـن ابي عامر . على ان الرواة والمؤرخين يجمعون على ان بيت بني عباد بيت وجاهـة ورئاسة منذ القدم ، ويرجعون الرئاسة فيهم الى قريش (الجد الثاني للقاضي ابـي الوليد) ، ويقول احدهم انه لما هلك قريش ملك السيادة ابنه اسماعيل [1]، وأن محمد ابن اسماعيل ابن قريش (والد القاضي ابي الوليد) كان صاحب الصـلاة بطشانة .[2] اما اول من تولى منهم منصبا في اشبيلية فهو القاضي ابو الوليـد على ما يظهر .

ويصف ابن حيـان القاضي ابا الوليد هذا بقوله : " واسماعيل ابن عباد قاضيهم قديم الولاية ورجل الغرب قاطبة المتصل الرياسة في الجماعة والفتنـة ، وكان ايسر مكـور بالاندلس ينفق من ماله وغلاته ، لم يجمع درهما قط من مال السلطان ولا خدمه وكان واسع اليد بالمشاركة ، آوى صفوف الجالية من قرطبـة عند احتـدام الفتنـة ، وكان معلوما بوفور العقل وسبوغ العلم والركانة مع الدهـاء

---

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٧٣ ، واعمال الاعلام ص ١٥٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٥٦ . وطشانة ، من اقليم اشبيلية ، هي البلد الذى نـزل فيه عطاف ابن نعيم اول من جاء الاندلس من عائلته .

وبعد النظر واصابة الفرصة ".[1] وقال فيه ابن حيان ايضا : "كان حسن المعرفة بقطع من الشعر صالح النظر في الفقه عالما كاتبا حليما اديبا حسيبا وافر النفقة، (ذكروا ان املاكه كانت ثلث كورته[2]) قديم الجاه على سلطان الاندلس من العامرية مشتغلا لهم بالامور العظيمة ".[3] "واستمرت حاله مع من نجم في الفتنة فنظر في صلاح القطر وحمله الطريقة المثلى في السياسة الى ان نزل في عينيه الماء سنة ٤١٤ هـ وقدح فعاد اليه بصره فلم يستجز الحكم بين الناس فولى ولده ابا القاسم القضاء واقتصر هو على رياسة البلد وتولي رأى المشيخة" ويتابع ابن حيان الكلام عن علمه وادبه وحزمه في مسك زمام المدينة والوقوف في وجه البربر الذين نزلوا حولها بالتدبير الصحيح والرأي الراجح الى ان يقول انه توفي سنة ٤١٤ هـ[4] (١٠٢٣م) اما ابن بشكوال فيقول انه مات سنة ٤١٠ هـ (١٠٢٠م) عن خمسة وستين عاما ، وكانت وفاته ودفنه في اشبيلية .[5] وايد النباهي قول ابن بشكوال بوفاة اسماعيل هذا عام ٤١٠[6].

ويصعب البت في سنة وفاة القاضي اسماعيل لان الاخبار عنه قليلة ، ومتشابكة باخبار ابنه القاضي ابي القاسم . فان القاضي اسماعيل هذا المكني بابي الوليد

---

(١) ابن بسام ، في دوزي ج ٢ ، ص ٢٢٠

(٢) اعتبر اسماعيل ابن عباد من اغنى القضاه حتى ضرب به المثل. انظر النباهي ، ص ٩٢

(٣) النباهي ، ص ٩٤

(٤) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٢

(٥) ابن بشكوال ج ١ ، ص ١٠٣

(٦) النباهي ص ٩٤ .

يذكر اسمه بانه اسماعيل ابن قريش واسماعيل ابن عباد واسماعيل ابن محمد ، وغير هذا من التشويش الكثير في اخباره على انه يمكن ترجيح سنة ٤١٠ هـ لتاريخ وفاته اعتمادا على ما جاء في اخبار ابنه القاضي ابي القاسم مع القاسم ابن حمود ، عندما لجأ هذا الى اشبيلية على اثر ثورة ابن اخيه يحيى عليه وطرده من قرطبة اذ تقول معظم الروايات التي تذكر التجاءه الى اشبيلية ان الذى آواه فيها هو القاضي ابو القاسم سنة ٤١٢ هـ. (١) وتقول احدى هذه الروايات في الكلام عن بدء رئاسته انه " كان له اختصاص بالقاسم ابن حمود وهو الذى احكم عقد ولايته. (٢) وتقول رواية اخرى ان القاسم ابن حمود كان قد اصطنعه بعد مهلك ابيه اسماعيل ورد عليه ميراثه من قضاء بلده بعد بعده عنه مدة ووثق به فخالفة (اي القاضي ابو القاسم) وصده عن اشبيلية لما قصده من قرطبه مغلولا. (٣) فاذا كان القاسم ابن حمود هو الذى اصطنعه وولاه القضاء بعد مهلك ابيه ، فلا بد ان يكون ذلك قد حدث بين سنة ٤٠٨ عندما تولى القاسم حكم قرطبة وبين سنة ٤١٢ عندما اخرج عنها. كذلك اذا كان القاضي ابو القاسم ابن عباد هو الذى آوى القاسم عند التجائه الى اشبيلية في المرة الاولى سنة ٤١٢ هـ فلا بد ان يكون القاضي ابو القاسم قد تولى قضاء قرطبة قبل سنة ٤١٤ هـ ، وبذلك تقرب من الصحة الرواية التي تقول بان وفاة القاضي ابي الوليد حدثت سنة ٤١٠ هـ.

القاضي محمد ابن اسماعيل: ومهما يكن من امر تاريخ وفاة القاضي ابي الوليد فان

---

(١) راجع ص ١٣

(٢) ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٥٦

(٣) ابن بسام ، في دوزي ج ١ ، ص ٢٢١

ابنه القاضي ابو القاسم محمد ابن عباد ظهر على مسرح اشبيلية كمؤسس دولة بني عباد سنة ٤١٤ هـ وذلك عندما اضطربت الاحوال في قرطبة وسار القاسم ابن حمود الى اشبيلية وقد اخرجه ابن اخيه يحي ابن علي فاستقبله اهل المدينة بالترحاب . (١) واطمعه القاضي محمد ابن عباد في الملك وقبل بايع له بالخلافة في اشبيلية في الوقت الذى كان يحي المعتلي ينادي بنفسه خليفة في قرطبة (٢) ثم جمع القاسم حوله البربر وعاد فدخل قرطبة وجدد البيعة لنفسه فيها ، ولكن اهل قرطبة طردوه بعد اشهر فعاد سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣م) الى اشبيلية مؤملا ان يقابل بها كما قوبل في المرة الاولى . وكان قد كتب لاهل المدينة في اخلاء الف دار ليسكنها البربر الذين كانوا معه يدعمونه ولكن اهل اشبيلية رفضوا ذلك وضبطوا البلد في وجهه بعد ان اخرجوا ولديه اللذين كانا في اشبيلية مع رجال ابيهما (٣) وكان القاضي ابو القاسم وراء تلك الحركة وهو الذي حرض الشعب على طرد القاسم ابن حمود وابنيه . (٤)

واقام اهل اشبيلية بعد ذلك ثلاثة من شيوخهم اولياء عليهم ، وهم ابو القاسم محمد ابن اسماعيل ابن عباد ومحمد ابن يربم الالهاني وابو بكر محمد ابن محمد ابن الحسن الزبيدي . (٥) ولسبب ما اتفق محمد ابن يربم والزبيدي

---

(١) كانت اشبيلية تعد عملا من اعمال قرطبة ومن ثم من اعمال القاسم ابن حمود اثناء ولايته عليها .

(٢) ابن الاثير ج ٩ ، ص ١٩٢ ، المقري ج ١ ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٣) ابن بسام ، ق ١ ، مج ٢ ، ص ١٧ ، ابن بسام ، في دوزي ج ١ ص ٢٢١ ، ابن الاثير ج ٩ ، ص ١٩٣ ، المراكشي ص ٥١ و ٩٤ ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٣ .

(٤) المقري ج ١ ، ص ٣١٩ ، ابن بسام ق ١ مج ٢ ص ١٢

(٥) يقول ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٦ ان الزبيدي هو مؤلف كتاب مختصر العين في اللغة ومعلم هشام .

على تسليم السلطات باكملها للقاضي ابي القاسم ، ولكنه لم يقبل الا بعد الحـــاح طويل . [١] وكان اول الاعمال التي قام بها القاضي بعد انفراده بالحكم انه قضى على الشيخين اللذين اشتركا معه في بدء الحكم ، واستوزر رجلا من اهل البادية ليست له نباهة ، واستعان بابنه اسماعيل معه [٢].

ثم تفرغ القاضي لتحسين امور البلاد وتكوين ادارة حربية ، فعمـــل على ايجاد جيش في اشبيلية جمع رجاله من الجنود والعرب والبربر والنصارى . [٣]

ولما صار لابن عباد جيش قوي سمت نفسه الى توسيع ملكه ، فاراد الاستيلاء على مدينة باجة ، وكانت في اضطراب داخلي ، فارسل اليها جيشا بقيادة ابنـــه اسماعيل ومساعدة حليفه محمد ابن عبدالله البرزالي صاحب قرمونة ، ونازع فيها المظفر ابن الافطس وانتصر عليه . غير ان ابن الافطس انتقم لنفسه من القاضي عندما سير القاضي ابنه اسماعيل في سنة ٤٢٥ هـ (١٠٣٤ م) مع جيش الى بلاد العدو يريد ارض غليسية مارا ببلد ابن الافطس ، اذ غدر به ابن الافطس وضايقه في شعب فبادر اسماعيل الى النجاة بنفسه وهرب برجاله بعد ان لحقت بهم خسائر واصابتهم شدائد كثيرة . [٤] وقد اوغرت هذه الحادثة صدر ابن عباد حقدا على ابن الافطس وظلت العداوة في عائلتيهما طويلا .

---

(١) ابن الاثير ج ٩ ، ص ١٩٣ ، المراكشي ص ٩٤ . يقول المراكشي " انه تهيب الاستبداد والانفراد " ولعل هذا التردد من باب الدهاء والدبلوماسية .

(٢) ابن بسام ، في دوزي ج ١ ، ص ٢٢٣

(٣) ابن بسام ، في دوزي ج ١ ، ص ٢٢١ ، ابن المواعيني ، في دوزي ج ٢ ، ص ٤٤ ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٣ ، ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٥٦ .

(٤) ابن بسام ، في دوزي ج ١ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٥ .

وكان ابن جهور في قرطبة يعلو امره ، لذلك بدأ القاضي يشعر بخوف من سلطة ابن جهور وتطلعه الى الملك . كذلك كان يخاف سطوة علي ابن حمود وتثبت ملكه في قرمونة ، وكان متربصا له يحاصر اشبيلية . لذلك فكر في طريقة يؤمن فيها رد هذا الخطر ، وهي فكرة توحيد البلدان تحت رايته عن طريق غير طريق الغزو والحصار الذى لم يؤمن نجاحه دائما . وكانت فكرته تلك ان يعيد الملك لبني اخيه بان يذيع في جميع انحاء الاندلس ان هشاما الثاني الذي كان قد اختفى في عهد سليمان المستعين ، لا يزال حيا وانه طلب من ابي القاسم ان ينصره ويرد له ملكه . وامر القاضي بعد ذلك ان يدعى للمؤيد على منابر اشبيلية وذلك سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦م) وكان القاضي قد اقام باشبيلية رجلا يشبه هشاما اسمه خلف الحصري ، قيل انه ادعى انه هشام ، احضره القاضي واشهد عليه رجالا انه هو هشام وبايعه الناس ، وتولى القاضي اسماعيل الخدمة بين يديه في رتبة الوزارة آمرا وناهيا عنه بما يريده .(١)

والروايات في عودة هشام المؤيد كثيرة ومختلفة لكنها جميعها تقول بان هشاما هذا لم يكن له وجود وانما ادعى وجوده ابن عباد . واعيد هنا على سبيل المثال ما جاء به ابن الخطيب وهو يجمل الى حد كبير ما جاء في هذه الروايات . قال صاحب الرواية "وكان من تدبير اسماعيل ابن عباد ، لما ضاق ذرعا بمزاحمة بني حمود الفاطميين من كل جهة ولهم في الناس النداء المسموع

---

(١) ابن بسام ، في دوزي ج ١ ، ص ٢٢٢ ، ابن عبد الحق الخزرجي القرطبي ، ابو جعفر ، في دوزي ، رينهارت بيتر آن مصحرر ، تاريخ بني عباد ، (ليدن ، لشتمان ، ١٨٤٦ - ١٨٦٣) ج ٢ ، ص ١٣ - ١٤ ، النويري ، في دوزي ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٢٩ ، ابن الاثير ج ٩ ، ص ٢٠٢ .

والحق المعلوم ان دعا الى تجديد بيعة الخليفة هشام المؤيد المشكوك في موته المدعي كثير من الناس انه فر لوجهه ، وزعم انه عثر عليه سائحا في الارض وقد كان صاحب المرية زهير العامري ذهب مذهبه في رجل سقاء شديد الشبه بهشام فموه به زمنا سنة ٤٢٦ ثم تلاشى الامر في يده فطرده . واحكم ابن عباد امره ما علق منه اليد بشبهه ، فمشى الحال بها زمنا " . ثم يسير الى رواية ابن القطان حاكيا عنه انه ذكر ان هشاما فر من الفتنة ، ورفض الملك وكتم امره ، واستقر رأيه في قرية من قرى اشبيلية يؤذن في مسجدها ويعمره . فخرج اليه القاضي محمد ابن اسماعيل وولده وخاصته ومعه اثواب الخلفاء وقابلوه وهو خارج من المسجد ، وترجل القاضي ومن معه وقبلوا الارض بين يديه ، واقاموه والبسوه الكسوة الخلافية واركبوه ، ومشى القاضي ومن معه امامه . وكان الرجل اشبه الناس بهشام ، ودخلوا به المدينة وصائح ينادى ، يا أهل اشبيلية اشكروا الله على ما انعم به عليكم فهذا مولاكم قد صرف الله الخلافة من قرطبة الى بلدكم . وحجبه ابن عباد بابنه اسماعيل وخاطب الناس بكل جهة في شأنه ، فوجه الكثير منهم ارساله وثقاته ليقفوا على حقيقة امره ، فادخلوا على الرجل في بيت مظلم وذكر انه كان يشكو مرض عينيه فمنهم المقر ومنهم المنكر ". (١) ويقول ابن الخطيب ايضا " وكان من غرائب الدهران ابن عباد ضم باشبيلية رجلا شيخا مأبونا من عرض الرعاع اضبطه وحجبه وزعم انه هشام المؤيد استقر عنده ، وقام بدعوته وندب الناس اليه ، فخطب له باكثر البلاد ، قرطبة واشبيلية غيرها زمانا . وتوصل بذلك الى كثير من تدبيره

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

حتى توطد له الامر باشبيلية واورثه بنيه من بعده ". (١)

وقد ظل امر الخطبة لهشام المزعوم ، كما يروي ابن حيان ، حتى عهد المعتضد (٢) الذى امر بوقف ذكر هشام عن المنابر في جميع اعماله وذلك سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) بعد ان اتيح للمعتضد من الظفر ما اتيح . فقد نعى لهم هشاما ، وكانت هذه الميتة الثالثة لحامل هذا الاسم . (٣)

وهكذا كان لعمل القاضي ابي القاسم اثره في تثبيت امره في اشبيلية ، كذلك فقد استطاع فيما بعد ان يقضي على الخطر الذى كان يقلقه ، وهو مناوأة يحي ابن حمود ومضايقته له ، وذلك بمساعدة محمد ابن عبد الله البرزالي امير قرمونة الذي كان ابن حمود قد اخرجه منها . فتحالف هذا الامير مع المعتمد وفيما كان يحي المعتلي يحاصر اشبيلية في سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦م) تصدى له ابن عباد والبرزالي واغتنموا منه غفلة كان فيها سكران فقتله البرزالي وارسل

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٢٠

(٢) يقول كوندي : Condé, J.A., History of the dominion of the Arabs in Spain, (London, Bohn, 1854) V.2, p. 151.
ويوسف اشباخ (ج ١ ص ٤٣) ان ايقاف الدعوة لهشام كان في عهد القاضي الذى ادعى ان هشام توفي بعد ان اختاره لولاية العهد . ولعلهما اعتمدا على رواية ابن خلكان (ج ٢ ، ص ٢٨) ، او على رواية متناقضة للنويري (في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٢٧ - ١٢٩) التي تقول : "واقام المدعو هشام ابن الحكم نيفا وعشرين سنة والقاضي محمد ابن اسماعيل في رتبة الوزير بين يديه الى ان توفي هشام المذكور واستبد القاضي بالامر" مع العلم بان القاضي مات سنة ٤٣٣ هـ اى بعد مبايعة هشام هذا بسنين قليلة . ولعل الكلام عن المعتضد لان النويري يزيد على ما سبق فيقول "انه استتب له الامر وملك اكثر مدن الاندلس وحصونها واطاعته المدن والثغور واجتهد في جهاد الفرنج" والمعروف ان القاضي ابا القاسم لم تدن له كل المدن ولا حارب الفرنج انما الذى حاربهم هو المعتضد .

(٣) ابن بسام ، في دوزي ج ١ ، ص ٢٥٠

برأسه الى القاضي ابن عباد .(١)

وهم القاضي بعد ذلك ان يستولي على قرطبة ولكن ابن جهور صده وقطع الخطبة لهشام المؤيد .(٢)

وظن القاضي ان الجو قد خلا له بموت يحي ابن علي ابن حمود ، فاخرج ابنه اسماعيل في جيش من البربر للتغلب على البلدان التي كانت تحت امرة بني حمود (٣) الذين بايعوا بعد مقتل يحي ابن علي اخاه ادريس، فحاصر اسماعيل قرمونة ، وسار الى حصن اشونة واستجة واخذهما وانقلب محمد ابن عبد الله البرزالي - الذى كان يحالفه - عليه ، واستصرخ قبائل صنهاجة ولكن اسماعيل جابههم جميعهم وصمد لهم . ثم قوي امله وتمادى في محاربتهم فانتهت المعركة بانهزام رجاله وقتله (٤) وكان ذلك سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٠ م) .

وتوفي القاضي ابو القاسم ابن عباد بعد مقتل ابنه بسنتين سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤٢م) بعد حياة حافلة بضروب الدهاء والقوة ،مؤسسا لبنيه ملكا لم يأته عفوا وانما كلفه جهدا قل ان يستطيع غيره على تحقيق مثله . وقد قيل فيه " انه

---

(١) ابن بسام ق ١ ، مج ١ ، ص ٢٧٠ ، ابن الاثير ج ٩ ، ص ١٩٥ ، ابن سعيد ، ابو الحسن علي ابن موسى ، المغرب في حلى المغرب ، (مصر، دار المعارف ، ١٩٥٣- ١٩٥٥) ص ٢٩٩ ، المراكشي ص ٥٤ ، ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٥٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٥٩

(٣) حكم اولاد علي ابن حمود شريش ومالقة والمرية وسبتة والجزيرة الخضراء وظل حكمهم فيها حتى سنة ٤٥٠ هـ عندما استولى عليها المعتضد . راجع ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٥٣ - ١٥٥ ، المراكشي ص ٦١ - ٦٩

(٤) المراكشي ٦١-٦٢، ابن الاثير ج ٩، ص ١١٩ ، ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٥٤ .

كان اذكى من كاس وكاد وادهى من اتهم وانجد " (١) وقيل "احسن السياسة مع الرعية والملاطفة بهم فرمقته العيون ومالت اليه القلوب" . (٢)

المعتضد ابن عباد : لما توفي القاضي ابو القاسم ابن عباد سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤٢م) بويع لابنه عباد وكان يلقب اولا بالحاجب ، اى الحاجب للخليفة هشام ، (٣) الذى كان ما يزال يدعى له بالخلافة في اشبيلية وغيرها من ولايات الاندلس . (٤) وقيل انه لقب بفخر الدولة . اما لقبه المعتضد فهو اللقب الذي عرف به في اثناء حكمه وعرفه به التاريخ ، ذلك التاريخ الذى يحفل باخبار عظمته كحاكم وسياسي وشهرته كاديب وشاعر وقسوته كانسان .

تقوم عظمة المعتضد السياسية على اخبار بأسه ودهائه ، وتمكنه من الاستيلاء على كثير من الولايات التي جاورت اشبيلية . فقد استطاع المعتضد في مدى ثمان وعشرين سنة من حكمه ان يوسع مملكته حول اشبيلية في الغرب والجنوب . وقد سجل لنفسه انتصارات جعلته الحاكم الاول في الاندلس ، وانزلت قوته الرهبة في نفوس امراء الطوائف جميعهم . عمل ذلك كله في حنكة ودراية ودهاء . قال ابن بسام : " لم يقصر عباد في دولته التي مهدها فوق اطراف الاسنة وصير اكثر شغله فيها شب الحروب وكياد الملوك ، في توفير حظه الاوفى من الامور

---

(١) ابن بسام ، في دوزي ج ١ ، ص ٢٢٣

(٢) النويري ، في دوزي ج ٢ ، ص ١٢٦

(٣) ابن المواعيني ، في دوزي ٢٤ ، ص ٥ و ٦ . وتشبه وظيفة الحاجب الى حد كبير وظيفة رئيس الوزارة في عصرنا الحاضر ، انظر المقري ج ١ ، ص ١٣٣ .

(٤) ظلت الدعوة قائمة لهشام المزور هذا حتى سنة اربعمئة واحدى وخمسين عندما ابطلها المعتضد وقد تمكن امره في البلاد . انظر ص ٣٣

الملكية والعدد السلطانة والالات الرياسية ، فابتنى القصور السامية واعتمر العمارات المغلة واكتسب الملابس الفاخرة وغالى في الاعلاق السنية ، فارتبط الخيل السابحة واقتنى الغلمان الروقة واتخذ الرجال الذادة فانتقاهم من كل فرقة يتعهد طبقاتهم بادرار الاعطية وضمان الزيادة على صدق العيال والوفاء بالوعيد على النكول ، سياسة اعيت على انداده من ملوك الاندلس، وكان يتشبه في حزمه وضبطه لاموره بابي جعفر المنصور " . (١)

اما فتوحاته وتوسعه في الاقطار فقد ركز معظمها على الولايات التي كان قد استبد بها امراء البربر . فقد هاجمت جيوشه قرمونة ، وفتكت بصاحبها محمد ابن عبد الله البرزالي وذلك سنة ٤٣٤ هـ. (٢)(١٠٤٣م) وقهر ابن طيفور واستولى على ولاية مرتلة سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٥ م) (٣) وحارب ابن الافطس والامراء الذين تحالفوا معه من البربر مثل باديس ابن حبوس صاحب غرناطة واميري مالقة والجزيرة الخضراء واستطاع ان يفتح بعض حصونهم . على ان النزاع بين ابن الافطس والمعتضد طال واشتدت الهجمات بحيث تخربت بطليوس وقتل كثيرون . واخيرا كان الصلح بينهما على يد ابن جهور سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥٢م) ، وكان طيلة الوقت يحاول ان يصلح بينهما فلا يفوز (٤).

---

(١) ابن بسام ، في دوزي ج ١ ، ص٢٤٢ - ٢٤٣ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ، ص٥٤ وج ٤ ، ص١٥٦ .

(٣) م . ن . ، ج ٤ ، ص ١٥٨

(٤) ابن بسام ، في دوزي ، ج ١ ، ص٢٤٧ - ٢٤٩ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٦ .

وضم المعتضد الى مملكته شريش واوبنة ، ثم استولى ايضا على شلب من بني مريـن وشفتمرية الغرب من ابن هارون وولي عليهما ابنه المعتمد سنة ٤٤٤ هـ [١] (١٠٥٣م) . ثم وجه قواتـه الى وليه واميرها ابن يحي اليحصبي ، فتخلى له الامير عنها بدون حرب . وكان يخطب له بلبلـه وشلطيش فصارت ممالكه للمعتضـد سنة ٤٤٥ (١٠٥٤م). وتملك مرسية لمدة ، ثم خلعه عنها ابن رشيق ثم عادت للمعتضد سنة ٤٥٥ هـ [٢](١٠٦٤ م) .

اما حادثته المشهورة مع امراء رندة ومورور واركـش فهي انه زارهم فـي بلادهم وصادقهم ، ثم دعاهم الى بلده واقام لهم وليمة وفتك بهم في الحمـام وتسلم معاقلهم وحصونهم سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٤م) [٣].

وقد ملأت هذه الانتصارات نفسه زهـوا ، لا سيما استيلاؤه على رنـدة " فكان كثيرا ما يرتاح في شعره الى ذكر الطائفة التي كانت يومئذ تحاربه . فمـن ذلك قوله :

لقد حصـنت يا رنـده ... فكنت لملكنا عقـده

افادتناك ارمـاح ... واسيافـلها حـده

الى ان يقول غدوت يرونني مولـى ... لهم واراهم عـده

سأفنى مدة الاعداء ... وان طالت بي المدة

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٧ ، ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٢٣

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٧ - ١٥٨

(٣) م . ن . ، ج ٧ ، ص ٥٢ - ٥٣ ج ٤ ص ١٥٧ .

وتبلى بي ضلالتهـــم ليزداد الهـوى جـده

فكم من عدة قـــتلـــــــت منهم بعدها عـــده

نظمت رؤوسهم عقدا فحلت لبة السدة

وقيل "ان المعتضد يومئذ اعجب بهذه القطعة الرندية واخذ الناس بحفظها". (١)

هذا وقد قضى المعتضد على دولة بني حمود فاستولى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٩م) على اخر ما بقي لهم وكانت بيد القاسم ابن حمود الملقب بالواثق . (٢)

وصرف المعتضد جهده في اخريات سني حكمه الى قرطبة ولكنه لم يفـــز بها واتاه الموت قبل ان يواصل ذلك . (٣) وكان المعتضد من قبل قد سير الـى قرطبة ابنه اسماعيل في جيش ليغزوها ،غير ان اسماعيل خذله ، ولم يتم ما امـــره به ابوه . وكان قد اغراه العبيد والبرابرة في الملك . وقيل انه سئم سطوة ابيـــه وقسوته فاراد ان يثور عليه ، ورجع الى اشبيلية بعد بضعة ايام من خروجه في حملـة الى قرطبة ، وهاجم قصر ابيه - وكان ابوه غائبا عنه - واخذ منه ما استطاع مـــن المال والذخيرة ، كما اخذ امه ونساءه وقصد الجزيرة الخضراء يريد ان يحتلهـــا . وعرف ابوه بذلك وبعث من اوقفه ، فالتجأ اسماعيل الى حصن في شذونة لاحـد الامراء وتشفع به هذا الامير لدى ابيه وارجعه اليه . فصفح عنه المعتضد ولكنـــه قتل جميع رجاله الذين دبروا معه المؤامرة . ولم تهدأ ثورة اسماعيل ، فعـــاد وانقلب على ابيه من جديد وحرض بعض الرجال ليقتلوه . وهجم هؤلاء على القصر

---

(١) ابن بسام ، في دوزي ج ١ ، ص ٢٤٧

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٤٢ و ١٥٥ و ١٥٦ ، ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٥٥ .

(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٦ .

فلاقاهم المعتضد فتفرقوا ، ووقع اسماعيل في يد ابيه فقتله هو بنفسه . (١)

كذلك لاقى المعتضد فشلا اخر في مالقة التي وجه اليها ابنه محمد الظافر الذى لقب بالمعتمد فيما بعد . وكان اميرها باديس ابن حبوس . ذلك ان محمدا اغتر بالنصر الذى احرزه في مقاطعات مالقة في بدء الهجوم ، فتهاون هو ورجاله وعكفوا على الراحة والخمر والنساء ، وذلك اثناء محاصرتهم لقصبة مالقة ، فهجم عليهم جيش غرناطة واعملوا فيهم السيف . فاضطر المعتمد ان يفر بما تبقى لديه من رجال الى رنده مهزوما . وقد حقد المعتضد على ابنه لتهاونه ، وابعده الى ان استعطفه المعتمد بقصيدة ، وقيل اثنتين ، ارسل بهما اليه ، وهو يقول في واحدة منهما :

سكن فؤادك لا تذهب به الفكر ماذا يعيد عليك البث والحذر (٢)

وقيل ان المعتضد عفا عنه بعد استعطافه وارجعه .

ذلك هو المعتضد في حكمه وفي فتوحاته ، اما في حقلي الادب والشعر فان المعتضد كان من اصحاب الفضل فيهما ، وفضله هذا لا ينحصر فيما نظم من قصائد بل هو ايضا في الرعاية التي كان يوليها للشعراء .

وقد استبشر شعراء ذلك العهد بعطف المعتضد واقبلوا على بلاطه اقبال زملائهم شعراء المشرق على بلاطات دمشق وحلب وبغداد والقاهرة

---

(١) ابن بسام ، في دوزي ج ١ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٩ ، ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٥٧

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٠ - ٢١

ايام ازدهارها . ومن هؤلاء الشعراء ابو الوليد ابن زيدون الذى له في المعتضد مدائح كثيرة . [١] وابن عمار [٢] ، وابن اللبانة الذى كان شاعر بني عباد والذى اصبح فيما بعد من شعراء المعتمد المقربين ، [٣] والشاعر النحلي [٤] وابو بكر ابن الملح [٥] وابن جاخ الشاعر [٦] وغيرهم ممن انتموا لبلاطه او وفدوا عليه مادحين او مهنئين . هذا وسيرد ذكر المعتضد وشعره في غير هذا المكان .

بقي ان نذكر شيئا عن الناحية السوداء من حياة المعتضد ، ذلك ان هذا الحاكم الحازم والشاعر الرقيق حوى في داخله وحشا عاتيا ، وليس هناك مؤرخ او راوية يذكر بأس المعتضد وشهرته وينسى قسوته وفظاظته . فهذا ابن المواعيني يصفه بانه "كان سفاكا مهيبا داهيا" [٧] وابن خاقان يصف عظمته وقسوته قائلا : " ومعتضدهم احد من اقام واقعد وتبوأ كاهل الارهاب واقتعد وزاحم بعود وهز كل طود ، واخمل كل ذى زي وشارة ، وختل بوحي واشاره . وارتمى

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٨٨ - ٨٩

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٩٨ و ١٠٨ - ١١٠ وسيأتي ذكر ابن عمار مع المعتمد فيما بعد .

(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣٢ ، المقري ج ٢ ، ص ٦٠٦ - ٦٠٧ ، ابن سعيد ج ٢ ، ص ٤١١ واخبار ابن اللبانة مع بني عباد كثيرة ، وتذكر المراجع انه صنف كتابين عنهم .

(٤) المقري ج ٢ ، ص ٤٢٠

(٥) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٦٨

(٦) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٩٥ - ٥٩٦

(٧) ابن المواعيني ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٧ .

الى ابعد غايات الجود بما انا له واولاده ، لولا بطش في اقتضاء النفوس كدر ذلك المنهل . وما زال للارواح قابضا وللوثوب عليها رابضا يخطف اعداءه اختطاف الطائر من الوكر وينتصف منهم بالدهاء والمكر الى ان افضى الملك لابنه . " (١)

واما ابن اللبانة شاعر بني عباد واقرب الناس اليهم فيقول عنه مفتخرا به : " لم تخل ايامه في اعدائه من تقييد قدم ولا عطل سيفه من قبض روح او سفك دم ، حتى لقد كانت بباب داره حديقة لا تثمر الا رؤوسا ولا تنبت الا رئيسا ومرؤوسا ، (٢) فكان نظره اليها اشهى مقترحاته وفي التلفت اليها استعمل جل بكره وروحاته " الى ان يقول : " ولقد حكي عنه من اوصاف التجبر ما ينبغي ان تصان عنه الاسماع ولا يتعرض له بتصريح ولا الماع . " (٣)

وينقل ابن بسام كلام ابن حيان في المعتضد اذ يقول : " ذو الانباء البديعة والجرائر الشنيعة والهمم العلية والسطوة الابية " ويقول " تغمد الله خطاياه فلقد حمل عليه مر الايام في باب فرط القسوة وتجاوز الحدود في المثلة والاخذ بالظنة والاحقار للذمة حكايات شنيعة ، فمهما برئ من معايبها فلم يبرأ من فظاعة السطوة وشدة القسوة وسوء الاتهام على الطاعة " (٤). وينقل ابن الخطيب عن ابن حيان ايضا ان المعتضد كان شديد الجرأة قوى المنة عظيم الحلاوة مستهينا بالدماء ، قتل ولده اسماعيل صبرا بيد نفسه ، واحتال على طائفة من رؤساء اعدائه البرابرة حتى زاروه ببلده فادخلهم الحمام على سبيل التكريم

---

(١) ابن خاقان ، المطمح ، ص ١٠ - ١١

(٢) يعني رؤوس اعدائه الذين كان يقتلهم . وقيل كانت الرؤوس عنده في خزانة ، انظر ابن بسام قسم ١ ، مج ١ ، ص ٣٦٣ ، وابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٥ .

(٣) المقري ج ٢ ، ص ٥٩٤ - ٥٩٥

(٤) ابن بسام ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

فسد بابه الى ان هلكوا عن اخرهم ". [1] ويعجب صاحب المغرب من ابي الوليد ابن زيدون ، وكان وزير المعتضد "كيف سلم منه ولم يسلم له احد من اصحابه ."[2] ويجيب ابن زيدون نفسه على تعجب الناس من سلامته عند المعتضد فيقول "كنت كمن يمسك باذني اسد يتقي سطوته تركه اوامسكه". وفيه يقول ابن زيدون عند موته :

لقد سرنا ان الجحيم موكل بطاغية قد حم منه حمام
تجانب صوت الغيث عن ذلك الصدا ومر عليه المزن وهو جهام . [3]

كذلك عجبوا من سلامة ابن مسلمة القرطبي صاحب "حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح" اذ جاء في ترجمته انه "هاجر من قرطبة الى اشبيلية للمعتضد ابن عباد ، وندم لما رآه من استحالته ، فداراه مدى حياته ، واسأله كيف نجا ! [4] وليس قليلا ما قيل عن المعتضد ، فقد كان سفاكا اهدر دماء كثيرة ، استهلها بقتل الوزير حبيب وزير ابيه ". [5] ثم كانت منه حادثة قتل امراء البربر الذين دعاهم الى مأدبة صارت لهم مأتما . [6] ولعل افظع عمل قام به المعتضد هو قتله ابنه اسماعيل بيده وذلك عندما ثار عليه ، وقتله كل من كان يؤازره في الثورة . [7] وقيل :

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٥
(٢) ابن سعيد ، ج ١ ، ص ٦٩
(٣) ابن شاكر الكتبي ، ابو عبد الله محمد ، فوات الوفيات ، (مصر ، بولاق ، ١٢٨٣ هـ) ج ٢ ، ص ٢٥٤
(٤) ابن سعيد ، ج ١ ، ص ٩٧
(٥) ابن بسام ، في دوزي ج ١ ، ص ٢٤٢ ، ابن سعيد ج ١ ، ص ٢٤٥
(٦) النويري في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٢٩ - ١٣٠
(٧) ابن بسام ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٩ .

" دخل عليه غلام دون استئذان فقطع رأسه ، فسمع جارية تقول والله القبر احسن من سكنى هذا القصر فقال والله لأبلغنك ما طلبتيه ، وأمر بها فدفنت حية . (١)

وقبل ان يموت بسنة قتل العالم ابا حفص الهوزني (الذي ادخل صحيح البخاري الى الاندلس) قتله ايضا بيده بعد ان كان امر خادميه ان يقتلاه فاشفقا من سوء فعله وفرا . ويقال انه بسبب قتل المعتضد لابي حفص المذكور تسبب ابنه في فساد دولة المعتمد فيما بعد وحرض عليه ابن تاشفين . (٢)

هذا هو المعتضد ، وهذه هي صفاته ، وهو في حياته وصفاته الصورة التي ارتسمت في مخيلة المعتمد - صاحب موضوع هذه الاطروحة - منذ ان تفتحت عيناه على الدنيا . وما استطالتي في الكلام عن تلك الشخصية وعن صفاتها الا للنظر في المحيط الذى نشأ المعتمد فيه وتتبع المجرى الملكي لبني عباد ، الذين انتهوا في المعتمد ، والذي كان ابو القاسم وابنه المعتضد من اركانه .

وكانت وفاة المعتضد سنة احدى وستين واربعمئة هجرية (١٠٦٩م) وتولى الحكم بعده ابنه المعتمد . (٣)

---

(١) ابن شاكر الكتبي ، ج ٢ ، ص ٢٥٤

(٢) المقري ج ١ ، ص ٥٢٢

(٣) ابن بسام ، في دوزي ج ١ ، ص ٢٤٢ ، ابن الابار ، في دوزي ج ٢ ، ص ٦١

المعتمد ابن عباد في حياتـــه الخاصـــة

رزق المعتضد ابن عباد وزوجته بنت مجاهد العامري اميردانية [1] ابنا سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٠م) . ويروي بعض المؤرخين ان المنجمين تكهنوا يوم مولـــد هذا الطفل ان طالعه ينبيء بسعادة ، ولـكن هذه السعادة لن تدوم ، بـل سيعتريها افول في آخر حياته . [2]

وقد سمي هذا الطفل محمدا ، وكان يكنى بابي القاسم بكنية جـــده القاضي . [3] وكان لقبه اولا الظافر ثم تلقب بالمعتمد عندما صار له الحكم . [4]

وليس لدينا اخبار كثيرة عن حداثة المعتمد لان المؤرخين القدمـاء ما كانوا يعنون باخبار الشخصيات الكبيرة الا بعد ان تتسلم مسؤولياتها . واول ما نسمع عن نشأة المعتمد وشبابه هو توليـه حكم بعض الامارات الغربيـــة التي اكتسحها ابوه عام ٤٤٤ هـ [5] (١٠٥٣م) . وربما كان ذلك الحكم الذي اسنده

---

(١) ابن بسام ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٢٤٥

(٢) كوندي ، ج ٢ ، ص ١٥١ . لا يبين كوندي مصدر هذه الرواية ولعله اخذها عن مؤرخي الفرنجة لان ليس لها ذكر في المصادر العربية .

(٣) المقري ، ج ٢ ، ص ٥٩٧ . الارجح انه كني بابي القاسم بعد مقتل اخيه الاكبر اسماعيل .

(٤) قيل تلقب بهذا اللقب لما احب وتزوج اعتماد الرميكية لتتفق حروف لقبه بحروف اسمها . انظر ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٧٤ . ويعتقد الدكتور جبور في حديث له عن المعتمد انها على الارجح سميت اعتماد بلقبه وليس كما زعموا انه لقب المعتمد تشبها بها .

(٥) انظر ص ٣٧ من هذه الاطروحة

له ابوه في بدء الامر لقبا شرفيا فقط ، لان المعتمد كان في ذلك الوقت اصغر من ان يسند اليه حكم عملي ، مع العلم بانه لم تجر العادة عند المسلمين بتسمية امـــراء العهد او الامراء اولاد الملوك ، امراء على مناطق معينة من البلاد الخاضعة لهـــم كما هي الحال اليوم في كثير من ممالك العالم .

ثم كانت قيادة المعتمد لجيش ابيه الذي وجهه لفتح مالقة وذلك سنة ٤٤٩هـ (١٠٥٨م) واخفاقه في ذلك والتجاؤه الى رندة ، خوفا من ابيه الذى غضب عليه . ويخبرنا المؤرخون عن المعتمد في تلك الحملة انه عكف على الراحة وانغمس ورجاله في اللهـــو والشرب وارتياد الحسان حتى خذل . وفي هذه الحادثة نسمع باكورة شعر المعتمد في القصيدة التي ارسل بها الى ابيه يستعطفه فيها ويسترضيه والتي مطلعها :

سكن فؤادك لا تذهـــب بـــه الفكـــر
ماذا يعيد عليك البـــث والحـــذر [1]

اما المنصب الذى ظهر فيه المعتمد على مسرح السياسة فهو توليه حكـــم شلب التي استولى عليها ابوه سنة ٤٥٥ هـ [2] (١٠٦٤م) . وتعتبر شلب الـــتي تولى المعتمد ولايتها حقبة من الزمن بلد نشأته وشبابه قضى فيها اجمل ايام حياتـــه ، وقد كانت شلب مدينة مشهورة بالادباء ومجالس الانس [3].

وكان يشارك المعتمد سروره ولهوه في شلب ، الوزير ابو بكر ابن عمار الذي

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢١ ـ ٢٢ ، ابن الابار في دوزي ج ٢ ، ص ٦٣ ـ ٦٥ ، الملك المنصور في دوزي ، ج ٢ ، ص ٢٩ وسيرد ذكر القصيدة عند الكلام عن شعره .

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٧ .

(٣) ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٣٨١ . وتقع شلب في غربي اشبيلية في البرتغال اليوم .

كان صديقا حميما له ، وكانا يقيمان في قصر هناك يدعى قصر الشراجيب . وقد ظل المعتمد يحن الى ايامه في شلب والى قصره هناك طويلا ، وله في حنينه اليها شعر وجهه الى ابن عمار لما خرج هذا اليها متفقدا احوالها في عهد المعتمد ، يقول فيه :

الا حي اوطاني بشلب ابا بكر ... وسلهن هل عهد الوصال كما ادرى
وسلم على قصر الشراجيب عن فتى ... له ابدا شوق الى ذلك القصر

ويسير بعدهما الى ذكر لياليه ولهوه مع الحسان فيها (١).

ولابن عمار مع المعتمد اخبار كثيرة وله في حياته تأثير ، لما كان بينهما من صداقة متينة وعاطفة ملتهبة . فقد دخل ابن عمار في حياة المعتمد منذ ان كانا شابين في عهد المعتضد ، ودامت صداقتهما خمسة وعشرين عاما كما يقول ابن عمار نفسه في احدى قصائده التي يستعطف فيها المعتمد وقد غضب عليه وسجنه

ابعد انقضا خمس وعشرين حجة ... تجافت لنا عنها الخطوب الكوارث
حللت يدا بي هكذا وتركتني ... نهابا وللايام ايد عوابث (٢)

وتخبرنا الروايات عن ابن عمار وبدء علاقته بالمعتمد ، تقول انه ولد بقرية قرب مدينة شلب ، وكان اول امره خامل الذكر ليس لاحد من اسلافه اى عهد

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٦
(٢) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٠١

بالرئاسة ، وقد قدم الى شلب صغيرا ، ونشأ بها ، وتعلم علم الادب على جماعة فيها ، ثم رحل الى قرطبة فتأدب بها ، ومهر في صناعة الشعر ، واخذ يتكسب به ويجـــول بين ملوك الاندلس، وقد كانت حالته سيئة في بادئ الامر الى درجة انه كان يوما بحاجة الى علف لدابته ، فاستجدى ذلك بشعر نظمه وارسله الى من طلب منـــه العلف (١). وقد ظل حاله هكذا الى ان قدم على المعتضد ابن عباد في اشبيلية فمدحه بقصيدته التي اشتهرت ومطلعها :

ادر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى (٢)

وقد ذكر فيها غلبة المعتضد على البربر وهي قصيدة طويلة استحسنها المعتضد وامر له بمال وثياب ومركب ، وامر ان يكتب اسمه في ديوان الشعراء . (٣). ومنذ ذلك الوقت ارتفع امر ابن عمـــار وتعلق بالمعتمد الامير تعلقا اصبح حديث الناس فيما بعد .

ولم تكن صداقتهما في بادئ الامر غريبة ، فقد جمع بينهما الشباب وحب اللهو والخمر والشعر . وكان ابن عمار شاعرا مجيدا ، قيل انه كان في شعـــره على طريقة ابن هاني الاندلسي ، وربما كان احلى منزعا منه في كثير من شعـــره ، ويقول المراكشي صاحب هذا الحكم عن ابن عمار ، ولم الق احدا ممن ادركته سني من اهل الاداب الذين اخذت عنهم الا رأيته مقدما له مؤثرا لشعره ، وربما تغالى

---

(١) المراكشي ، ص ١٤

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٠٨ - ١١٠ ، المراكشي ص ١١٥ - ١١٧

(٣) المراكشي ، ص ١١٧ .

بعضهم فشبهه بابي الطيب " (١).

ولما ولي المعتمد على شلب من قبل ابيه استوزر صديقه ابن عمار في تلك الولاية وسلم اليه جميع اموره " فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة وساءت السمعة عنهما فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما ونفي ابن عمار عن بلاده " (٢).

اما تلك السمعة السيئة والاحاديث التي راجت عنهما والتي حدت بالمعتضد ان يبعد ابن عمار عن ابنه فقد نشأت ،على ما يظهر من الروايات التي تذكر ذلك ومن الاخبار عنهما ،عن اغراقهما في اللهو والمجون والخمر . ولعل المعتضد خشي على ابنه انصرافه الى المجون والاسراف فيه الى درجة تجعله يهمل عمله وهو الذى وطد عزمه على فتح البلاد وتثبيت امره فيها . وقد اقلق المعتضد فيما بعد ما بلغه من تولع المعتمد باعتماد الرميكية لما اشتراها ،فعزم على ان يوبخه ويبعدها لو لم تعطفه عليها الرميكية نفسها (٣). او لعله كان ابعد نظرا من ابنه المعتمد فخاف ان تمتد سلطة ابن عمار وتكون خطرا على مملكة اشبيلية . وقد صح خوف المعتضد ، وقويت شوكة ابن عمار لما ارجعه المعتمد الى ملكه وطمع في التفرد بحكم مرسية التي استولى عليها للمعتمد ، وربما كان امره يصل الى ابعد من ذلك لو لم يتدارك المعتمد الخطر بقتله .

وهكذا ابعد المعتضد ابن عمار عن ابنه بنفيه من البلاد . وبقي ابن عمار

---

(١) المراكشي ، ص ١١١

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٧

(٣) ابن الابار ، في دوزي ج ٢ ، ص ٧٥

منفيا عن اشبيلية طيلة حكم المعتضد . وعاد الى الطواف في انحاء الاندلس يمدح ملوكها . واقام مدة في سرقسطة وفي لاردة . وكتب في اثناء تشرده قصيدته التي يحن فيها للمعتمد ويصف سوء حاله من بعده عنه ويقول :

علي والا ما بكاء الغمائم ... وفي والا ما نياح الحمائم
وعني اثار الرعد صرخة طالب ... لثأر وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها ... لغيري ولا قامت له في مآتم

وهو يمدح المعتضد في هذه القصيدة اذ يقول :

اذا ركبوا فانظره اول طاعن ... وان نزلوا فارصده اخر طاعم
ابى ان يراه الله الا مقلدا ... حميلة سيف او حمالة غارم (١)

والقصيدة طويلة تنيف على التسعين بيتا ، وليست الابيات كلها موجودة . ولعل مدحه للمعتضد من باب التزلف اليه كي يرجعه . على ان ابن عمار رجع الى اشبيلية ، ارجعه المعتمد عندما مات ابوه المعتضد وتولى هو الحكم . واسند اليه امر وزارته وكان يرسله في مهمات سياسية وقيادات حربية (٢). وقد قام ابن عمار بهذه المهام ببراعة ودهاء ، فكان لا يناط به امر الا اضطلع به ... واشتهر امره في بلاد الاندلس حتى كان ملك الروم الاذفونشى اذا ذكر عنده ابن عمار قال : " هو رجل الجزيرة " (٣).

---

(١) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ، المراكشي ، ص ١١٢ .
(٢) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٨٩ - ٩٠
(٣) المراكشي ، ص ١١٩ .

الا ان هناك روايات اخرى عن علاقة المعتمد بابن عمار يشتم منها ما يسيء الى سمعتهما ويطعن في خلقهما ويتهمهما بالشذوذ ، من تلك الروايات قول المراكشي يصف تعلق ابن عمار بالمعتمد انه " صار الزق بالمعتمد من شعرات قصته ،وادنى اليه من حبل وريده ، كان المعتمد لا يستغني عنه ساعة من ليل او نهار ... وقد قربه اشد تقريب ، حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل اخاه ولا اباه " (١).

ويحكى عن المعتمد ايضا انه ارسل الى بعض كرائمه شعرا يعتذر فيه من اللحاق بها اخره "ان شاء ربي او شاء ابن عمار " (٢).

ولما ولي المعتمد امر اشبيلية طلب منه ابن عمار ان يوليه على شلب التي كانت بلده ومنشأه فاجابه المعتمد الى ذلك ، وولاه اياها . ولكن ولايته عليها لم تدم طويلا اذ ان المعتمد اشتد شوقه اليه ولم يطق عنه صبرا فاستدعاه الى اشبيلية واستوزره فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر ابن يحي مع الرشيد (٣).

وتظهر عاطفة المعتمد القوية تجاه ابن عمار في شعره . قيل : " اتصل بالمعتمد في بعض سفارات ابن عمار عنه الى جليقية ان الاذفونش اسره هناك ثم ورد الخبر بعد بضد ذلك ، فلما قدم ابن عمار كتب له :

لما نأيت نأي الكرى عن ناظري ووددته لما انصرفت عليه

---

(١) المراكشي ، ص ١١٧

(٢) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٨٨

(٣) المراكشي ، ص ١١٩ ، ابن سعيد ، ج ١ ، ص ٣٨٩ .

طلب البشير بشارة يجري بها فوهبت قلبي واعتذرت اليه " (١).

وكان حب المعتمد لابن عمار مخلصا وعميقا . ونحن نرى اثر ذلك الحب فيه بعد ان وقع النفور بينهما وغدر ابن عمار بصديقه وطمعت نفسه بالملك . ذلك انه لما حاول ابن عمار الاستبداد بمرسية وكان قد اخذها للمعتمد ، اخرجه منها ابن رشيق ، فاضطر ابن عمار الى الهرب والتشرد وخاف ان يرجع الى المعتمد ، فبعث اليه بقصيدة يعتذر له ويطلب عفوه يقول فيها :

أأركب قصدي ام اعوج مع الركب فقد صرت من امري على مركب صعب
واصبحت لا ادري افي البعد راحتي فاجعله حظي ام الخير في القرب
واني لتثنيني اليك مودة يغيرها ما قد تعرض من ذنبي
فما اغرب الايام فيما قضت به ترديني بعدي عنك آمن من قربي
اخافك للحق الذى لك في دمي وارجوك للحب الذي لك في قلبي

فيجيب المعتمد بما ينم عن محبة ما تزال عميقة في قلبه :

لديك العتبى تزاح من العتب وسعيك عندي لا يضاف الى ذنب
واعزز علينا ان تصيبك وحشة وانسك ما تدريه فيك من الحب
فدع عنك سوء الظن بي وتعده الى غيره فهو الممكن من القلب
قريضك قد ابدى توحش جانب فراجعت تأنيسا وحسبك بي حسب
تكلفته ابغي به لك سلوة وكيف يعاني الشعر مشترك اللب (٢)

---

(١) الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣٨٦ ، ابن الابار في دوزي ج ٢ ، ص ٨٩
(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، ابن الابار ، في دوزي ج ٢ ، ص ٩١-٩٣ .

ومن اطرف ما يروى عن اخبار صداقة ابن عمار للمعتمد اثناء اقامتهما بشلب تلك القصة التي تدل في جوهرها على شدة تعلق المعتمد بابن عمار وحبه له وان لم يصح الاخذ بها بحذافيرها ، وسأوردها بكلام صاحبها لما فيها من سرد قصصي ممتع . قيل كان المعتمد قد استدعى ابن عمار ليلة الى مجلس انسه ، على ما كانت العادة جارية به ، الا انه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم اقسم المعتمد عليه : لتضعن رأسك معي على وساد واحد فكان ذلك . قال ابن عمار : فهتف بي هاتف في النوم يقول : لا تغتر ايها المسكين ، انه سيقتلك ولو بعد حين . قال : فانتبهت من نومي فزعا ، وتعوذت ، ثم عدت ، فهتف بي الهاتف على حالته الاولى ، فانتبهت ، ثم عدت ، فسمعته ثالثة ، فانتبهت فتجردت من اثوابي والتففت في بعض الحصر ، وقصدت دهليز القصر مستخفيا به ، وقد ازمعت على اني اذا اصبحت خرجت مستخفيا حتى آتي البحر فاركبه واقصد بلاد العدوة فاكون في بعض جبال البربر حتى اموت . فانتبه المعتمد فافتقدني فلم يجدني ، فامر بطلبي ، فطلبت له في نواحي القصر ، وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، فكان هو الذى وقع علي ، وذلك انه اتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح ، فوقف بازاء الحصير الذى كنت فيه ، فكانت مني حركة فاحس بي وقال : ما هذا يتحرك في هذا الحصير ؟ ثم امر به فنفض ، فخرجت عريانا ليس علي الا السراويل . فلما رآني فاضت عيناه بالدموع وقال : يا ابا بكر ، ما الذى حملك على هذا ؟ فلم اربدا من ان صدقته ، فقصصت عليه قصتي من اولها الى آخرها ، فضحك وقال : يا ابا بكر ، اضغاث احلام ، هذه آثار الخمار ، ثم قال لي : وكيف اقتلك ؟ أرأيت احدا يقتل نفسه ؟ وهل انت عندي

الا كنفسي ؟ فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ، وتناسى الامر فنسيه ، ومرت على ذلك الايام والليالي ، الى ان كان من امر قتله ، فصدقت رؤيا ابن عمار ، وقتل المعتمد نفسه كما قال ! » (١).

وقد دامت صحبة المعتمد لابن عمار طويلا وظل ابن عمار وزيره ومساعده في تدبير اعماله في الحكم ، يقوم لديه ببعض السفارات ويتقلد له قيادة الجيوش للفتوحات ويساعده في الذود عن ممكنة بالحرب تارة وبالحيلة طورا كما فعل بالاذفونش الذى احتال عليه واغراه باخذ رقعة شطرنج جميلة الصنع واخذ منه مقابلها وعدا بان يتراجع عن بلاد المعتمد التي قصدها طامعا في اخذها (٢). كما ظل ابن عمار في الوقت نفسه جليسه ونديمه ورفيقه . وقد كان للملك الشاب من جاهه وشبابه وترفه ما يفسح امامه فرص اللهو والتسلية واطلاق العنان لروح الشاعر فيه التي كانت تحب ان تنطلق بين الاونة والاخرى من جو السياسة والحكم الى جو اللهو والظرف الحر في مجالس الشرب والشعر . وقد صحب المعتمد ابن عمار ليزيد لمجالس انسه عنصرا ممتعا ، فكان اذا دعا اصحابه امره ان يكون اول داخل وآخر خارج ليأنس به ويتمتع بادبه (٣). وكان يستدعيه كلما حن الى مجلس انس وقول شعر . قيل ادخلت على المعتمد يوما باكورة نرجس فكتب الى ابن عمار يستدعيه :

قد زارنا النرجس الذكي ... وآن من يومنا العشي

وعندنا مجلس انيق ... وقد ظمئنا وفيه ري

---

(١) المراكشي ، ص ١١٧ - ١١٨

(٢) المراكشي ، ص ١١٩ - ١٢١

(٣) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٢٠

ولي خليل غدا سمي يا ليته ساعد السمي

فاجابه ابن عمار :

لبيك لبيك من منـاد له الندى الرحب الندي
ها انا بالباب عبد قن قبلته وجهك السني
شرفه والداه باسم شرفته انت والنبي (١)

وكانا كثيرا ما يطوفان معا متخفيين احيانا في احياء المدينة والمنتزهات ، ويشاركان اهل اشبيلية في واديهم وفي مجتمعاتهم (٢) ، ويعرجان على كل ما يسترعي اهتمامهما ، ويتندران بكل ما يسليهما ، ويتساجلان الشعر . " قيل كان المعتمد في بعض الايام قاصدا الجامع والوزير ابو بكر ابن عمار يسايره ، فسمع اذان مؤذن فقال :

هذا المؤذن قد بدا بآذانه

فقال ابن عمار : يرجو بذاك العفو من رحمانه

فقال المعتمد : طوبى له من شاهد بحقيقة

فقال ابن عمار: ان كان عقد ضميره كلسانه " (٣)

ومن حكايات لهوهما تلك الحادثة التي تروى عن المعتمد انه " مر ذات ليلة مع وزيره ابن عمار بباب شيخ كثير التنـدير والتهكم ، فقال لابن عمار : تعال نضرب

---

(١) ابن بسام ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٦٤٧
(٢) ابن سعيد ، ج ١ ، ص ٢٨٦
(٣) عماد الدين ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣٨٤ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٤١٦ .

الكاتب الدصنوفي

على هذا الشيخ الساقط بابه حتى نضحك معه ، فضربا عليه الباب فقال : من هـــذا؟ فقال ابن عباد ، انسان يرغب ان تقد له هذه الفتيلة فقال : والله لو ضرب ابـــن عباد بابي في هذا الوقت ، ما فتحته له ، فقال : فاني ابن عباد ، قال مصفوع الـف صفعة ، فضحك ابن عباد حتى سقط الي الارض ، وقال لوزيره ، امض بنا قبل ان يتعدى الصفع من القول الى الفعل ، فهذا شيخ ركيك . ولما كان من غد تلك الليلة وجه له الف درهم وقال لموصلها : قل له هذا حق الالف صفعة التي كانت البارحة"[1].

مثل هذه وغيرها من حوادث اللهو والمجون تروى عن المعتمد وابن عمار وزمرة غيرهما من شعراء ذلك الوقت كابي الوليد ابن زيدون والوزير ابن خلدون وابن عمار الذين خرجوا الى منتزه لبني عباد تحف به مروج ، وقد نووا اللهـــو والطرب ، وبعثوا صاحبا لهم يسمى خليفة ، ليأتيهم بنبيذ . وفيما هو راجع صدمه رجل على فرس ووطىء عليه وهشمه وكسر وعاء النبيذ فاسرعوا اليه وحزنوا عليـــه اولا ثم ما لبثوا ان وجدوا من ذلك الحادث متعة وموضوع مساجلة فقال ابن زيدون : نلهو والحتوف بنا مطيفـة

ونأمن والمنون لنا مخيفـــة

فقال ابن خلدون : وفي يوم وما ادراك يوم مضى قمصا لنا ومضى خليفة

فقال ابن عمار : هما فخارتا راح وروح تكسرتا فاشقاف وجيفة [2]

ولعل المعتمد كان معهم وارتج عليه لذلك لم يذكر اسمـه ولا اخاله ، ان لم

---

(١) المقري ، ج ٢ ، ص ٥٠٩

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٦٣

يكن معهم ، الا عرف بهذا واعجب ببديهتهم واشترك معهم في متعتهم هذه التي كانت لهم من حادثة سيئة .

اما المساجلات الشعرية التي كانت بين المعتمد وابن عمار فكثيرة ولكن جل هذه الاشعار لا تتعدى النوع الذى يقال في مناسبات اهداء او دعوة لمجلس انس او تندير بحادثة ، كما انه كان يكثر في شعرهما ذكر الغلمان والتغزل بهم ، وليس شعرهما في هذا القبيل بالاجود .

هذا وقد كان لابن عمار دور غير مباشر في حادث من اهم الحوادث التي جرت في حياة المعتمد ، الا وهو اختياره شريكة حياته وام اولاده . ذلك ان المعتمد كان كثيرا ما يتنكر هو ووزيره ابن عمار ويخرجان الى الموضع المعروف بمنج الغضة ، وهو مكان بهيج يجتمع الرجال والنساء للفرجة فيه . فبينما المعتمد عشية على ضفة النهر اذ هبت ريح فزردته فقال لابن عمار اجز :

صنع الريح من الماء زرد

فتلكأ ابن عمار فبدرته امرأة [1] كانت بمقربة منهما - قيل كانت تغسل في النهر - اى درع لقتال لو جمد

فتعجب ابن عباد بحسن ما أتت به مع عجز ابن عمار ، ونظر اليها فرآها جميلة ،

---

(١) ويقال ان الذى اجاز هذا البيت غير اعتماد . والارجح انها اعتماد لان الرواية التي تقول انه غيرها مضطربة وغير موضحة . غير ان ما يشبه هذا المعنى قد ورد في شعر كثير من القدماء . راجع المقري ، ج ٢ ، ص ٤١٠ - ٤١١ وقد اخذه المقري عن صاحب بدائع البدائه ، راجع ابن ظافر الازدي ، علي ، بدائع البدائة ، على هامش كتاب شرح شواهد التلخيص ، (مصر ، المطبعة البهية المصرية ، ١٣١٦ هـ) ج ١ ، ص ٦٣ - ٦٤ .

فوقعت في قلبه ، وانصرف الى قصره بعد ان سألها عن اسمها ونسبها فعرف انها لرميك ابن الحجاج فابتاعها منه (١) ، وتزوجها ، وذلك في ايام ابيه(٢). وقد كانت اعتماد اعز ازواجه لديه وله معها القصة المشهورة بقوله لها : "ولا يوم الطين" ، ذلك انها رأت ذات يوم نساء البادية يبعن اللبن في القرب ، وهن رافعات عن سوقهن في الطين ، فقالت له : " اشتهي ان افعل انا وجواري مثل هؤلاء النساء " فامر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد ، وصير الجميع طينا في القصر وجعل لها قربا وحبالا ، وخرجت وسارت فيه هي وجواريها ، وكان يوما مشهورا . وغاضبها المعتمد في بعض الايام فاقسمت انها لم تر منه خيرا قط ، فقال لها : "ولا يوم الطين" ، فاستحيت واعتذرت . (٣)

ويظهر ان اعتماد لم تكن من اصل عربي وفي ذلك يقول ابن عمار في هجوها

تخيرتها من بنات الهجين رميكية ما تساوى عقالا (٤)

ولعل اصلها غير المسلم هو الذى جعل الحجاري يقول عنها ، "هي التي ورطت

---

(١) لعل اعتماد هي تلك الجارية التي ذكر ان المعتمد اشتراها بثلاثين الفا لانها تحسن قول الشعر والغناء . انظر ابن ظافر الازدي ، ج ١ ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢) انظر ص ٤٨ من هذه الاطروحة

(٣) ابن الابار في دوزي ، ج ٢ ، ص ٦٩ ، التيجاني ، ابو عبد الله محمد ابن احمد ، تحفة العروس ونزهة النفوس ، في دوزي ، رينهارت بيتر آن ، محرر ، تاريخ بني عباد ، (ليدن ، لشتمان ، ١٨٤٦ - ١٨٦٣) ، ج ٢ ، ص ١٥١ - ١٥٣ ، المقري ، ج ١ ص ٢٨٧ ، وج ٢ ص ٥٦٨ - ٥٦٩ .

(٤) المقري ج ٢ ، ص ٥٦٩ . ويقول دوزي انها رومية ويسميها " لونان" راجع دوزي ص ٢٢٠ و ٢٢٦ و ٢٣٦ .

المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة حتى كتب عليه اهل اشبيلية بذلك ، وبتعطيل صلوات الجمع عقودا رفعوها الى امير المسلمين " (١).

وكانت اعتماد ام اولاده الامراء ، وهم يزيد الملقب بالراضي ، والفتح الملقب بالمأمون، وعبيد الله الملقب بالوثيق ، وعبد الله الملقب بالمعتد (٢).

اما ابن الابار فيقول بان اولادها غير هؤلاء ، ابن المعتمد البكر عباد الملقب بسراج الدولة والربيع الملقب بتاج الدولة وعبد الجبار الملقب بزين الدولة (٣).

ورزق المعتمد من الرميكية ، ابنته بثينة ، وكانت ايضا "نحوا من امها في الجمال والنادرة ونظم الشعر" (٤). وله بنات اخرجاء ذكرهن اكثر من مرة في ذكر محنته وما وصل اليه امرهن من سوء الحال (٥). ولا ندري اذا كانت هؤلاء البنات من اعتماد اوغيرها لانه ذكرانه تزوج كثيرات "امهات اولاد وجواري متعة واماء" (٦).

هذا وقد ورد ذكر غير هؤلاء من اولاد المعتمد كحكم الملقب بذخر الدولة (٧)،

---

(١) ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ١٥١

(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٧٤

(٣) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٦٨ — ٦٩ و ٧٥ ، راجع ايضا نيكل ص ١٤٠

(٤) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٢٧

(٥) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣١ ، ابن الابار في دوزي ، ج ٢ ، ص ٦٨

(٦) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٦٣

(٧) المصدر نفسه ، ص ٨٢

ويحي الملقب بشرف الدولة [١] ومالك الملقب بفخر الدوله الذى قتل بين يدي ابيه يوم الهجوم على اشبيلية [٢] وقد اشرك المعتمد اولاده في مهام الحكم، فكان بينهم من اسند اليه ولاية ومن ارسله في جيش للفتح او للمدافعة عن البلاد وقد قتل من اولاده ثلاثة في ساحات القتال وسيأتي ذكر اخبارهم في مواضعها .

هكذا كانت نشأة المعتمد وحياته في بحبوحة من الترف وفخامة من الملك وسعة من اللهو والعبث وقد ظلت له هذه الحياة المترفة وبقي معه حبه للهو والشعر الى اواخر حكمه ، حتى ان هناك من يعزو اندثار امر المعتمد الى اسرافه في اللهو والمجون ، فهذا ابن خاقان يقول في نهاية امر المعتمد ، " نازلته جيوش امير المسلمين وهو ساه بروض ونسيم ، لاه براح ومحيا وكسيم ، زاه عن فتاة تنادمه ناه عن هدم انس هو هادمه ، لا يصيخ الى نبأ سمعه ، ولا ينيخ الا على لهو يفرق جموعه جمعه ، قد ولى المدامة ملامه ، وثنى الى ركنها طرافة واستلامه " [٣] . وقال ابن اللبانة في ذكر غزو ابن تاشفين لدويلات الاندلس ان ابن تاشفين " ارسل الى حضرة المعتمد اشبيلية وشرع في قتالها والناس قد ملوا الدولة العبادية وسئموها على ما جرت به العادة من حب الجديد ، ولا سيما وقد اظهر ابن عباد من التهتك والشرب والملاهي ما لا يخفى امره ، فتمنى اكثر الناس الراحة من دولته ... وكان ابن تاشفين قد سأل عن احوال المعتمد

---

(١) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٨٠

(٢) النويري ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٣٨ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٦٩ .

(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٣ .

في لذاته ، هل تختلف فتنقص عما عليه بعض الاوقات فقيل له : بل كل زمانه على هذا" (١).

على انا لسنا نقول بان اندثار ملكه كان بسبب لهوه وشربه لان هذا الاندثار كان جامعا ذهبت معه جميع دويلات الاندلس وليس اشبيلية فحسب ، وانما ذكرناه لنبين ان المعتمد نشأ نشأة اكثر الشعراء لاهيا عابثا ، لم يمنعه سلطان الملك من الانغماس في ملذاته ، والابتعاد عن مهام السياسة ليخلد الى ندمائه فيلهو بكأس ويتمتع بقول شعر.

على ان هذه الحياة الملكية بعزها وترفها وهذه الروح الشاعرية برقتها ولينها ساعدتاه على ابراز احسن صفاته ، فكان له في عصره مكانة مرموقة لما تحلى به من فضائل حببته الى الناس لا سيما انه "ابتدأ بسيرة جميلة واغمد السيف الذى كان سله ابوه "(٢) كما انه " وخالف اباه في القهر والسفك والاخذ بادنى سعاية ، فرد جماعة ممن نفرهم ابوه ، واحسن السيرة ، فرزق من الناس حبا ورحمة " جعلتهم يتفجعون عليه ويبكونه باحر الدمع يوم اخرج من اشبيلية (٣).

ومما حببه الى الناس ايضا صفحه وحلمه عن كثيرين من اعدائه ، فقد كان عكس ابيه في هذه الناحية لا يحنق ولا ينتقم لادنى خبر او وشاية وكثيرا ما كان يصفح عن المخطئين في حقه حلما ورحمة . فمن اخبار حلمه صفحه عن حريز ابن حكم ابن عكاشة ، وحكم هو قاتل سراج الدولة ابن المعتمد في قرطبة ، وكان قد اسره

---

(١) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٩٠

(٢) ابن المواعيني ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٨

(٣) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٦٣ (بتناقض قول المقري)

رجال المعتمد وساقوه اليه فعفا عنه واطلقه . (١)

واغراه بعض الشعراء على الفتك بالوزير ابي الوليد ابن زيدون ، الذى كان قد اظهر صولة في دولة المعتضد ، وكان قد اغرى المعتضد بالايقاع باعدائه ، فحقد هؤلاء عليه وارادوا ان ينتقوا منه في عهد المعتمد فبعثوا اليه بقصيدة مطلعها :

يا ايها الملك العلي الاعظم ... اقطع وريدي كل باع يئثم

وفيها يقولون

واذكر صنيع ابيك اول مرة ... في كل متهم فانك تعلم

لم يبق منهم من توقع شره ... فصفت له الدنيا ولذ المطعم (٢)

" فلما قرأها المعتمد عف عما ارادوه وكف السنة الذين كادوه " بقوله

كذبت مناكم صرحوا او جمجموا ... الدين امتن والسجية اكرم

خنتم ورمتم ان اخون وربما ... حاولتم ان يستخف يلمم

واردتم تضييق صدر لم يضق ... والسمر في ثغر النحور تحطم

انا ذاكم لا البغي يثمر غرسه ... عندي ولا مبنى الصنيعة يهدم

كفوا والا فارقبوا لي بطشة ... يلقى السفيه بمثلها فيحلم (٣)

ولما بلغ ابن زيدون هذا ، مدحه بقصيدة طويلة قال فيها بعد ان عرض

---

(١) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٢٢

(٢) القصيدة موجودة في ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٦ - ١٧

(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٧ ، ابن بسام ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣٠٢

بهؤلاء الوشاة ، مادحا المعتمد :

ما كان حلم محمد ليحيلـــه عن عهده دغل الضمير مذمـم

وقال : ما ان يرى كخصالك الزهر التي منها على زهر الكواكب ميســم

المحتد الزاكي السرى والسؤدد السامي الذوائب والفخار الاعظـم

والحلم يرسخ هضبه والعلم يز خر بحره ولظى الذكـا يتضـرم

لك عفو شهم لا يضيع حزامـــة ولئن بطشت فبطش من لا يظلم (١)

واشتهر المعتمد الى جانب حلمه بالجود والكرم . وقد قال عنه احد المؤرخين انه "كان اندى ملوك الاندلس راحة وافضلهم سماحة ، وكانت حضرتـه قبلة الآمـال ومحط الرجال وموسم الشعراء ومألف الفضلاء" (٢).

يروى "ان ابا العرب الصقلي الشاعر ، حضر مجلس المعتمد يوما وقد حمل اليه حمول وافرة من قراريط الفضة فامر له بكيسين منها وكان بين يديه تماثيل عنبر من جملتها جمل مرصع بالذهب والآلىء فقال له ابو العرب معرضا : ما يحمل هذين الكيسين الا جمل فتبسم المعتمد وامر له به" . وقيل ان الجمل ذلك بيع بخمسمئة مثقال (٣) .

وحكي عنه انه سمع ابن وهبون الشاعر يقول :

غاض الوفاء فما تلقاه في رجل ولا يمر بمخلوق على بال

قد صار عندهم عنقاء مغربـة او مثل ما حدثوا عن الف مثقـال

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٨ - ٢٠

(٢) المقري ج ٢ ، ص ٦٨٨ ، الملك المنصور ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٢٨

(٣) المقري ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ ، ٦١٠

" فقال له المعتمد ، عنقاء مغربة والف مثقال يا عبد الجليل عندك سواء ؟ فقال نعم ، قال قد امرنا لك بالف دينار وبالف دينار اخرى تنفقها ، الان حدث بهـا لا عنها "(١) . وقيل ان ابن وهبون امتنع فيما بعد عن مدح المعتصم ابن عباد وقال : " ابعد المعتمد احضر منتدى ، او استمطر جودا او ندى "(٢).

وحدث الحافظ الحجاري انه سأل عمه ابا محمد عبد الله ابن ابراهيم عن افضل من لقي من اجواد تلك الحلبة ، وسأله عن المعتمد فقال ، " قصدته وهو مع اميرالمسلمين يوسف ابن تاشفين وهو فتي غزوته للنصارى فرفعت له قصيدة منها :

لا روع الله سربا في رحابهم ... وان رموني بترويع وابعاد
ولا سقاهم على ما كان من عطش ... الا ببعض ندى كف ابن عباد
ذى المكرمات التي ما زلت تسمعها ... انس المقيم وفي الاسفار كالزاد
يا ليت شعرى ماذا يرتضيه لمن ... ناداه يا موئلي في جحفل النادى

فلما انتهيت الى هذا البيت ، قال اما ما ارتضيه لك فلست اقدر في هذا الوقت عليه ، ولكن خذ ما ارتضى لك الزمان ، فاعطاني ما اعيش من فائدته الى الآن " . وقد حمل حزن الحجاري هذا على المعتمد لما نكب انه كتب على حائط السجن لما زاره في منفاه :

فان تسجنوا القسري لا تسجنوا اسمه
ولا تسجنوا معروفه في القبائل

---

(١) المقري ، ج ٢ ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ، المراكشي ص ١٠٣
(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٨٠

قال : " ثم تفقدت الكتابة بعد ايام فوجدت تحت البيت ، لذلك سجناه " ثم قال " ولما اردت وداعه امر لي باحسان على قدر ما استطاع فقلت :

آليت لا اقبل احسانكـــم والدهر فيما عراكم مســـي
ففي الذى اسلفتم غنيـــــة وان يكن عندكم قد نســـي (١)

وقد تعرض الحصري القروي للمعتمد بخارج طنجة - وهو في طريق منفاه الى اغمات - ولم يكن مع المعتمد غير ثلاثين دينارا عبادية كان قد خبأها للضرورة ، فاعطاه ايـاها ، وبعث معها قطعة شعر فيها اعتذار عن قلتها (٢) ويقال ان الشاعر الحصري هذا كان قد الف له كتابا ووصل به اليه وقد اخذ اسيرا فاعطاه المعتمد كل ما يملك مكافأة (٣).

وحدث ابن اللبانة عن جود المعتمد قال : " كنت مع المعتمد باغمـــــات ، فلما قاربت الصدر وازمعت السفر ، صرف حيله واستنفذ ما قبله ، وبعث الي مع شرف الدوله ولده ، بعشرين مثقالا مرابطيـــة وثوبيـــن غير مخيطين ، وكتب معهما ابياتا " (٤) يعتذر عن قلتها ويقول ابن اللبانة " فامتنعت من ذلك واجبته بابيات منها :

تركت هواك وهو شقيق دينـــي لئن شقت برودي عن غدور
ولا كنت الطليق من الـــــرزايا اذا اصبحت اجحف بالاسير
تصرف في الندى حيل المعالي فتسمح من قليل بالكثيـــر
واعجب منك انك في ظـــــلام وترفع للعفاة منار نـــور" (٥)

---

(١) التيجاني ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ، المقري ج ٢ ، ص ٣٨٧
(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٧٧
(٤) راجعي ص ١٨٠ من هذه الاطروحة
(٣) المقري ج ٢ ، ص ٥٩٩
(٥) المقري ج ٢ ، ص ٤٨٧ - ٤٨٨

وكان المعتمد يجمع الى صفات الجود والحلم واللين شجاعة اشتهر بهـا . ذكر بعض المؤرخين انه "كان فارسا شجاعا بطلا مقداما ماضيا في الامور" (١). وقد ظهرت شجاعته عندما هاجمه رجال ابن تاشفيـن ، فقد برز هو من قصـره للمهاجمين وابلى في محاربتهم بلاء حسنا . وها هو ابن اللبانة يصف شجاعة المعتمد ومواجـهته الاعداء وصف شاهد عيان فيقول : ان المعتمد "برز من قصره متلافيا لامره عليه غلالة ترف على جسده وسيفه يتلظى في يده . فلقي على باب من ابواب المدينة فارسا مشهورا بنجدة فرماه الفارس برمح الثوى في غلالته وعصمه الله منه وضب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه الى اضلاعه فخر صريعا سريعا فرأيت القائميـن عندما تسنموا الاسوار تساقطوا منها ، وبعدما امسكوا الابواب تخلوا عنها ، واخـذوا على غير طريق وهوت بهم ريح الهيبة في مكان سحيق فظننا ان البلد قد اقـزائه قد صفا وثوب العصمة قد ضفـا ، الى ان كان يوم الاحد الحادي والعشرون مـن رجب فعظم الامر في الخطب" . الى ان يقول : " ودخل البلد بعد ان ظهـر من دفاع المعتمد وباسه وترامية على الموت بنفسه ما لا مزيد عليه ولا انتهى خلـق اليـه " (٢)

ويصف ابن خاقان المعتمد وبأسه في مواجهة المهاجمين بقوله : " ولمـا انتشر الداخلون في البلد ، واوهنوا القوى والجلد ، خرج والموت يتسعر في الحاظه ويتصدر من الفاظه ، فلقيهم في رحبة القصر ، وقد ضاق بهم فضاؤها وتضعضعـت من رجتهم اعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقا وملأتهم فرقا "(٣).

---

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٧٣

(٢) المقري ج ٢ ، ص ٥٧٢ ، المراكشي ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٤ - ٢٥

ويقول المعتمد نفسه في ذلك اليوم واصفا نفسه :

قد رمت يوم نزالهـــم الا تحصنني الدروع
وبرزت ليس ســـوى القميـــــص على الحشاشيء دفوع
اجلي تأخر لم يكـــن بهواي ذلي والخضوع
ما سرت قط الى القتـا ل وكان من اهلي الرجوع (١)

كذلك اظهر المعتمد شجاعة وبأسا في محاربة الاذفونش في يوم الزلاقة اذ انه اشترك في القتال بنفسه "واصيب بجراح في وجهه ووصف في ذلك اليـــوم بالشجاعة" (٢).

على ان هذا الملك الكريم الشجاع والشاعر الرقيق الحليم ، كان حاكمـا وسياسيا قديرا . فقد استطاع المعتمد في ثلاث وعشرين سنة من حكمه ان يسجل لنفسه شهرة مرموقة في حقل السياسة وانتصارات واسعة في حقل الفتوحـــات واستطاع ان يضم الى مملكة اشبيلية دويلة قرطبة فحقق المعتمد بذلك الفتـــح آمالا عريضة داعبت مخيلات ابيه وجده من قبل ولكنهما عجزا عن ادراكها لعـــدم توافر الظروف التي توافرت للمعتمد .

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ، راجع ص١٥٧ و١٧٤ من هذه الاطروحة .
(٢) النويري ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

المعتمد ابن عباد في اوائل حياته السياسية

اتبع المعتمد في سياسته المنهاج الذى سار عليه اسلافه ، وهو محاولة الاستيلاء على الامارات الاسلامية بالاندلس وضمها الى اشبيلية . ففي السنة الثانية لتولية الحكم حول انظاره الى قرطبة التي نجح ابوه المعتضد في ضمها الى اشبيلية . ولكن المعتضد كان قد مهد لابنه السبيل الى اخذها باضعاف الحكم فيها . ذلك ان الوزير ابا الوليد ابن جهور ، الذى كان الرئيس في قرطبة ، تنازل سنه ٤٥٦ هـ (١٠٦٥م) لتقدمه في السن ، عن الحكم لولديه عبد الرحمن وعبد الملك . وكانا يعتمدان في تدبير امور البلاد على وزير قدير يدعى ابن السقاء . وعلم المعتضد ان الاستيلاء على قرطبة لا يكون سهلا ، الا بعد التخلص من الوزير المذكور . فدس الى عبد الملك يغريه بقتل ابن السقاء ، ودس الى الوزير ابن السقاء يزين له الثورة على عبد الملك . وانتهت الشكوك بينهما الى ان قتل عبد الملك وزيره . ثم انقلب ايضا على اخيه عبد الرحمن الذى كان يشاركه في الحكم فسجنه .

وتضعضعت الامور في قرطبة ، وكان المعتضد ابن عباد قد مات . ورأى المأمون ابن ذي النون امير طليطلة الفرصة سانحة للهجوم على قرطبة . وحمل عليها بجيوشه . افزع هذا الامر عبد الملك ابن جهور ، وكان كثير من رجاله قد انقلبوا عليه بسبب قتله ابن السقاء ، فلجأ الى المعتمد ابن عباد يطلب مساعدته ، وكان المعتمد يتمنى مثل هذه الفرصة ، فسير الى قرطبة جيشا ، استطاع ان يرد العدوان عنها . ولكن جيش اشبيلية لم يعد الى بلده بعد النصر كما كان

منتظرا ، بل ظل ليحتل قرطبة ، وفوجئ عبد الملك ابن جهور ، لما رأى جنود اشبيلية الذين جاءوا لمساعدته قد احاطوا بقرطبة واقتحموها . وقبض المهاجمون على عبد الملك ابن جهور واخيه عبد الرحمن وسائر اهل بيته واخرجوا جميعا مع ابيهم الشيخ ابي الوليد في اسوأ حال ونفوا الى جزيرة شلطيش . وصارت قرطبة بيد المعتمد ابن عباد ، وذلك سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠م) . وقد وكل المعتمد عليها ابنه عباد الملقب بسراج الدولة ، وكان يدبر امورها معه وزير اسمه ابن مرتين (١) .

وقد ملأ هذا النصر قلب المعتمد سرورا ، وذكره مزهوا في شعره قال :

من للملوك بشأو الاصيد البطل ... هيهات جاءتكم مهدية الدول

خطبت قرطبة الحسناء اذ منعت ... من جاء يخطبها بالبيض والاسل (٢)

على ان المأمون ابن ذي النون لم يسكت طويلا عن هزيمته في قرطبة ، فقد اتفق مع رجل ثائر اسمه حكم ابن عكاشة على اخذ قرطبة . وكان ابن عكاشة من رجال ابن السقاء ، سجنه عبد الملك ابن جهور بعد مقتل ابن السقاء وكان المأمون ابن ذي النون قد استماله ، وولاه بعض الحصون ليستعين به على ابن عباد (٣). وقد ظل ابن عكاشة هذا يعمل في السر ويتجسس في قرطبة حتى هجم ذات ليلة من سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥م) في كتيبة من الجند وسار مع بعض رجاله اولا الى القصر، وكان عباد ابن المعتمد لاهيا ، لم يعرف شيئا مما قد دبر حوله من المؤامرات ،

---

(١) ابن بسام قسم ١ مجـ ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٦ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٩ ، المقري ج ١ ، ص ٢٨٦ و ٢٨٨ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٤٩ - ١٥١ .

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٢ - ١٣ ، المقري ، ج ١ ، ص ٤١٢ - ٤١٣ . راجع ص ١٤٨ من هذه الاطروحة .

(٣) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

فلما احاط الرجال بقصره خرج اليهم مع عدد قليل من رجاله ، وتصدى لهم يحاربهم ، ولكنه لم يلبث ان قتل وترك مرميا على قارعة الطريق .

وبعد ان استولى ابن عكاشة على القصر وقتل عبادا توجه الى قصر ابن مرتين وقتله ، وبذلك صارت قرطبة في حوزة بني ذي النون سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥م). ولكن المأمون ابن ذي النون توفي في السنة التي احتل فيها قرطبة نفسها وتولى الامر بعده ابنه الملقب بالقادر ، وكان ضعيفا ، فطمع في ملكه امراء الاندلس ولا سيما المعتمد ابن عباد الذي ظلت قرطبة هدفه الاول . وكان ابن عكاشة يطمع في الاستبداد بحكم قرطبة ، غير انه لم يجد مساعدة من اهل البلد ، اذ تقول بعض الروايات ان اهل قرطبة بعثوا يطلبون المعتمد ، فاقبل اليهم برجاله طالبا بثأر ابنه ومصمما على ارجاع قرطبة الى حكمه . ففر ابن عكاشة ، ولكن رجال المعتمد لحقوا به وقتلوه ، ورجعت قرطبة الى طاعة المعتمد ثانية ، وولى عليها ابنه الملقب بالمأمون ، وكان ذلك سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٧م) . وقد ظلت قرطبة تابعة لحكم المعتمد حتى استولى عليها يوسف ابن تاشفين . (١) .

وارتفع اسم المعتمد ابن عباد في البلاد ، وحسبت له دويلات الاندلس حسابا كبيرا ، واستغل امره بغرب الاندلس وعلت يده على من كان هناك من ملوك الطوائف مثل ابن باديس بغرناطة وابن الافطس ببطليوس ، وابن صمادح بالمرية

---

(١) راجع تفاصيل سقوط قرطبة في ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٢ - ١٣ ، ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، ابن الاثير ج ٩ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٩ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥١ - ١٥٢ و ١٥٨ - ١٥٩ ، ابن سعيد ، المغرب ، ص ٥٦ - ٥٧ ، ابن عبد الحق الخزرجي ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٦ - ١٨ .

وغيرهم ، فكانوا يخطبون سلمه ويغلون في مرضاته " (١).

ولكن المعتمد كان ابعد في طموحه من ذلك واراد ان يسير في حروبه حتى يستولي على اكثر مدن الاندلس . فقد وجه همه بعد قرطبة الى مرسية او كورة تدمير كما كانت تعرف في ذلك الوقت (٢). قيل الذى اطمعه في اخذها وزيره ابن عمار . وكانت مرسية في يد ابي عبدالرحمن ابن طاهر . على ان ابن عمار عرف انه لا يستطيع الاستيلاء عليها وحده فقرر ان يطلب معونة ريموند امير برشلونة ، فامده هذا بجيش يساعده لقاء مبلغ من المال يعطيه اياه المعتمد ، وتأكيدا على ذلك اعطاه ابن عمار الرشيد ابن المعتمد رهينة واخذ ابن اخيه رهينة عند المعتمد .

ولما كانت جيوش اشبيلية وبرشلونة على اهبة المسير الى مرسية تباطأ المعتمد في اعطاء المال ، فانقلب ريموند على ابن عمار وامر بالقاء القبض عليه وعلى الرشيد . وكان المعتمد يسير في جيش اخر الى مرسية عندما ورد اليه خبر من ابن عمار يتعجله في فك اسره واسر الرشيد . فاستشاط المعتمد غضبا ، وامر ان يوضع ابن اخي ريموند في الاغلال . على ان المعتمد اجبر فيما بعد على رد رهينته الى ريموند ودفع المال ليفك اسر ابنه ووزيره ، وقيل لم يكن معه ما يكفي من المال فاضطر الى تزييف النقود ،وهكذا انتهت هذه المحاولة للاستيلاء على

---

(١) المقري ،ج ١ ، ص ٢٨٧

(٢) هي كورة في شرق الاندلس، كانت قاعدتها مرسية . قيل سميت كذلك باسم امير قوطي " ثيودمير " كان يحكمها قبل الفتح الاسلامي ، وقيل سميت تدمير تشبيها لها بتدمر الشام .

مرسية بالفشل .[1]

ويقول بعض الروايات ان ابن عمار لم يجرؤ على مقابلة المعتمد بعد ان مني بهذا الخذلان وارسل اليه بقصيدة يعتذر له فيها مطلعها

أأركب قصدي ام اعوج مع الركب فقد صرت من امري على مركب صعب

يقول منها :

حنانيك فيمن انت شاهد جده وليس له حاشا انتصاحك من حسب
وماجئت شيئا فيه بغي لطالب يضاف به رأيي الى الضعف والعجب
سوى انني اسلمتني لملمة فللت بها حدي وكسرت من غربي
اما انه لولا عوارفك التي جرت فيّ جري الماء في الغصن الرطب
لما سمت نفسي ما اسوم من الاذى ولا قلت ان الذنب في ما جرى ذنبي
سأستسمح الرحمن لديك ضراعة واسأل سقيا من تجاوزك العذب
وان نفحتني من سمائك حرجف سأهتف يا برد النسيم على قلبي[2]

فجاوبه المعتمد بشعر اظهر له الصفح فيه[3]. ومع ان الروايات متضاربة مختلطة

---

(١) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٨٦ - ٨٧

(٢) المصدر نفسه ص ٩٣ - ٩٤

(٣) راجع ص ٥١ من هذه الاطروحة

في سبب ووقت اعتذار ابن عمار بهذه الابيات وجواب المعتمد عليها[1]، فالمعروف ان المعتمد صفح عنه ورجع ابن عمار الى المعتمد ابن عباد في اشبيلية .

وعاد الى ابن عمار طموحه في اخذ مرسية وزعم ان اهلها يلحون عليه في القدوم واشار على المعتمد في تجهيز جيش ثان ، فرضي المعتمد وجهز جيشا وضم اليه عسكرا من قرطبة ، وتولى ابن عمار امر الجيوش وكان معه في حملته تلك ابن رشيق ، صاحب حصن بلج . وقبل الوصول الى مرسية استولت جيوش اشبيلية على مدن في كورة تدمير ، حتى اذا ما وصلت الى مرسية حاصرتها ، وعاد ابن عمار الى اشبيلية تاركا امر الحصار بقيادة ابن رشيق . وظل الحصار مضيقا على اهل مرسية وانقطعت عنهم المواد حتى اضطروا الى التسليم وفتحوا ابواب المدينة لابن رشيق وجنوده ، واخرج ابن طاهر امير مرسية عن بلده ، ولجأ الى بلنسية عند بني عبد العزيز . وكان ذلك سنة ٤٧١ هـ [2] (١٠٨٠م) .

---

(١) نقول الروايات التي ينقلها ابن الابار عن الكاتب ابي بكر محمد ابن قاسم الشلبي احد كتاب المعتمد وابي الطاهر التميمي وابن بسام ، وفيها اختلاف في بعض الابيات ان ابن عمار قال هذه الابيات وجاوب المعتمد عليها بما اشعره بالصفح بعد خذلانه في مهاجمة مرسية ورهن الرشيد عند ريموند . ابن الابار في دوزي ، ج ٢ ، ص ٨٦ - ٨٧ .

اما ابن خاقان (القلائد ص١٠٢ - ١٠٣) فيقول ان هذه الابيات وجواب المعتمد عليها قيلت بعد ان استبد ابن عمار بمرسية واخرج عنها فطاف بين ملوك الاندلس وقد خاف ان يرجع الى المعتمد . ويمكن ترجيح القول الاول اذا سلمنا بان الرواة والمؤرخين قد اختلط عليهم الامر لارسال ابن عمار قصائد واشعار اخرى عندما اخرج من مرسية وخاف ان يرجع الى المعتمد ، لا سيما وان الابيات التي اوردها هؤلاء الرواة مختلفة مختلطة الترتيب . وسيأتي ذكر اعتذار ابن عمار بعد عصيانه في مرسية ، في مكانه .

(٢) راجع تفاصيل سقوط مرسية في : ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص٨٦-٨٨ ، المراكشي ، ص ١٢١ - ١٢٢ و ١٢٩ ، ابن الاثير ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

ولما سمع ابن عمار بسقوط مرسية اسرع اليها بعد استئذان المعتمد وقد اخذ معه هدايا نفيسة ليستجلب بها اهل مرسية ، ودخلها في مهرجان فخم . "وجلس في اليوم الثاني مجلس التهنئة للخواص والعوام فسجعت الشعراء بامداحه ، وقد تزين بزي ابن عباد "(١).

ثم انه اخذ يعمل شيئا فشيئا على التفرد بحكم مرسية ويصدر الاوامر بتوقيعه ويغفل توقيع المعتمد (٢)، وانصرف الى مباهجه ينعم في سلطانه غافلا عما كانت تخبىء له الاقدار في ايدى اعدائه . ذلك ان ابا عبد الرحمن ابن طاهر الذى لجأ الى ابن عبد العزيز امير بلنسية ، كان يضمر لابن عمار الحقد . كذلك كان ابن عبد العزيز صاحب بلنسية يكره ابن عمار ، وكانا يتحينان الفرص للانتقام منه . واشد ما كان ينفر ابن عبد العزيز من ابن عمار هو خوفه منه ذلك ان ابن عبد العزيز اخذ يستشفع عند المعتمد لابن طاهر الذى كان ابن عمار قد اعتقله حتى امر المعتمد بتخلية امره ويظهر ان هذا اغاظ ابن عمار ، وكان يطمع في بلنسية (٣) ايضا فقال يخاطب اهل بلنسية ويغريهم بالثورة على ابن عبد العزيز :

خبر بلنسية وكانت جنة ... ان قد تدلت في سواء النار

غدرت وفيا بالعهود وقلما ... عثر الوفي سعى الى الغدار

---

(١) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٨ ، المراكشي ص ١٢٢ ، ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٣) المراكشي ، ص ١٢٢ .

يا اهلها من غائب او حاضـر وقطينها من راسخ او طـاري
جازوا بني عبد العزيز فانهـم جروا اليكم اسوأ الاقـــدار

وهي قصيدة طويلة يذم ابن عمار فيها ابن عبد العزيز ويحض اهل بلنسية على الثورة ويغريهم في آخر القصيدة بهدم قصورهم وسلب اموالهم وكنوزهم (١).

واتصلت اخبار هذه القصيدة بالمعتمد فغضب على ابن عمار وكان قد بلغه اعجاب ابن عمار بنفسه ومحاولته الاستبداد بملك مرسية فقال فيه ابياتا يعرض فيها به ويقارن بين حاله في ايام بؤسه وحاله بعد ان صار في تلك المنزلة وذلك ان ذيل قصيدة ابن عمار في بني عبد العزيز ومدحهم قال عنهم :

الاكثرين مسودا ومملكـــا ومتوجا في سالف الاعصـــار
ان كوثروا كانوا الحصى او فوخروا فمن الاكاسر من بني الاحرار
يضحى مؤملهم يؤمل شيبـه ويبيت جارهم عزيز الجـــار
يبكي عليهم شنبوس بعبـرة كاتيهـا المتدافع التيـــار
ويقول فيها يا شمس ذاك القصر كيف تخلصت فيه اليك طوارق الاقـــدار (٢)

يريد بشمس ام ابن عمار ، وبشنبوس قرية اوائل ابن عمار من نواحي شلـــب فاهتاج ابن عمار لهذا وقال يهجو المعتمد واعتماد زوجته بابيات قال منها :

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٦٩ - ٧٠ ، ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

الا حي بالغرب حيا حلالا — اناخوا جمالا وحازوا جمالا
وعج بيومين ام القرى — ونم فعسى ان تراها خيالا
تخيرتها من بنات الهجين — رميكية ما تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير الذراع — ليئم النجارين عما دخالا

وفي القصيدة يعرض ابن عمار بالمعتمد وعلاقته به بما يسيء الى خلق المعتمد وينسب اليه الفحش . وقد استطاع ابن عبد العزيز امير بلنسية بواسطة احد جواسيسه ان يحصل على هذا الهجاء بخط ابن عمار ويرسله الى المعتمد الذى ثارت ثورته على ابن عمار واضمر له الانتقام (١).

وكان هناك عدو اخر يعمل على انهاء امر ابن عمار ، ذلك هو ابن رشيق الذى ساعده في فتح مرسية ، فقد كان طيلة الوقت يعمل على تحين الفرص لاضعاف امر ابن عمار . فبينما كان ابن عمار لاهيا في عز سلطانه اخذ ابن رشيق يستبدل عمال ابن عمار بثقاته واقاربه حتى صارت معظم الحصون بايدي رجال ابن رشيق واعوانه . عندئذ ثار عليه ابن رشيق واخرجه عن مرسية (٢).

وهكذا قبل ان يقوم المعتمد باي خطوة للاخذ بثأره من ابن عمار ، كان ابن عمار قد اخرج عن مرسية . ولما كان قد عرف بغضب المعتمد عليه لم يحاول ان يذهب اليه ، والتجأ الى جليقية راجيا ان يساعده الاذفونش على ابن رشيق ، غير ان ابن رشيق كان قد قدم الحزم فاستمال الاذفونش بالطافه وهداياه

---

(١) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١١٦ - ١١٨ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٣٩٠ .

(٢) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٠٠ و ١٠٢ - ١٠٣ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

وغيره على ابن عمار فانصرف خائبا . ويقال انه قال له : يا ابن عمار مثلك مثل السارق سرق السرقة ، فضيعها حتى سرقت منه "(١).

ولما لم يتحقق امل ابن عمار عند الاذفونش التحق بالمقتدر ابن هود صاحب سرقسطة ، على انه لم يستطب المقام هناك فرحل الى صاحب لاردة المظفر ابن هود ، ولكنه كان على ما يظهر حائرا في امره لا يدري ما يفعل فعاد الى سرقسطة التي كان قد تولى الامر فيها المؤتمن ابن هود واخذ ابن عمار يغريه بالاستيلاء على حصن شقورة ويضمن له اخذه . فارسله المؤتمن على رأس كتيبة ليحتل له الحصن . ولكن نهاية ابن عمار كانت في تلك الحملة اذ ان ابن مبارك صاحب الحصن ، رحب به اولا ليخدعه ، ثم ما لبث ان قبض عليه وابقاه عنده اسيرا (٢) .

وقيل ان ابن عمار لما طالت مدة اسره طلب من ابن مبارك ان يعرضه على ملوك الاندلس ، فمن كان منهم اشد رغبة فيه جعل له مالا ووجهه اليه ، ففعل ابن مبارك ذلك ، وبعث المعتمد ابنه الراضي وبعضا من رجاله ليأخذه (٣) وفي ذلك يقول ابن عمار :

اصبحت في السوق ينادى على رأسي بانواع من المال
والله ما جار على نقده من ضمني بالثمن الغالي (٤)

---

(١) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٠٣ - ١٠٤

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٠٣ ، المراكشي ، ص ١٢٣ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ص ١٦٠

(٣) يقول ابن خاقان في القلائد ، ص ١١٠ ان المعتمد هو الذى " ظل يتحيل على صاحب شقورة في اخذ ابن عمار منه ويعطيه ما شاء عنه " حتى اخذه . كذلك يقول ابن الخطيب اعمال الاعلام ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٤) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٠٣ - ١٠٤ ، المراكشي ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

وهكذا عاد ابن عمار الى المعتمد اسيرا ، ولم يعد الى حياته صديقا حميما كما كان . وادخل الى قرطبة مقيدا وفي اسوأ حال والناس قد تجمعوا خصيصا ليروا ذلـــه واهانته . وقيل ان المعتمد لما رآه ، "جعل يعدد عليه اياديه ونعمه وابن عمـــار في ذلك كله مطرق لا ينبس ، الى ان انقضى كلام المعتمد فكان من جواب ابن عمـــار ان قال : ما انكر شيئا مما يذكره مولانا ابقاه الله ، ولا انكرته لشهدت علي بـــه الجمادات فضلا عمن ينطق ، ولكني عثرت فاقل ، وزللت فاصفح " (١) .

ولكن المعتمد لم يصفح عنه وامر باخذه الى اشبيلية ، فادخل اليها على الحال التي دخل فيها قرطبة ، وجعل في غرفة على باب القصر مسجونا . واقام ابن عمـــار في سجنه مدة يبعث الى المعتمد باعتذاره وتوسله ، وقد نظم في سجنه قصائـــد ، كان يرسلها الى المعتمد كي يرق له ويعفو عنه ، من تلك قصيدته التي قال فيها :

سجاياك ان عاقبت اندى واسمح ... وعذرك ان عاقبت اجلى واوضـــح
وان كان بين الخطتيـــن مزيـــة ... فانت الى الادنى من الله تجنح

وفي هذه القصيدة يعرض باعدائه الذين وشوا عليه ويقول :

حنانيك في اخذي برأيك لا تطـــع ... عداي ولو اثنوا عليك وافصحـــوا
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهـــم ... فكل اناء بالذي فيه يرشـــح

الى ان يقول مقرا بذنبه وطالبا صفحه :

---

(١) المراكشي ، ص ١٢٥ .

وماذا عسى الواشون ان يتزيدوا سوى ان ذنبي واضح متصحح
نعم لي ذنب غير ان لحلمه صفات يزل الذنب عنها فيسفح

ويقول مؤكدا حبه للمعتمد :

ويهنئه ان مت السلو فانني اموت ولي شوق اليه مبرح
وبين ضلوعي من هواه تميمة ستنفع لو ان الحمام مجلح (١)

ويقال ان المعتمد ادركته الشفقة على ابن عمار لكثرة ما توسل اليه وخاصة بعد قصيدته هذه ، فاستحضره ذات ليلة ، فجعل ابن عمار يبكي ويستعطف المعتمد فقال له المعتمد قولا يتضمن العفو تعريضا لا تصريحا وامر برده الى محبسه . فكتب ابن عمار في تلك الليلة الى الراضي ابن المعتمد يخبره ان المعتمد قد عفا عنه ، ووصل الكتاب الى الراضي وفي حضرته بعض ممن كانوا يضمرون العداء لابن عمار ، فاخبرهم الراضي بما وصله ، فاظهروا الفرح وهم يبطنون غيره ، ولما ذهبوا نشروا حديث ابن عمار اسوأ نشر وزادوا فيه زيادات قبيحة تسيء الى المعتمد . وبلغ المعتمد ذلك فارسل الى ابن عمار وقد جن جنونه حنقا عليه وسأله عن ذلك ، فانكر ابن عمار اولا ولما الح عليه المعتمد في السؤال سكت . ثم ان المعتمد خرج من عنده حانقا ، وعاد اليه وبيده طبرزين فلما رآه ابن عمار علم انه قاتله ، فجعل يزحف وقيوده تثقله حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما والمعتمد لا يثنيه شيء ، فعلاه بالطبرزين الذي في يده ، ولم يزل يضربه به حتى برد . (٢) .

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١١٠ - ١١١ ، المراكشي ، ص ١٢٥ - ١٢٦ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٦١ .

(٢) المراكشي ، ص ١٢٧ - ١٢٩ .

وقيل في خبر موته وسببه غير هذه الحكاية وهو انه لما شاع خبر عفـــوه ذكرته الرميكية بهجوه فثار عند ذلك وضربه بالطبرزين حتى شق رأسه ورجع الـى الرميكية وقال " قد تركته كالهدهد " (١) .

وقيل ان الرميكية هي التي قالت شامتة لما رأت ابن عمار والطبرزين في رأسه " قد بقي ابن عمار هدهدا " (٢) .

والارجح ان يكون سبب ثورة المعتمد السريعة على ابن عمار ما رواه المراكشي من ان ابن عمار اشاع خبر عفوه وزاد فيه اعداؤه اشياء تمس بسمعة المعتمد فجـن جنونه وضربه تلك الضربة التي قضت عليه . وقد اخذ ابن الخطيب بهذه الرواية فقال في خبر قتل المعتمد لابن عمار : " كان ابن عمار يتلقاه بالاستعطاف والاسترحام بما كاد يحل عقدة موجدته ويطمع في الابقاء عليه ، لولا ان اعداء شمروا للاغـــراء به ونسبوا اليه اقوالا في اساءة ذكره والنيل من ام ولده فقتله " (٣). وكان قتله سنة ٤٧٧ هـ (٤) (١٠٨٥م) .

ويذكر اشباخ سببا اخر لغضب المعتمد على ابن عمار وذلك ان المعتمـد غضب عليه من جراء المعاهدة التي قام بها مع الفونسو السادس، اذ جـــزع المعتمد من اخذ الاذفونش لطليطلة وتوسعه في الاستيلاء على الاراضي المجاورة

---

(١) ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٣٩١

(٢) المقري ، ج ٢ ، ص ٥٦٩

(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٦١ .

(٤) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٢

وتهديده قرطبة وساوره الندم فصب جام غضبه على الوزير الذى عقد الحلف فقبض عليه والقاه في السجن (١).

غير ان هذا لا يمكن ان يكون السبب الوحيد لغضب المعتمد على ابن عمار، فقد يكون ابن عمار شجع على تلك المعاهدة ، ولكن المعتمد عقدها برأيه ورضاه كما سنرى فيما بعد . ولعل بلبلة فكر المعتمد وخوفه من جراء هذه المعاهدة كان لهما اثر في اضطراب المعتمد وقسوته على ابن عمار تلك القسوة .

ويقال ان المعتمد ندم على قتله ولكن بعد ان فات الاوان (٢).

على هذه الصورة انتهت تلك الصداقة بين الملك والوزير ، التي كانت فيما سبق حديث الناس وغرض الاعداء والحساد ، وبهذه الفاجعة الاليمة انتهت حياة ابن عمار فكانت مأساة من مآسي التاريخ ، فقد ذهب ابن عمار ضحية طموحه ، وليس هو باول من يرديه طموحه وتوثبه على الرئاسة والجاه .

وكأن القدر كان يأبى ان يظل نجم ابن عباد في طلوع بعد مقتل ابن عمار ، فمع ان امره كان قد ارتفع في البلاد واصبح سيدا على جزء كبير من الاندلس ، فان نجمه اخذ بالافول وذلك عندما بدأ المسيحيون وعلى رأسهم الاذفونش (٣) ملك ليون وقشتاله يطمعون في تملك الاندلس . وكان امر الاذفونش قد قوى في هذه

---

(١) اشباخ ، ج ١ ، ص ٦٥

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٦٢ .

(٣) هكذا ورد اسمه في المصادر الاسلامية وفي بعضها يسمى الادفونش والفنش . وهو الفونسو السادس ابن فردناند كما ورد اسمه عند كوندي وجاينجوس ود وزي واشباخ و بروفنسال

المدة واخضع جميع ملوك الاندلس ، " فكانوا كلهم يدارون الطاغية ويتقونه بالجزى "[1] . على انه لم يكتف بما كان قد فرضه عليهم من الضرائب العالية بل اخذ يحاربهم ويحاول الاستيلاء على دويلاتهم .

وكانت طليطلة اول مدينة استولى عليها الاذفونش وذلك سنة ٤٧٨هـ[2] (١٠٨٥م) . ويمكن ان تعد هذه السنة وهذه الغزوة الاولى من قبل المسيحيين نقطة التحول في تاريخ الاندلس العربي عامة وتاريخ اشبيلية خاصة ، اذ ان المعتمد كان بين اوائل ملوك الاندلس الذين اعتدى عليهم الاذفونش وكان سببا في انتهاء امرهم .

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٨

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦١ .

موقعة الزلاقة وافول نجم المعتمد ابن عباد

كان الاذفونش ابن فرندناند ملك قشتاله وليون واحد كبار ملوك الاقاليم الاسبانية النصرانية في شمال الاندلس ، قد افاد من ضعف ملوك الطوائف الاسلامية وانقسامهم على انفسهم وتفرقهم شيعا وطوائف ، فزاد في قوته ووسع ممتلكاته ، وشجعه على ذلك ، بوجه خاص ، التجأ بعض ملوك الطوائف اليه وطلبهم نصرته ليعينهم على زملائهم الملوك الاخرين ، ولم يكن الاذفونش يخيب طلبات الملتجئين اليه ، لانه كان يتخذ من معونته لهم حجة لبسط نفوذه وتوسيع مملكته .

وكانت مدينة طليطلة من اولى المدن التي طمع بها الاذفونش . ويروى ان المعتمد عقد معاهدة بينه وبين الاذفونش سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٩م) ، تعهد فيها الاذفونش ان يمد صديقه المعتمد بالجنود المرتزقة ضد جميع اعدائه ، وتعهد المعتمد مقابل ذلك ان يدفع مقادير كبيرة من المال والا يعارض الاذفونش في فتح طليطلة [1] . وقد احتل الاذفونش طليطلة من صاحبها القادر بالله ابن ذي النون بعد ان حاصرها مدة سبع سنين كاملة وذلك في اواخر محرم عام ٤٧٨ هـ [2] (١٠٨٥م) .

وقد ازداد بأس الاذفونش بعد فتح طليطلة بوجه خاص ، نظرا لغنى

---

(١) كوندي ، ج ٢ ، ص١٩٢ ـ ١٩٣ ، اشباخ ، ج ١ ، ص ٦٠ وفي هذه المعاهدة تذكر الروايات النصرانية اللاتينية كما يستدل من اقوال المستشرقين ان المعتمد زوج ابنته من الاذفونش . على ان المصادر الاسلامية القديمة لا تذكر هذا ابدا ، وتنفيها المراجع العربية الحديثة نفيا باتا .

(٢) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص٩٢ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص١٦٤ ، المقري ج ٢ ، ص٦٧٥ .

تلك المدينة ووفرة امكاناتها ، هذا الى جانب الكسب المعنوي الذى غنمه الملك الاسباني بتحطيم مقاومة حصن كان من امنع الحصون الاسلامية في شبه الجزيرة الاندلسية . وكان ردالفعل الاول الذى حصل بعد ضم طليطلة لمملكة الاذفونش ، ان الاذفونش وقد نوى ان يستولي على كل دويلات الاندلس ، لم يعد يقنع بالجزية التي كان يستلمها من المعتمد ابن عباد ، وطالبه بالمزيد وكان المعتمد يدفع للاذفونش في كل سنة جزية معينة ليتقي بها شره ويبعد عن بلده اذاه . وهذا دليل على خوف الدويلات الاسلامية من الاذفونش ، اذ ان المعتمد كان اقوى ملوك دويلات الاندلس واصلبهم موقفا تجاه اعدائه ومع هذا كان يدفع الجزية صاغرا ، مع العلم بان دفع الجزية بحد ذاته دليل على خضوعه للاذفونش وتنازله عن استقلاله الكامل .

ويروى ان الاذفونش رفض الجزية التي ارسلها المعتمد كالعادة ، اثر سقوط طليطلة ، وارجعها اليه واشترط عليه ان يسلم اليه جميع الحصون المنيعة التي في حوزة المعتمد ، وان تتقلص مملكته فلا تشمل الا السهول ، والا هاجمه الاذفونش واحتل قرطبة (١) . فغضب المعتمد من قسوة هذه المطالب واضمر الشر للاذفونش ورسله الذين حملوا اليه الرسالة ، فوزع الرجال الخمسمئة الذين تألف الوفد منهم على قواده وامرهم بقتلهم جميعهم ، ففتك جنود المعتمد بهم ، ولم ينج منهم الا ثلاثة ، هربوا وعادوا الى سيدهم ورووا له ما فعله المعتمد باصحابهم .

---

(١) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٩٢ - ٩٣ ، النويري في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٧٥ - ٧٦ ، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية في دوزي ، رينهارت ، بيترآن ، محرر ، تاريخ بني عباد ، (ليدن ، لشتمان ١٨٤٦ - ١٨٦٣) ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

وكان الاذفونش قد خرج من طليطلة وسار نحو قرطبة ليقوم بحصارها وهذا دليل على ان الحرب التي نشبت فيما بعد بين المعتمد والاذفونش لم تكن حربا فجائية ، ولا كان قتل الرسل سببها الرئيسي ، اذ ان الاذفونش كان ينوي ان يحارب المعتمد وباقي ملوك الاندلس ، وكان قد استعد للحرب وسار لاشعالها من قبل ان يعلم باهانة موفديه وقتل معظمهم (١) ، ولكنه لما علم بما حل بهؤلاء الموفدين ، عاد الى مركز قيادته في طليطلة ليحضر معه ادوات حصار اضخم مما كان معه ، وقد ازداد رغبته في الفتك بالمعتمد (٢) . وهكذا فقد كانت حادثة اهانة رسل الاذفونش الشرارة الاولى التي اشعلت الحرب بينه وبين المعتمد .

وهناك تفاصيل اخرى لتحقيقة موقف المعتمد من رسل الاذفونش واعتدائه عليهم بالرغم من ادراكه خطورة ذلك ، فقد روى صاحب كتاب الروض المعطار ان الاذفونش استبطأ المعتمد في دفع الضريبة المفروضة عليه لانشغال المعتمد في حربه مع ابن صمادح صاحب المرية ، فغضب عليه وارسل يطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة المعهودة وخاطبه بقسوة . ولم يكتف الاذفونش بذلك بل ارسل يطلب الاذن بدخول امرأته التي تسميها الرواية بالقمجيطة ، الى الجامع الكبير في قرطبة واقامتها فيه مدة حتى تلد . ذلك ان امرأته كانت حاملا وقد اشار عليها

---

(١) يروى اشباخ ، ج ١ ، ص ٧٣ — ٧٤ ان الفونسو السادس سار بعد احتلال طليطلة في جيش ضخم من جليقية وليون وانتزع مدينة قورية من بني الافطس ووصل الى بسائط اشبيلية فاحرق قراها وسارت قوة من الفرسان الى شذونة ثم الى جزيرة طريف واحاطوا بقلعة سرقسطة المنيعة وشددوا عليها الحصار .

(٢) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٩٢ — ٩٣ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٦٧٦ .

كهنة لمدينتها واطباؤها ان تكون ولادتهافي ذلك الجامع بالذات [١] لانه شيد في موضع كنيسة قديمة ، كانت الى الجانب الغربي من بنائه [٢]. وربما كان لحسن مناخ مدينة قرطبة اثر في اقتراح الاطباء على امرأة الاذفونس بالاقامة فيها .

ويروى انه كان بين سفراء الاذفونش الى المعتمد وزير ماله الذى يسمى ابن شاليب اليهودى ، ويبدو انه كان وقحا فتطاول على المعتمد واغلظ له في القول واهانه واتهمه بتزييف المال ، مما اغضب المعتمد فضربه ضربة اودت به ، ثم امران يحمل الى الخارج ويصلب ورأسه الى اسفل ، وكان المعتمد واثقا من صواب ما فعله بدليل ان الفقهاء افتوا له بجواز قتل الرسول اذا تعدى حدود مهمته واساء التصرف [٣].

وهكذا قويت عزيمة الاذفونش لمحاربه المعتمد واقسم على الانتقام وجهز ضده جيشين وسار هو على رأس اولهما وكل امرة الثاني الى احد قادته . وتوجه الجيشان الى اشبيلية في طريقين مختلفين . وكان الجيشان يدمران في طريقهما كل ما يمران به الى ان وصلا اشبيلية ، واقاما على حصارها مدة طويلة . وقيل ان الاذفونش كتب اثناء الحصار الى المعتمد رسالة يتهكم عليه فيها ويقول ، " كثر

---

(١) تجد تفاصيل القصة في المقري ج ٢ ، ص ٦٧٧ - ٦٧٩ ، عن صاحب الروض المعطار .

(٢) كان الخليفة عبد الرحمن الناصر هو الذى بنى الجامع مكان الكنيسة وعني بالانفاق عليه وتشييد عمده بالرخام الملون والمرمر ، راجع المقري ، ج ٢ ، ص ٦٧٧ .

(٣) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٩٣ ، ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٣٩ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٩ ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٧٥ - ٧٦ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ ، المقري ج ٢ ، ص ٦٧٦ .

بطول مقامي الذباب واشتد علي الحر فاتحفني من قصرك بمروحة اروح بها عن نفسي واطرد بها الذباب عن وجهي " فرد عليه المعتمد بكلمات كتبها على ظهر رسالته قائلا : " قرأت كتابك وفهمت خيلاءك واعجابك وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك ان شاء الله تعالى ". ويختم صاحب هذه الرواية كلامه بان الاذفونش "عجب من شجاعة غريمه وان خبر تلك الشجاعة ذاع في الاندلس" (١).

على ان المعتمد ادرك عدم قدرته على مواجهة الاذفونش وحيدا ولم يكن سائر ملوك الطوائف قادرين على مساعدته ، لان الاذفونش كان قد اضعف معظمهم بالاستيلاء على كثير من ممتلكاتهم ، لذلك عزم على طلب المعونة من يوسف ابن تاشفين زعيم المرابطين في شمال افريقية . اما ملوك الطوائف لم يحبذوا ذلك وارسلوا اليه يحذرونه من مغبة ذلك ، اذ انهم خشوا ان يحتل ابن تاشفين بلادهم فيكونون بذلك قد نجوا من مخالب عدو ليقعوا في مخالب عدو اشد بأسا . الا ان المعتمد اجاب على تحذيراتهم بقوله الذى سار مثلا " رعي الجمال خير من رعي الخنازير" (٢)، اى ان الوقوع في يد ابن تاشفين المسلم خير من الوقوع بيد الاذفونش الاسباني المسيحي . وقال المعتمد ايضا ردا على تحذيراتهم : " يا قوم اني من امري على حالين حالة

---

(١) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٧٧

(٢) هكذا ورد القول في المقري ، ج ٢ ، ص ٦٧٨ . اما عند ابن المواعيني في دوزي ، ج ٢ ، ص ٨ ، فقد ورد كما يلي " اولى ان اكون راعي الجمال من ان اكون راعي الخنازير " . وقد تناقل المؤرخون هذين القولين . ومنهم من روى القصة دون ذكر هذا القول مثل ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٠٠ . **اما ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ ، فيورد قول المعتمد هكذا : " ولان يرعى اولادنا جمالهم احب الينا من ان يرعوا خنازير الفرنج " .**

يقين وحالة شك ، ولا بد لي من احداهما . اما حالة الشك فاني ان استندت الى ابن تاشفين او الى الاذفونش ففي الممكن ان يفي لي ويبقى على وفائه ويمكن ان لا يفعل ، فهذه حالة الشك ، واما حالة اليقين فاني ان استندت الى ابن تاشفين فانا ارضي الله وان استندت الى الاذفونش اسخطت الله ، فاذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء ادع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه " . ويروى ان اصحاب المعتمد اقتنعوا بكلامه وكفوا عن لومه (١) .

وكان الرشيد ابن المعتمد وولي عهده من جمله الذين حذروا المعتمد من مغبة التعاون مع زعيم المرابطين ، وقال لابيه : " يا ابت اتدخل علينا في اندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا " . الا ان المعتمد اقنعه مثلما اقنع زملاءه بوجوب الاعتماد على ابن تاشفين للخلاص من المسيحيين (٢) . ولم يكن الرشيد ولا كان ملوك الطوائف مخطئين في تخوفهم من ابن تاشفين ، فقد اثبتت الحوادث ، فيما بعد صحة شكهم .

وجاء في بعض المصادر ان رؤساء الاندلس ، لما رأوا الخطر محدقا بهم تشاوروا فيما بينهم واتفقوا على الاستنجاد بابن تاشفين (٣) . ويظهر ان ملوك الطوائف كانوا من هذا الرأي على فئتين منهم من كان يريد طلب ابن تاشفين

---

(١) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٧٨

(٢) ابن الخطيب ، الحلل الموشية في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٣) ابن ابي دينار ، محمد ابن ابي القاسم ، كتاب المؤنس في اخبار افريقية وتونس ، (تونس ، دار الطباعة التونسية ، ١٢٨٦ هـ) ، ص ٩٩ .

ومنهم من كان يخاف ذلك . وقيل في روايات اخرى ان اول من ارتأى الاستنجاد بابن تاشفين الفقهاء الذين خافوا ان تقوى النصرانية بالاندلس فارادوا ان يستفزوا مسلمي مراكش ليصدوا العدوان (١). ورحب الكثيرون وبينهم المعتمد بهذا الرأى .

الف المعتمد وفدا من ثلاثة من قضاة المسلمين بالاندلس من بطليوس وغرناطة وقرطبة واضاف اليهم وزيره ابا بكر ابن زيدون ، وارسلهم الى يوسف ابن تاشفين لطلب معونته . وقد ارسل معهم كتبا يشرح فيها وضع الاندلس ويرغبه في الجهاد ، مع ان ابن تاشفين لم يكن بحاجة كبيرة الى الترغيب ، لان وفود المدن الاندلسية الاخرى التي سقطت امام جحافل النصارى والتي كانت على وشك السقوط ، كانت توافي عاصمته يوما بعد يوم طالبة منه العون باسم الله والاسلام . لذلك لقي ابن تاشفين وفد المعتمد بالترحاب ، وتباحث الفريقان ورجع الوفد الى اشبيلية يحمل قبول ابن تاشفين مساعدة دول الاندلس . ولكن ابن تاشفين بعث رسالة الى المعتمد يشترط عليه فيها ان يعطيه الجزيرة الخضراء قبل ان يدخل الحرب معه (٢). وقد حذر الرشيد اباه ثانية من قبول طلب ابن تاشفين نظرا لحصانة موقع الجزيرة الخضراء ، ولكن المعتمد قال له : " يابني هذا قليل في حق نصرة المسلمين " (٣).

ثم ان المعتمد امر ابنه يزيد الراضي الذى كان حاكما للجزيرة الخضراء اذ ذاك ، ان يخرج عنها لاميرالمسلمين . وهكذا جاز ابن تاشفين الى الاندلس متوجها بجنوده نحو الجزيرة الخضراء لتكون مقر جيوشه ومعسكراته . وقد رحب بابن

---

(١) النويري في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٣٣

(٢) هي في جنوبي الاندلس على مضيق جبل طارق

(٣) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

تاشفين وجنوده عمال البلاد واهلها وكان المعتمد قد امرهم بذلك . وخرج المعتمد بنفسه للقاء ابن تاشفين في ضواحي اشبيلية ومعه مئة فارس ووجوه البلد واسرع المعتمد ويوسف عند اللقاء الواحد نحو الاخر وتعانقا وتعاهدا على العمل المشترك. وكان المعتمد قد ارسل اليه ما اعده له من هدايا وتحف وضيافات ، ثم عاد كل منهما الى مركز قيادته وتوافد الى محلة يوسف جموع من ملوك الاندلس ورؤسائه قدموا له هداياهم وقد جاءوا مع جيوشهم للمساهمة في الجهاد الديني (١).

وعلم الاذفونش بخبر استنفار المسلمين من عموم البلاد الاندلسية وتحالفهم مع مرابطي مراكش ، فاحتذى حذوهم واعلن النفير في الممالك المسيحية وارسل كهنته وقسيسيه يدعون الشعوب الى الجهاد ضد المسلمين (٢). ثم ارسل الى امير المسلمين كتابا يغلظ له بالقول ويتباهى بقوته ، الا ان ابن تاشفين اكتفى بان كتب على الرقعة ذاتها ، " الذي يكون ستراه " (٣) ويقال " ان يوسف ابن تاشفين بعث للاذفونش كتابا على مقتضى السنة يعرض عليه الدخول في الاسلام او الحرب او الجزية ، فلما سمع الاذفونش ذلك جاش بحر غيظه وزاد في طغيانه واقسم ان لا يبرح من موضعه حتى يلقاه " (٤) .

---

(١) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨٠

(٢) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨١

(٣) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٩٩ - ١٠٠

(٤) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٩٦ .

وهكذا استعد الفريقان للحرب ، وحشد الفونسو ، المعروف بالاذفونش ، قوات عظيمة من جليقية وليون وبسكونية واشتبورس وقشتالة ومن الاراضي الاسلامية التي فتحت اخيرا ، ووفد في الوقت نفسه لنجدة النصارى الاسبان سريات من الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية (١).

وتختلف الروايات الاسلامية في عدد جنود الاذفونش ولكنها جميعها تبالغ في ذلك حتى يوصله بعضهم الى ٣٠٠ الف . كذلك تبالغ الروايات الاسلامية في الخفض من عدد الجنود المسلمين (٢). ويقول المراكشي ان جيش المسلمين كان عشرين الفا فقط (٣).

اما الرواية النصرانية فانها تلتزم الصمت ازاء عدد النصارى المحاربين ولكنها تقدر عدد الجيش الاسلامي " ببضع مئة الف او تقول انه كان لا يحصى عديده كجيش من الجراد المنتشر " (٤).

على ان ما يمكن استخلاصه من الروايات جميعها هو ان عدد النصارى كان اكثر من عدد المسلمين . هذا ، وتحفل كتب التاريخ والادب التي تناولت خبر الزلاقة بالقصص والمبالغات عن تلك الموقعة فمن ذلك ما يروى ان الاذفونش شاهد

---

(١) اشباخ ، ج ١٠ ، ص ٨٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٨ ، ابن ابي دينار ص ١٠٤ ،
ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٠١ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨١

(٣) المراكشي ، ص ١٣٣

(٤) اشباخ ج ١ ص ٨٤

نفسه في منامه وهو راكب على فيل وبيده طبل ينقر عليه ، فلما عرض الرؤيا على مستشاريه عجزوا عن حل رموزه ، فجاءه رجل مسلم واولها حسب الآية القرآنية ، " الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل " والآية " واذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير " . وتنبأ المنجم المسلم بهلاك جيش الاذفونش ومقتله وجنوده الا ان الاذفونش هزئ بكلام المنجم وجمع جيشه وقال له " بهذا الجيش القى محمدا صاحب كتابكم " (١). ومن الطريف ان الروايات تخبرنا ان المعتمد كان في الوقت نفسه يسأل منجمه عن طالعه في المعركة . وكان رأى المنجم في بادئ الامر ان الواقعة ستكون على المسلمين ، ثم بدا له بعد مدة انها ستكون لهم وسيربحون القتال (٢).

ولما استعد الفريقان للحرب سار المسلمون وعلى رأسهم يوسف ابن تاشفين والمعتمد حتى وصلوا الى مكان في ظاهر بطليوس على مقربة منها . وعسكر جيش المسلمين هناك في الموضع الذى يسمى في الروايات العربية بالزلاقة (٣) وتسميه الروايات النصرانية سكر الياس . وكان المعتمد يسير في مقدمة الجيش بامر من ابن تاشفين . اما الاذفونش فقد عسكر في سفح جبل لا يبعد كثيرا عن معسكر المسلمين في مكان يشرف على معسكر المعتمد لكنه لا يرى معسكر المرابطين ، وكان قدومهم يوم خميس . واتفق الطرفان على عادة حروب تلك الازمان على ميعاد القتال ، واختار الاذفونش

---

(١) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٩٩ - ١٠١ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨١ - ٦٨٢ .

(٢) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ١٩٧

(٣) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٠١ ، النويري ، في دوزي ج ٢ ، ص ١٣٥ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨٤ .

يوم الاثنين للنزال ، نظرا لاعتبار ايام الجمعة والسبت والاحد ايام اعياد عند المسلمين واليهود والمسيحيين (١). الا ان الاذفونش غدر بالمسلمين وهاجمهم صباح الجمعة الموافق للثاني عشر من رجب سنة ٤٧٩ هـ (٢) (١٠٨٦ م) ، واحاط بعسكر العدو واخذ يفتك بجنود المسلمين حتى كاد يقضي عليهم وقد انزل الرعب في قلوب ملوك الطوائف فتراجع كثير منهم بجنودهم . ولكن المعتمد اظهر بطولة نادرة وصبرا عجيبا ، فقد صمد في القتال بالرغم من تأخر ابن تاشفين عن نجدته وتعرضه لسهام الاعداء وقد اصيب بجراحات شديدة وهو ينازل الاعداء ويروى انه كان ينشد اثناء حتدام المعركة :

ابا هاشم هشمتني الشفار ... فلله صبري لذاك الاوار

ذكرت شخيصك تحت العجاج ... فلم يثنني حبه للفرار

وابو هاشم كنية لابن صغير له كان مغرما به وقد تركه في اشبيلية عليلا (٣).

وظل القتال شديدا على المعتمد وجنوده حتى وافاه ابن تاشفين بجنوده ، ولكنه لم يذهب الى القتال معه بل هاجم معسكر الاعداء ، مما جعل المقاتلين في ساحة المعركة يسرعون الى نجدة معسكرهم ، وحمي وطيس القتال وقد عاد

---

(١) المراكشي ، ص ١٣٤ ، النويري ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٣٥ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨٠ .

(٢) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ ، وهذا هو التاريخ المرجح مع ان بعض الروايات الاسلامية تقول غيره .

(٣) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨٤

الفونسو تاركا مطاردة الاندلسيين الى معسكره ، ولكن يوسف ورجاله كانوا يحاربون مستبسلين ، واهلكوا خصومهم الذين تولاهم الذعر فانسحبوا لا يلوون على شيء . وحاصرهم المعتمد من جهة وابن تاشفين من جهة اخرى واعملوا فيهم السيف ، ولم ينج منهم الا عدد قليل فروا ومعهم الاذفونش الذى اصابته طعنة شديدة في فخذه . وفي بعض المصادر ان عدد الناجين كانوا اربعمئة او خمسمئة فقط (١).

ويشيد المؤرخون المسلمون باخبار النصر الذى احرزته جيوش الاندلس والمرابطين في هذه المعركة ، ويبالغون في الكلام عن عدد القتلى من الاعداء ، حتى قالوا ان المسلمين بنوا من الرؤوس كوما كبيرة رصفت كالتلال العالية ، وكانوا يؤذنون عليها الى ان جيفت فاحرقوها . وقيل ان الرؤوس بلغت اربعة وعشرين الفا . وغنم المسلمون ما خلفه القتلى والجنود الهاربون من الاموال والسلاح والمؤن والحيوانات ومناطق الذهب والفضة (٢). ومما لا شك فيه ان عدد القتلى من الفريقين كان كبيرا .

وقد اهتزت الاندلس فرحا وزهوا بهذا النصر ، وكتب ابن تاشفين الى مراكش يخبر بالنصر الذى احرزوه كذلك كتب المعتمد الى ابنه الرشيد في اشبيلية يصف له

---

(١) راجع تفاصيل معركة الزلاقة في المصادر الاتية :
ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٩٤ - ٩٥ ، ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، المراكشي ص ١٣٢ - ١٣٥ ، النويري ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٣٤ - ١٣٦ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ج ٢ ، ص ١٩٦ - ٢٠١ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨٠ - ٦٨٤ .

(٢) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٠٢ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٩٩ - ٢٠١ .

المعركة ويخبره بالنصر، وقد قرئت الرسالات في الجوامع على الناس. ومما قاله المعتمد في رسالته لابنه: " قد اعز الله الدين ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين وهزم الكفرة والمشركين ". ويخبره بقتل ابطال العدو وحماته ويقول " حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها، فلله الحمد على جميع صنعه، ولم يصبني والحمد لله الا جراحات يسيرة آلمت لكنها فرجت " (١).

هذه هي المعركة المعروفة باسم معركة الزلاقة، وهي من الحروب المهمة في تاريخ العرب في الاندلس، غير انها لم تكن معركة فاصلة، مع انها حفظت كيان المسلمين مدة طويلة وارجأت عملية اخراجهم عن الاندلس التي حاول الاذفونش تحقيقها حتى اواخر القرن الخامس عشر. وربما تبدل الوضع لو ان يوسف لحق بالمنهزمين ولم يكتف بطردهم من ارض بطليوس، وتعقبهم الى حصونهم نفسها. ويروى انه قال لرجاله بعد ان هرب الاذفونش ورجاله، " الكلب اذا ارهق لابد ان يعض وقد سلم الله المسلمين من معرته ولم يقتل منهم الا القليل فان هجمنا على هؤلاء، ابلوا بلاء عظيما، ولكن اتركوهم ولاحظوا حالهم " (٢) وقيل ان ابن تاشفين اضطر ان يرجع الى مراكش اثر سماعه خبر وفاة ابنه هناك (٣).

ولما اراد ابن تاشفين الرجوع الى مراكش شيعه المعتمد بعض المسافة، ثم رجع بعد ان تورمت جراحه وظل ابنه عبد الله في صحبة السلطان حتى ركب البحر

---

(١) ابن الخطيب، الحلل الموشية، في دوزي، ج ٢، ص ٢٠٠، المقري ج ٢، ص ٦٨٧.
(٢) ابن الخطيب، الحلل الموشية، في دوزي، ج ٢، ص ١٩٩
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٠

الى مراكش . اما المعتمد فانه لما دخل اشبيلية اقبل الناس عليه للتهنئة والتف حوله الشعراء وانشدوه ما نظموه بتلك المناسبة (١). وكان من الذين وفدوا على المعتمد يهنئونه ويمدحونه عبد الجليل ابن وهبون الذى قال من قصيدة مطلعها :

اظن خطوبها قالت سلام ... فلم يعبس لها منك ابتسام

ومنها يصف المعتمد وحسن بلائه في المعركة وهزيمة الاعداء :

فثار الى الطعان حليف صدق ... تثور به الحفيظة والذمام

فهيل به كثيب الكفر هيلا ... وكل رقيقة منها ركام

واصبح فوق ظهر الارض ارضا ... كأن وهادها منهم اكام

عديد لا يشارفه حساب ... ولا يحوى جماعته زمام

الى ان يقول في الاذفونش :

فان ينجو اللعين فلا كحر ... ولكن مثل ما تنجو اللئام

فيا اذفنش يا مغرور هلا ... تجنبت المشيخة يا غلام

ويختمها بمدح المعتمد والدعاء له

وانت النعمة البيضاء فاسلم ... لنا وليطرد فيك التمام (٢)

هذا ويروى عن ابن وهبون انه قال : " حضرت ذلك اليوم واعددت قصيدة انشدها بين يديه فقرأ القارئ ، "الا تنصروه فقد نصره الله" فقلت : بعدا لي ولشعري والله ما ابقت لى هذه الآية معنى " (٣)

---

(١) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨٥ - ٦٨٦

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٥

(٣) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨٦ - ٦٨٧ .

على ان هزيمة الزلاقة لم تبعث اليأس في قلب الفونسو بل عاد يحشد جيوشا جديدة ليحارب المدن الاسلامية في الاندلس مرة اخرى . وقد اخذت جيوش النصارى توالي الغارات على الحصون الاسلامية ، وكان يحارب الى جانب القشتاليين قائد مسيحي يسميه المؤرخون العرب السيد الكنبيطور [1] ، فاحتلوا بلنسية واغاروا على مرسية وضواحي لورقة وبسطة وتحصنوا في لبيط [2]. وكان لبيط حصنا منيعا ذا مركز ستراتيجي ، على رأس جبل عال يشرف على الطريق بين مرسية ولورقة .

ولم يكن المسلمون في وضع يمكنهم من الدفاع عن ديارهم والصمود في وجه تلك الغارات التي تحولت الى حملات احتلال دائم فتطلعوا ثانية الى سيد مراكش ، الذي سبق له ان انجدهم ، وارسلوا اليه يعرضون عليه ظلاماتهم ويستنجدونه على اعدائهم ويحثونه على الجهاد العاجل . ومع ان يوسف وعدهم بالجواز اليهم في السنة المقبلة الا ان المعتمد ركب البحر اليه بنفسه ولاقاه في وادي سبوا وعرض مطلبه قائلا : " جئتك احتسابا وجهادا وامتعاضا للدين وقد اجرى الله الخير على يديك وحظك مما جئت به الاوفر ، وقد اشتد ضرر النصارى على حصن لبيط وعظم اذاه بالمسلمين لتوسطه بلادهم . ولا جهاد اعظم منه اجرا ولا اثقل في الميزان وزرا "[3] وقد قبل يوسف عرض المعتمد وملوك الاندلس وتعهد بالخروج .

---

(١) هو الفارس الاسباني رودريغو دياز (١٠٤٠-١٠٩٩) المعروف بالسيد والكامبياد ور (اي البطل) ، الذي حيكت حول بطولته اساطير شعبية وروايات ادبية كثيرة

(٢) تسمي الرواية العربية حصن اليد و لبيط وليط . راجع المراكشي ، ص ١٣٢ ، ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٠١ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ج ٢ ، ص ٢٠١ ، نيكل ص ٧٢ .

(٣) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٢٠١

وهكذا سارت جيوش المرابطين ثانية نحو الاندلس سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨م) ولاقتهم جيوش الاندلس بعد ان طلب منهم ابن تاشفين ان يوافوه الى اقليم مرسية عند حصن لبيط ، فوافاه المظفر ابن بلقين صاحب غرناطة واخوه تميم صاحب مالقة والمعتصم ابن صمادح صاحب المرية وكذلك فعل امراء شقورة وبسطة وجيان وتلاقوا جميعهم حول حصن لبيط الذى جعله ابن تاشفين هدف الحملة الرئيسي .(١).

وكان المسيحيون يعتصمون بالحصن وهم حسب تقدير الرواية الاسلامية نحو الف فارس واثني عشر الف راجل ، اما المهاجمون المسلمون فلم يصل لنا احطء بعددهم . وكان المهاجمون يتناوبون القتال فكان كل امير يخرج في يوم اوليل ويقاتل حسب استطاعته . ودام القتال شهرا دون ان ينال المسلمون نصرا وادرك ابن تاشفين والمعتمد استحاله التغلب على المعتصمين داخل الحصن لمناعته وتبين لهما ان الطريقة الوحيدة لكسر شوكة اعدائهم هي في محاصرة الحصن اطول مدة ممكنة وقطع القوت والمدد عمن فيه الى ان يلجأ هؤلاء الى الاستسلام ، ولكن يظهر ان الحصار لم يكن محكما ، فنفهم من هذه الرواية نفسها ان المقيمين في الحصن استنجدوا بسلطانهم فارسل اليهم جشدا كبيرا وتأهب لدخول الحصن بنفسه ، فظن يوسف ان من الافضل ان يفسح لغريمه المجال ليدخل الحصن حتى يحاصره هو ايضا ويحاصر من معه من جنود الحصن الجياع المرهقين ، الا ان ملك الروم كان احذق منه فوصل الحصن ولكنه لم يدخله انما اخرج الجنود الذين فيه وامر بتقويض اسواره واحراقه ، وانسحب الى مراكزه البعيدة (٢) وهناك من

---

(١) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٢٠٢
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣

يعتقد ان انسحاب الروم المفاجيء وعدم خروجهم لقتال المسلمين كان بسبب النكبة التي حلت بهم في واقعة الزلاقة (١).

وهكذا انتهت حملة ابن تاشفين الثانية على الاندلس دون ان يحصل على انتصار حاسم . ويظهر ان الرجل لم يحصر اهتمامه بالمناطق المسيحية بل كان يطمع بالدويلات الاسلامية نفسها ، وقد نبه الفقيه ابو عبد الله الحميري صاحب الروض المعطار الى طمع يوسف بالاندلس فذكر ان يوسف ابن تاشفين بعد ان ملك الغرب واخضع القبائل البربرية تاقت نفسه الى العبور الى الاندلس واخذ في انشاء المراكب والسفن ليعبر بها فلما علم ملوك الطوائف في الاندلس بذلك ، وكانوا مشغولين بحرب المسيحيين في الشمال من ممتلكاتهم ، تشاوروا فيما بينهم طويلا ، ثم كتبوا اليه ان يعرض عنهم ، فراجعهم بكتاب يطمنهم فيه فسروا بذلك وعزموا على استنجاده متى احتاجوا ذلك (٢).

لكن يوسف ابن تاشفين لم يدم على تعهده طويلا ، وبامكاننا اليوم ونحن ننظر الى تلك الحوادث التاريخية عن بعد وليس بايدينا الا القليل من المصادر التاريخية، التي ينقصها التحقيق والتجرد في معظم الحالات ، والتي تتركنا في غموض وشك بالكثير من تلك الحوادث - اقول بامكاننا ان نتوقع من رجل مثل يوسف ابن تاشفين وفي وضع مثل ذلك الوضع بالذات ، ان يطمع ببلاد الاندلس وان لا يعف عن احتلال مدن المسلمين بعد ان عجز عن احتلال مدن المسيحيين .

---

(١) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٠٢

(٢) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٧٤ - ٦٧٥

لقد ادرك يوسف ابن تاشفين ضعف كل دويلة من دويلات الاندلس وماكان يحتاج الى دليل على هذا اثبت من لجوء ملوك تلك الدويلات اليه عندما كان المسيحيون يتعرضون لهم ، وادرك كذلك انه لولا مساعداته للمسلمين وذبه عن حياضهم لتمكن المسيحيون من احتلال اراضيهم هذا ويقول ابن المواعيني في جملة عابرة له ان ابن تاشفين ، بعد واقعة الزلاقة "رجع الى العدوة وقد اعجبه مارآه في بلاد الاندلس" (١). ويقول راوية اخر انه "رجع الى مراكش وقد اعجبه حسن بلاد الاندلس وبهجتها وما بها من المباني والبساتين والمطاعم وسائر الاصناف التي لا توجد في بلاد العدوة ، اذ هي بلاد بربر واجلاف عربان ، فجعل خواص ابن تاشفين يعظمون عنده بلاد الاندلس ويحسنون له اخذها ويوغرون قلبه على المعتمد بانباء نقلوها عنه" (٢). وقد كان في هذا الاعجاب ما شجعه على التوسع في آماله والتعجيل في تحقيق ضم الاندلس ، البلد الغني الجميل ، الى مملكته في شمال افريقيا ، وهي المملكة الصحراوية التي تنقصها الثروة التي كانت الاندلس تعتز وتفاخر بها غيرها من بلدان العالم الاسلامي .

والحقيقة ان الاندلسيين لم يكونوا مطمئنين الى حملات ابن تاشفين على بلادهم ، بالرغم من تعاونهم معه ، وقد رأينا من قبل ان بعضهم انتقدوا ابن عباد لما عرفوا تفاهمه مع ابن تاشفين لمحاربة الاذفونش وشاركهم في الانتقاد والتخوف الرشيد ابن المعتمد . كذلك نجد في الروايات ان ابن تاشفين عزم على احتلال

---

(١) ابن المواعيني ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٠

(٢) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨٩ .

الاندلس منذ البدء وانه لم يطالب باخذ الجزيرة الخضراء [١] الا لتكون قاعدة له يقفز منها الى الاندلس ساعة يشاء .

ووجد يوسف الفرصة سانحة له لان يبدأ تركزه في الاندلس بعد ان غادر حصن لبيط دون ان يخسر من جيشه وعتاده الكثير . ولم يمكث طويلا بعد عودته الى بلاده ، حتى رجع الى الاندلس وفي نيته هذه المرة ان يستولي عليها . وكانت مدينة غرناطة اول مدينة دخلها ابن تاشفين ، ولم يدخل يوسف غرناطة كضيف ولا كمعين بل دخلها فاتحا، وغدر بصاحبها عبد الله ابن بلقين ابن باديس واحتلها وارسل اميرها سجينا الى مراكش . كذلك قبض على اخيه تميم ابن بلقين صاحب مالقة وارسله الى مراكش ايضا [٢]. وكان الاستيلاء على غرناطة سنة ٤٨٣ هـ[٣] (١٠٩٠م) .

لم يمكث ابن تاشفين في شبه الجزيرة الاندلسية طويلا فقد عاد الى مراكش بعد ان احتل غرناطة وتم له امر تأسيس قاعدة ثابتة في تلك المنطقة ليتخذها فيما بعد نقطة انطلاق يتوسع منها الى عموم الدويلات الاسلامية الواهنة القوى .

وفي عام ٤٨٤هـ [٤] (١٠٩١م) عبر جيش ابن تاشفين البحر المتوسط الى الاندلس مرة اخرى ، وهو العبور الذى انتهى باحتلال القسم العربي من الاندلس والقضاء

---

(١) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(٢) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤٠ ، ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١٨٧ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨٩ .

(٣) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٨٣ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٢٠٣

(٤) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٢٠٤

على حكم ملوك الطوائف وتأسيس مملكة المرابطين .

ومن يتتبع اسباب هذه الحملة في المصادر الاسلامية يحصل على اراء كثيرة مختلفة ومتضاربة ، ولكنها ترجع السبب في النهاية الى طمع ابن تاشفين بالاندلس وبخيراته وثرواته ، واستخفافه بقوة الحكومات القائمة فيه ، وهو ما بيناه من قبل . ولكن لا بد لنا من تلخيص بعض الاسباب التي اوردها هؤلاء المؤرخون نظرا لاهمية تلك الحملة بالنسبة لموضوع هذه الاطروحة وكونها الحملة التي انهت حكم المعتمد ابن عباد واخرجته من بلاده اسيرا شريدا كما سنرى فيما بعد .

ومن الواضح ان استيلاء ابن تاشفين على غرناطة بذلك الشكل السافر - حتى وان كان قول صاحب الحلل الموشية صحيحا ، من ان امير غرناطة عبد الله ابن بلقين هو الذي بادر ابن تاشفين بالعداء وقال فيه اقوالا اغاظته واحقدته عليه ، حتى حزم ابن تاشفين امره وقبض على ابن بلقين واخيه ونفاهما الى اغمات واستولى على مدينتيهما (١) - اقول ان ذلك الاستيلاء نبه باقي ملوك الطوائف الى نية حليفهم المراكشي واثار في نفوسهم الريب والشك بمقاصده ، حتى قال المعتمد وهو المسؤول الاول عن احضار يوسف الى الاندلس لزميله المتوكل ابن الافطس : " والله لا بد له ان يسقينا من الكاس التي اسقى به عبد الله ابن بلقين " قال هذا بعد ان زار الملكان المذكوران يوسف في غرناطة فوجدا منه اعراضا عنهما ولقيا تصرفا يختلف عما كان يقبلهما به من قبل (٢).

---

(١) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٤ .

وقد عاد ابن عباد الى اشبيلية واخذ في بناء اسوارها وتحصين قلاعها وشيد لها قنطرة مشهورة ، وهذا يعني ان المعتمد لم تجزعليه حيلة حليفه القديم الـــذى قيل انه ارسل اليه بعد ان وصل المعتمد اشبيلية رسالة قال فيها : " ماذا يريبـك من فعل فعلته مع جنسي ، ومن تركت بغرناطة انما يكون بحكمك وتحت امرك ونهيك مجيشين متى استنفرتهم مع جندك " (١) .

واحس الرشيد ابن المعتمد الذي كان قد نصحه من قبل بعدم الوثوق بابن تاشفين ، بالخطر ، مثل ابيه وقال له ، " الم اقل لك يا ابت يخرجنا هذا الصحراوي من بلادنا ان انت اوردته علينا" فقال ابوه : " يا بني لا ينجي حذر من قدر" (٢) .

ولا نخال المعتمد وهو في ذلك الوضع الا نادما على عدم سماع رأى مستشاريه وابنه وزملائه ولا بد ان قد زاد من ندمه ان احد رعاياه زاره ذات يوم اثناء اقامـــة ابن تاشفين في اشبيلية بعد انتهاء واقعة الزلاقة ونقل اليه اخبارا سمعها عـــن لسان ابن تاشفين ورجاله تدل على رغبتهم في احتلال اشبيلية بوجه خاص والاندلـس بوجه عام ، ومع ان المعتمد صدق كلامه الا ان احد ندمائه غير فكره واقنعه بعـــدم التنكر لابن تاشفين وخرق تحالفهما والنكث بوعده له (٣) .

وكان ابن تاشفين قد ترك في الاندلس ابن عمه واحد كبار قواده سيـــر ابن ابي بكر بعد انسحابه الى مراكش ، وعهد اليه بحماية الممالك الاسلامية والهجوم

---

(١) ابن المواعيني ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٠

(٢) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٢٠٤

(٣) تجد القصة كاملة في المقري ، ج ٢ ، ص ٦٩٠ - ٦٩٢

على المسيحيين كلما سنحت له الفرص. وقد قام الامير سير بواجبه خير قيام وتوغل في بلاد العدو، وأغار وسبى وقتل وارسل الى سيده في مراكش ما غنم من خيرات. هذا وقد بعث القائد سير الى السلطان يشكو من انفراده بالقتال دون ان ينال مؤازرة مسلمي الاندلس. وقد قال في رسالته لابن تاشفين: " ان الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب في اضيق العيش وانكده وملوك الاندلس في بلادهم واهليهم في ارغد العيش واطيبه ". وطلب منه ان يأمرهم بالتقدم. فارسل ابن تاشفين اليه ان يأمرهم بالقتال وقال له: " فمن فعل فذاك ومن ابى فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه وابدأ بمن والى الثغور ولا تتعرض للمعتمد الا بعد استيلائك على البلاد وكل بلد اخذته فول عليه اميرا من عسكرك " (١). وفي هذه الرسالة دليل على عزم ابن تاشفين على انهاء امر ملوك الطوائف، انما لم يشأ ان تذهب حملته بلاحجة لذلك جعل الجهاد الديني ضد المسيحيين سببا مباشرا لها.

ومن الحجج التي ذكرها المؤرخون لاحتلال ابن تاشفين الاندلس ان الفقهاء طالبوه لما كان في الاندلس بالغزوة الثانية ان يرفع المكوس والظلامات عنهم، ففعل ذلك ولكنه ما ان عاد الى مراكش حتى رجع ملوك الطوائف الى استبدادهم بالرعية (٢). اى ان ابن تاشفين كان يريد لحملته العتيدة ان تنال رضى الشعب، ويقطع الطريق على اعدائه الذين قد يثيرون الناس عليه بحجة التخلي عن وعوده بعدم احتلال الاندلس. ومما يؤكد هذه الرغبة عند ابن تاشفين انه قدم لحملته بالحصول

---

(١) المقري، ج ٢، ص ٦٨٧

(٢) ابن خلدون، ج ٤، ص ١٥٨.

على فتوى من علماء الاندلس تجيز له خلع ملوك الطوائف بما فيهم المعتمد وقتالهم ان عصوا اوامره [١]. قيل انه استفتى علماء الاندلس فكلهم افتاه بخلعهم اى خلع امراء الاندلس وقالوا له : " نحن خصماؤك عند الله لان هؤلاء لا تجوز طاعتهم لما ارتكبوه من الفجور وانتهاك المحارم وضيعوا غالب البلاد " [٢]. كذلك جاءت فتاوى اهل المشرق مثل الغزالي والطرطوشي بخلع ملوك الاندلس للسبب نفسه [٣].

ومهما يكن من اسباب حملة ابن تاشفين على الاندلس فان سير ابن ابي بكر بدأ بالاحتلال قبل ان يأتي سيده اليها ، واكتفى ابن تاشفين بالانتقال الى مرفأ سبتة في القسم الشمالي من مراكش ليكون غير بعيد عن شبه جزيرة الاندلس ، ومن هناك كان يصدر اوامره الى ابن عمه [٤].

وقد شرع سير بحملته ضد ملوك الاندلس بمهاجمة بني هود ، وكانوا اصحاب قلعة روطة الحصينة ، وقد تمكن من احتلالها بالحيلة بعد ان عجز عن فتحها . ثم هاجم سير بني طاهر في شرق الاندلس واحتل قلاعهم ، ثم توجه لحصار المرية وعليها المعتصم ابن صمادح واحتلها بعد ان مات صاحبها غما . ومن هناك سارت جيوش المرابطين الى بطليوس واسروا صاحبها المتوكل ابن الافطس [٥].

وفي رواية اخرى ان هذه الهجمات على البلدان المختلفة ، قام بها قواد اخرون غير سير ابن ابي بكر ، فقد امر ابن تاشفين وهو في سبتة ، ان يكون الهجوم

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١٨٧
(٢) ابن ابي دينار ، ص ١٠٥
(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١٨٧
(٤) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٢٠٣
(٥) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨٧

على بلدان الاندلس في اربعة جيوش . فقدم ابن عمه سير على عسكر وامره بمحاصرة ابن عباد باشبيلية وامره اذا ما فرغ من ذلك ان يتقدم الى بلد المتوكل ابن الافطس. وقدم قائدا اخر لينازل المأمون ابن المعتمد في قرطبة ، وسير جيشا ثالثا امره بمحاصرة المعتصم ابن صمادح . وقدم جيشا رابعا لينازل يزيد الراضي ابن المعتمد برندة وقد سار القواد بجيوشهم واحتلوا المدن جميعها (١) .

ويهمنا من هذه المعارك التي قضت على دويلات الاندلس معركة اشبيلية. فقد سار القائد المراكشي لاحتلال اشبيلية وحاصرها شهرا . وكان المعتمد قد تأهب لقتاله مع رجاله وحاول ان يقاتل المهاجمين ما استطاع لكنه لم يصمد امام وفرة قواتهم ودخل عليه في البلد ونقل المعتمد واهله الى مراكش (٢).

وقيل ان يوسف لم يسمح بخلع المعتمد بادىء الامر لانه كان قد اقسم بالا يغدره الا ان فقهاء اشبيلية وقضاتها احلوه من قسمه بحجة فسق المعتمد وفجوره وانه لو بقي هو وغيره من ملوك الاندلس لصار امرها للروم ، وعندئذ اعطى يوسف الاذن لقائد جيشه بحصار اشبيلية وخلع ملكها (٣).

على انه ليس من المستغرب ان يكون ابن تاشفين قد اوعز الى فقهاء اشبيلية باجراء مثل هذه الفتوى ، ولا من المستغرب ايضا ان يكون هؤلاء الفقهاء قد اصدروا فتوى كهذه لينالوا رضى سيد الاندلس الجديد الذى كانت كل الدلائل

---

(١) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥

(٢) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٨٧ - ٦٨٨

(٣) ابن عبد الحق الخزرجي ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٢٧

تشير الى انه سينجح في احتلال البلاد .

هذا وقد اتهم بعض مؤرخي الاسلام المعتمد بانه لما احس بهجوم المرابطين على اشبيلية راسل ملك الروم وطلب معونته ضد المرابطين الذين هددوا بلاده . وقد هرع جيش نصراني لمساعدته وانتصر على المسلمين في بادئ الامر الا ان الغلبة كانت في النهاية للمرابطين (١). ومع انه ليس من المستغرب ان يكون المعتمد قد استنجد بالمسيحيين ضد محاربيه الا انه يمكن تصديق الروايات الاخرى التي تقول ان النصارى هم الذين اتوا لمحاربة المرابطين من تلقاء انفسهم ، لانهم خشوا من تغلب المرابطين الاقوياء على الاندلس ، اذ ان ذلك يهددهم في عقر دارهم (٢).

وقد اسهب المؤرخون والرواة (٣) في وصف الساعات الاخيرة من جهاد المعتمد وصموده امام المهاجمين وكيفية اخراجه عن بلده ومملكته ، ويتفق معظمهم انه لم يسلم البلد بسهولة بل قاتل هو ورجاله كثيرا حتى غلبوا واضطروا الى التسليم وقد وصف ابن اللبانة الشاعر قتال المعتمد وبسالته في اواخر المعركة وصف شاهد عيان (٤) واورد ابن خاقان وصفا يشبه كلام ابن اللبانة في دفاع المعتمد عن بلده بنفسه قال : " ولما انتشر الداخلون في البلد واوهنوا القوى والجلد ، خرج والموت يتسعر في الحاظه ويتصدر من الفاظه وحسامه يعد بمضائه ويتوقد عند انتضائه فلقيهم في رحبة القصر

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٦٣ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٥٩٨ - ٥٩٩ . يذكر هذا ايضا اشباخ ، ج ١ ، ص ١٠٠ - ١٠١ نقلا عن مصادر مسيحية .

(٢) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٢٦

(٣) راجع ذلك في ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٤ - ٢٥ ، النويري في دوزي ج ٢ ، ص ١٣٦ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٨٢ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٥٩٩ .

(٤) المقري ج ٢ ، ص ٥٧٢ ، المراكشي ، ص ١٤٠ - ١٤١ ، راجع ص ٦٥ من هذه الاطروحة

وقد ضاق بهم فضاؤها وتضعضعت من رجتهم اعضاؤها فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقا وملأتهم فرقا ... وعاد الى قصره واستمسك به يومه وليلته مانعا لحوزته دافعا للذل عن عزته ... فانزل من القصر بالقسر الى قبة الاسر فقيد للحين " (١).

وقد كان خلع المعتمد واخراجه عن بلده يوم الاحد الحادي والعشرين من رجب سنة ٤٨٤ هـ (٢)(١٠٩١م) .

وامر تاشفين بنقل المعتمد وعائلته وحاشيته الى مراكش . وقد وصف ابن خاقان خروج المعتمد عن اشبيلية قال : " ثم جمع هو واهله وحملتهم الجواري المنشئات وضمتهم جوانحها كأنهم اموات بعد ما ضاق عنهم القصر وراق منهم العصر والناس قد حشدوا بضفتي الوادي وبكوا بدموع كالغوادي . فساروا والنوح يحدوهم والبوح باللوعة لا يعدوهم ، وفي ذلك يقول ابن اللبانة :

تبكي السماء بمزن رائح غاد ... على البهاليل من ابناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها ... وكانت الارض منهم ذات اوتاد
عريّسة دخلتها النائبات على ... اساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الامال تخدمها ... فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
يا ضيف اقفر بيت المكرمات فخذ ... في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويا مؤمل واديهم ليسكنه ... خف القطين وجف الزرع بالوادي

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص٢٤ - ٢٥

(٢) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٢٤ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص١٥٨ ، المراكشي ، ص ١٠٢ ، وتتفق معظم المصادر على هذا التاريخ .

الى ان يقول

نسيت الاغداة النهر كونهم في المنشئات كاموات بالحداد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق ازباد
حط القناع فلم تستر مخدرة ومزقت اوجه تمزيق ابراد
حان الوداع فضجت كل صارخة وصاخ من مغداة ومن فاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها كانها ابل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت تلك القطائع من قطعات اكباد "(١)

اخذ المعتمد واهله بعد اخراجهم من اشبيلية الى طنجة اولا (٢)، واقاموا فيها مدة ثم سير به الى اغمات التي بقي فيها المعتمد مأسورا حتى وافته المنية وفيها دفن (٣) وكانت حالته في اسره في منتهى السوء. وقد وصفها ابن الابار قائلا ان وفاته باغمات كانت على حال يوحش سماعها فضلا عن مشاهدتها (٤). ويقول ابن الاثير "ان يوسف ابن تاشفين فعل بهم افعالا قبيحة لم يفعلها احد قبله وذلك انه سجنهم ولم يجر عليهم ما يقوم بهم حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بالاجرة ينفقونها على انفسهم. فابان امير المسلمين في ذلك عن لؤم طباع وضيق نفس" (٥).

---

(١) ابن خاقان، القلائد، ص ٢٥، القصيدة موجودة ايضا في المراكشي، ص ١٤٨-١٤٩.
(٢) ابن الخطيب، الاحاطة، ج ٢، ص ٨٤، المقري، ج ٢، ص ٥٩٩.
(٣) ابن المواعيني، في دوزي، ج ٢، ص ١٠، ابن الابار في دوزي، ج ٢، ص ٦٣، ابن خلدون، ج ٤، ص ١٥٨.
(٤) ابن الابار، في دوزي، ج ٢، ص ٦٣
(٥) ابن الاثير، ج ١٠، ص ١٢٧.

ويذكر ابن الخطيب ان خطوبا كثيرة جرت على المعتمد في اسره لا يذكـــر منها الا حاجته للمال وموت زوجته اعتماد (١).

ولعل اسوأ ما يذكر عن نكبة المعتمد واذلاله هو وضعه في القيود فقد ذكـر انه اخرج من اشبيلية مكبلا مقيـدا (٢). ويقال ان ابن تاشفين شدد في تقييـده وامر ان يوضع في ثقاف من الحديد عندما سمع بثورة ابن للمعتمد اسمه عبد الجبار كان قد ثار في احد الحصون وانضم اليه جماعة ولوه على انفسهم . وفي وضعه في القيود يقول المعتمد ، وقد دخل عليه ابنه المكنى بابي هشام " وهو يرسف في قيوده ويتقلب في حديده فخنقت العبرة الطفل :

قيدى اما تعلمني مسلمـــا ابيت ان تشفق او ترحمـا
يبصرني فيك ابو هـــشام فينثني القلب وقد هشما" (٣)

ويظهر ان القيود كانت تحل عنه احيانا والى هذا يشير ابن اللبانة في قصيدة طويلة قالها في المعتمد وهو في سجنه باغمـات

قيودك ذابت فانطلقت لقـد غدت قيودك منهم بالمكارم ارحما
عجبت لأن لان الحديد وان قسوا لقد كان منهم بالسريرة اعلمـا (٤)

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٦٤
(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٥ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٦٤
(٣) ابن بسام ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣١٧ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٥٧٣
(٤) القصيدة طويلة فيها مدح للمعتمد موجودة في ابن بسام ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣٢٠ ، ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

وافضل ما يصف لنا حال المعتمد في سجنه الذي قضى فيه اربع سنوات مـا نظمه هو من اشعار رقيقة مؤثرة وصف فيها حاله بعد نكبته وما كابده في سجنـــه من ذل وألم ، وسيـأتي ذكرها في الكلام عن شعره .

وكانت وفاة المعتمد في ربيع الاول سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥م) بعد وفاة زوجته اعتماد بمدة قصيرة ، وكان قد جزع على وفاتها جزعا شديدا عجل بلحاقه بها[١].

وكان لنكبة المعتمد ووفاته على تلك الصورة اعمق الاثر في نفوس افراد شعبه فقد حزنوا عليه اشد الحزن وبكوه عندما رحل باحر الدموع ، وقد تبارى المؤرخـــون والرواة في وصف نكبته تلك وجزع الناس عليه وبكائهم يوم ودعوه [٢]. كذلك فقد اذكـت هذه النكبة قرائح الشعراء والكتاب فبادروا الى نظم القصائد التي ذكروا فيها المهم لمصيبة المعتمد ووصفوا تبدل حاله واكتفي بذكر ما قاله شاعر المعتمد ابن اللبانـــة الذى شهد النكبة عن كثب ولحق المعتمد الى اغمات وقضى معه مدة في منفاه فاستطاع بذلك ان يشعر بما يكابد المعتمد من ذل والم وله في ذكر ذلك قصائد عديدة[٣] منها تلك القصيدة التي مطلعها :

لكل شيء من الاشياء ميقـات وللمنى في منايا هن غايات

والتي يقول فيها :

انفض يديك من الدنيا وساكنها فالارض قد اقفرت والناس قد ماتوا

---

(١) ذكر خبر وفاته وتاريخها ابن بسام ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٦٣ ، ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤٤ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ص ١٦٤ ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٨٤

(٢) راجع ص ١٠٧ من هذا الفصل

(٣) راجع مثلا ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤٢

وقل لعالمها السفلي قد كتمت سريرة العالم العلوي اغمات

وفيها يصف قيود المعتمد يقول :

انكرت الا التواءات القيود به وكيف تنكر في الروضات حيات

غلطت بين همائين عقدن له وبينها فاذا الانواع اشتات

وقلت هن ذوءابات فلم عكست من رأسه نحو رجليه الذوءابات

حسبتها من قناه او اعنته اذا بها الثقاف المجد آلات

دروه ليتا فخافوا منه عاديه عذرتهم فلعدوى الليث عادات (١)

هذا وهناك شعراء كثيرون وصفوا نكبة المعتمد منهم الوزير ابن طريف (٢) ، وابن عبدون (٣) الشاعر وغيرهم .

وكان كثير من الشعراء والكتاب يكاتبون المعتمد وهو في سجنه باغمات بالنظم والنثر ويتوجعون له ويذمون الزمان واهله فمن ذلك ما قاله عبد الجبار ابن حمديس وكتبه اليه :

جرى لك جد بالكرام عثور وجار زمان كنت منه تجير

لقد اصبحت بيض الظبى في غمودها اناثا لترك الضرب وهي ذكور

ولما رحلتم بالندى في اكفكم وقلقل رضوى منكم وثبير

رفعت لساني بالقيامة قد اتت فهذي الجبال الراسيات تسير (٤)

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣٢ - ٣٤ ، ابن بسام ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ ، المراكشي ، ص ١٤٧ .

(٢) المقرى ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ - ٢٩١

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٨٠ - ٥٨١

(٤) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٢٨ ، النويرى ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ١٣٨

ولم يكتف شعراء المعتمد واصدقاؤه بمكاتبته ونظم القصائد وارسالها له بل زاره كثيرون منهم في منفاه "لا استجداء بل محبة ووفاء كشاعره ابن اللبانة الذى وفد على المعتمد في اغمات عدة وفادات" كان اثناءها يخفف عنه المه ويتساجلان الاشعار التي "سلا بها المعتمد وشفى نفسه" (١).

وقد زاره ايضا في منفاه في طنجة الحصري الشاعر المكفوف، قيل جاءه مستجديا وقيل كان معه كتاب الفه للمعتمد فكافأه المعتمد على ما قدم. وقد حذا حذو الحصري شعراء طنجة كلهم يقصدون نواله فكان يجيزهم على قدر استطاعته ويعتذر عن تقصيره (٢).

وزاره في اغمات ايضا الحجارى عم صاحب المسهب ومدحه وقد اخبر هو عن زيارته تلك قال "كنت ممن زاره بسجنه في اغمات وحملتني شدة الحمية له والامتعاض لما حل به ان كتبت على حائط سجنه متمثلا.

فان تسجنوا القسري لا تسجنوا اسمه

ولا تسجنوا معروفه في القبائل

ثم تفقدت الكتابة بعد ايام فوجدت تحت البيت" لذلك سجناه"

ومن يجعل الضرغام في الصيد بازه تصيده الضرغام فيما تصيدا

فما ادري من جاوب بذلك، ثم عدت له ووجدته قد محي واعلمت بذلك ابن عباد فقال:

---

(١) ابن خاقان، القلائد، ص٢٨٢. وقد كان ابن اللبانة هذا شاعر المعتمد المقرب وله فيه امداح كثيرة وذكر انه كان له تصانيف كثيرة في تاريخ بني عباد ونكبتهم نقل عنها معظم المؤرخين الذين تعرضوا لتاريخ بني عباد. راجع ترجمته في القلائد، ص٢٨٢ - ٢٩٠، المقرى، ج ٢، ص٥٧١، ابن شاكر الكتبي، ج ٢، ص٣٢٥.

(٢) ابن بسام، في دوزى، ج ١، ص٣١٢، المقرى، ج ٢، ص ٥٩٩.

صدق المجاوب وانا الجاني على نفسه . ولما اردت وداعه امر لي باحسان على قدر ما استطاع " ثم يورد ابياتا ارتجلها في مدح المعتمد وشكره (١).

ولم يقتصر التأثر والحزن هذا على اهل بلد المعتمد والمقربين اليه فقط بل تعدى ذلك الى اهل مراكش . فقد روى المؤرخون انه بعد موته بايام زار قبره شاعره ابن عبد الصمد ، " وكان ذلك في يوم عيد وقد انتشر الناس، فقام على قبره عند انفصالهم من صلاتهم وذهابهم الى قبور اهليهم وطاف بقبره والتزمه وخر على تربه فلثمه وقال :

ملك الملوك اسامع فانادي ... ام قد عدتك عن السماع عوادي
لما خلت منك القصور ولم تكن ... فيها كما قد كنت في الاعياد
اقبلت في هذا الثرى لك خاضعا ... وتخذت قبرك موضع الانشاد
قد كنت احسب ان تبدد ادمعي ... نيران حزن اضرمت بفوادي
فاذا بدمعي كلما اجريته ... زادت علي حرارة الاكباد

الى ان يقول

ما كان ظني قبل موتك ان ازر ... قبرا يضم شوامخ الاطواد
الهضبة الشماء تحت ضريحه ... والبحر ذو التيار والازباد

وهي قصيدة طويلة يذكر فيها ايام عز المعتمد ومجده . قيل ان الناس احتشدوا ليسمعوه " وبكوا لبكائه واعولوا واقاموا اكثر نهارهم مطيفين به طواف الحجيج ثم

---

(١) التيجاني في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ .

انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم " (١).

وقد جعلت تلك النهاية المؤلمة التي حلت بالمعتمد منه شهيدا تأثر له المؤرخون فمعظمهم يذكرون خلعه وموته بكثير من الاسى، وكما ان نكبته تلك اثرت في نفوس معاصريه فقد اثرت ايضا في نفوس من جاءوا بعده وقرأوا عنه وجعلت من قبره مزارا يقصده الناس. وقد زار قبره لسان الدين ابن الخطيب وانشد على قبره ابياتا يرثيه بها وذكر هو ذلك قال : "وقفت على قبر المعتمد ابن عباد بمدينة اغمات في حركة راحة اعملتها الى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار سنة ٧٦١ . وهو بمقبرة اغمات في نشز من الارض، وقد حفت به سدرة والى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك وعليها هيئة التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتها فانشدت في الحال :

قد زرت قبرك عن طوع باغمات ... رأيت ذلك اولى المهمات من

لم لا ازورك يا اندى الملوك يدا ... ويا سراج الليالي المدلهمات

ويسير في قصيدته يرثيه ويتوجع عليه (٢).

وزار قبر المعتمد المقري صاحب نفح الطيب بعد مدة تزيد على خمسمئة سنة من وفاته وها هو يذكر ذلك ويصف خواطره يقول : " وزرت انا قبر المعتمد باغمات سنة ١٠١٠ فرأيته في ربوة حسبما وصفه ابن الخطيب ، وحصلت لي في ذلك المحل

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣٤ - ٣٥ ، والقصيدة موجودة في النويري ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٣٨ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٦٥ - ١٧٠ ، المقري ، ج ٢ ص ٥٧٩ .

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، المقري ، ج ٢ ص ٥٨٠ .

خشية واذكار وذهبت بي الافكار في ضروب الآيات فسبحان من لا يبيد ملكه " (١).

هكذا كانت نهاية المعتمد ، مأساة من اروع مآسي التاريخ ، خلدها المؤرخون والشعراء بكل ما تركت في نفوسهم من حزن والم ، كما خلدت هذه النهاية المؤلمة صاحبها كشاعر مرهف الحس صادق العاطفة ، اذ ان المعتمد نظم اجود شعره في اثناء محنته ، ولعله لم يكن ليعرف كشاعر لو لم تذكه النكبة قريحته وتسيل شاعريته .

---

(١) المقرى ، ج ٢ ، ص ٤٨٩ وص ٥٨٠ .

المعتمـــــد الشـــاعـــر

توطئة في الشعر الاندلسي

عني عرب الاندلس بالشعر كما عني به عرب المشرق وانتشر عندهم انتشارا عظيما ، ولبث منتشرا زهاء ثمانية قرون بين الخاصة والعامة من العرب ومن سكان البلاد الاصليين الذين استعربوا ، وقال الشعر الملوك والامراء والوزراء كما قاله وحفظه عامة الناس . كذلك عني بالشعر نساء الاندلس وكان بينهن شواعر كثيرات . وكانت صناعة الشعر امرا ضروريا لمن يريد ان يتصل بالملوك ويجتمع بهم ، اذ كان كثير من ملوك الاندلس يقولون هم انفسهم الشعر ويشجعون من يقوله ويجيزون الشعراء ويفتحون لهم ابواب قصورهم . فقد وصلنا عن اول امراء الاندلس عبد الرحمن الداخل شعر رقيق جزل ، كذلك اولع بالشعر ونظمه خلفاء بني امية احفاد عبد الرحمن الداخل ويكاد لا يكون بينهم من لم يورد له المؤرخون شعرا ولو ابياتا قليلة . واهتم ملوك الطوائف بتشجيع الشعراء عن طريق اغداق الجوائز عليهم وعقد مجالس خاصة لهم ، كما تنافسوا في ضم الادباء والشعراء اليهم يتباهون في ذلك حتى قيل ان احد شعراء ملوك الطوائف " بلغ به ما رآه من منافستهم في امداحه ان حلف لا يمدح واحدا منهم الا بمئة دينار وان المعتضد ابن عباد على شهرته وافراط هيبته كلفه ان يمدحه فابى حتى يعطيه ما شرط في قسمه " (١). ولم يكتف ملوك الطوائف بهذا التشجيع بل ان منهم من زاحم الشعراء في صناعتهم وكان بينهم من اثر عنهم شعر رائق وشعر غزير .

---

(١) المقرى ، ج ٢ ، ص ١٢٨

وافرد لهم المؤرخون ابوابا في ترجماتهم اوردوا فيها اشعارهم ، نذكر من هؤلاء ملوك بني عباد والمعتصم ابن صمادح والمتوكل ابن الافطس .

ومع ان الاندلسيين اعتنوا بالشعر عناية كبيرة وانتشر بينهم انتشارا واسعا ، فانهم لم يجددوا فيه ولا يمكن ان نقول انهم وصلوا فيه الى ما وصل اليه شعراء المشرق من حيث الاغراض والعمق في الافكار والمعاني . ذلك انهم كانوا في معظم ادوارهم الادبية والشعرية مقلدين لشعراء المشرق يرون فيهم المثل الاعلى للفن الشعري . وكان هذا التقليد جليا في بدء العصور الاندلسية اذ جاء الشعر بصبغته البدوية ، فكان الشعراء يرجعون باساليبهم وافكارهم الى الاساليب والافكار البدوية ، كذلك ظلوا يميلون باخيلتهم وتصاويرهم الى مثل ما كان يميل اليه شعراء المشرق . وبقي الشعر المشرقي انموذجا لهم في الصناعة والخيال ، فكان بعضهم يحيا مع المشرقيين في المعاني والالفاظ ويحذو حذو الشعراء الجاهليين في الاستهلال بالوقوف على الاطلال والتزام الغزل في بدء القصائد ووصف الليل والنجوم والبوادي والاسفار والخيل وغيرها من مواضيع الجاهليين ويتعمد في ذلك كله قديم الصور وغريب الالفاظ كما كان بعضهم في العصور المتأخرة يقلد الشعراء العباسيين .

ومما يدل على اجلالهم للفن الشعري في المشرق واعجابهم بشعرائه ان اقصى ما كان يطمح اليه الشاعر الاندلسي هوان يشبه بشاعر مشرقي ويسمى باسمه فشبهوا ابن هاني بمتنبي المشرق ، ولقب ابن زيدون ببحتري المغرب .

هذا وكان الشعر في الاندلس من حيث المواضيع والاغراض ايضا يحذو

حذو الشعر في المشرق فقد نظم شعراء الاندلس الشعر في اغراض المشرقيين من مدح وهجاء ورثاء وفخر وحكم وزهد وغزل بالجنسين ووصف للخمر وللطبيعة ، كما نظموا في التاريخ والعروض والنحو والصرف والفقه ونظموا في الفلسفة والاجتماع ، الى ما هناك من اغراض سبقهم اليها شعراء المشرق . ولعل من حق الاندلسيين على كل من يتناول شعرهم بالبحث ان يذكر لهم اعتناءهم برثاء الممالك والدول الزائلة اعتناء جاء فيه بعض من جيد قصائدهم . ويمكن ان يقال انهم بزوا المشرقيين في هذا الفن . ونذكر هنا على سبيل المثال قصيدة ابن عبدون في رثاء بني الافطس التي مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر فما البكاء على الاشباه والصور (١)

ودالية ابن اللبانة في رثاء بني عباد ومطلعها :

تبكي السماء بحزن رائح غاد على البهاليل من ابناء عباد (٢)

ولعل هناك ما يبرر تقليد الشعراء الاندلسيين لشعراء المشرق ومجاراتهم لهم في الاغراض ذلك انهم كانوا قريبي العهد ببلاد المشرق . واستمر اختلاطهم بهم عن طريق وفود هؤلاء الى الاندلس وزيارات اهل الاندلس المتواصلة لبلدان المشرق . غير ان هذا التقليد وهذه المجاراة خفت شيئا فيما بعد القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) وجاء في الشعر الاندلسي شيء من المعاني المبتكرة والخيالات الجديدة لا سيما في الوصف ، وذلك بسبب تعود الشعراء

---

(١) راجع القصيدة في المراكشي ، ص٧٦ - ٨٧ ، المقرى ، ج ١ ، ص٢٨٩

(٢) راجع القصيدة في ابن خاقان ، القلائد ، ص٢٥ - ٢٦ .

طبيعة الاندلس المختلفة عن

على طبيعة بلاد الشرق وتأثرهم بذلك ونظرتهم الجديدة الى الرياض والبساتين والانهار والاشجار والمباني والاحواض والنوافير والبرك وغيرها من مظاهر الطبيعة وما استلزمته اسباب المدنية والعمران في الاندلس. فتغنى الشعراء ببلدانهم ومناظرها وجمالها، وكانوا يحاولون في وصف تلك المظاهر ان يشقوا طريقهم الى الجديد في التعبير والتصوير. وقد وفقوا في ذلك بعض التوفيق، غير انهم كانوا في معظم شعرهم قليلي الاختراع والعمق في معانيهم الشعرية يقتصرون على المعاني القريبة المتناول التي تخطر بكل بال والتي عرضت في شعر اخوانهم شعراء المشرق، وان كانوا احيانا قد غيروا في تلك المعاني وجددوا في صياغتها (١).

اما اسلوبهم فقد كان الاسلوب الرقيق السهل في اكثر شعرهم، فلا نجد فيه غرابة في اللفظ او تعقيدا في المعنى الا عند من تعمد ذلك تشبها بشعراء المشرق. ولم يعمدوا الى ادماج المعنى الكثير في اللفظ القليل. هذا ولم تكن لغة الشعراء في الاندلس محكمة دائما كلغة شعراء المشرق وذلك لابتعادهم عن مهد اللغة واختلاطهم بشعوب جديدة غير عربية. الا ان ما ذكرنا عن اسلوب الشعر الاندلسي وسهولته ورقته وعدم احكام لغته احيانا لا يجعلنا ننسى ان نذكر ان فيه كثيرا من الشعر الجزل الاسلوب والرقيق المعاني الذي يصدق فيه قول ابن بسام: " ذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة كما قال صاحبهم عبد الجليل ابن وهبون يصف شعره:

---

(١) لقد فطن ابن بسام في ترجمة المعتمد وايراد شعره لتشابه المعاني في بعض اشعاره لمعان وردت في ابيات لشعراء مشرقيين. راجع ابن بسام، في دوزي، ج ١، ص ٢٩٦ - ٣٢١.

رقيق كما غنت حمامة ايكة وجزل كما شق الهواء عقاب " (١)

هذا ولا ينسى فضل الاندلسيين في التجديد باختراعهم الموشح . ذلك ان رقي الاندلس العلمي والفني جعلهم يشعرون بوجوب تغيير الشعر القديم في صوره واساليبه واشكاله فاستحدثوا الموشح ذا الاوزان المغايرة لما اعتاد عليه شعراء المشرق والقوافي المنوعة . ولكن اغراض الموشحات ظلت مقصورة على الاغراض القديمة ، محدودة في مواضيع مألوفة واحيانا مبتذلة . كذلك نشأ في الاندلس شعر الزجل ، الذى نظمه العامة على منوال الموشح الذي شاع ، ولكن باللغة المحكية من غير ان يلتزموا فيه اعرابا . وقد انتشر الزجل في الاندلس كما انتشر الموشح واستحسنه كثيرون من الشعراء واهتم به ابن قزمان وغيره فرقوه وحسنوا فيه . وعن الاندلس اخذ اهل المشرق فني الموشح والزجل .

ولا بد لنا في هذه الكلمة الموجزة عن شعر الاندلس ان نذكر - ولو ذكرا عابرا - اثر ذلك الشعر في اوروبا لا سيما عند التروبادور ، وهم شعراء جنوبي فرنسا في القرون الوسطى ، الذين كانوا يتنقلون من قصر الى قصر منتجعين الامراء والوجهاء بالمديح . فلقد تأثر هؤلاء باغراض الشعر الاندلسي من مدح وهجاء وغزل كما تأثروا ببعض اساليبهم ولا سيما الموشح . وكانت اشعارهم خلوا من القافية فاقتبسوها عن عرب الاندلس بسبب جوارهم لهم واختلاطهم بهم (٢) .

---

(١) ابن بسام ، قسم ١ ، مج ١ ، ص ٣ .

(٢) لقد اقر بهذا التأثير كثير من المستشرقين والمؤرخين للتروبادور . راجع بحث نيكل في هذا الموضوع في كتابه Hispano Arabic Poetry and its relations with the Old Proverncal Troubadours, pp. 371-413.

وهناك كلمة اخيرة لا بد منها في نظرتنا العامة للشعر الاندلسي وهي اننا نستطيع ان نقول ان الشعر في الاندلس الذي يوصف بالتقليد وسطحية المعاني والخلو من النزعة التأملية وانعدام العاطفة ، انما هو في الغالب ذلك الشعر الذي كان ينظم لمناسبة مدح او ارضاء عظيم او تزلف لملك ، او هو ذلك الذي كان يتعمد فيه التقليد لشعر المشرق . وان هناك قصائد في الشعر الاندلسي عميقة المعاني جزلة الاسلوب صادقة العاطفة كانت تصدر عن شعور صحيح في الشعراء وكانت تقال لغاية قولها لا لارضاء احد . ومن هنا نستطيع ان نعتبر بعض شعر المعتمد ابن عباد ولا سيما في مدة اسره من الشعر الجزل الذي جمع بين صدق العاطفة وجمال المعاني ورقه الاسلوب ، لانه كان شعرا صادرا عن نفس ذاقت انواع الالم ومرارة الذل بعد حياة ملك وعز سلطان .

بنـــو عبـــاد والشعـــــر

احب بنو عباد الادب والشعر ورعوا اصحابه احسن رعاية كما فعل معظـــم ملوك الاندلس من خلفاء بني امية وملوك الطوائف ، وزاد في اهتمامهم به انهـــم كانوا هم انفسهم وبنوهم وزراؤهم ادباء شعراء ، افرد لهم كتاب الاندلـــــس ومؤرخوها ابوابا ذكروا فيها اشعارهم .

كان القاضي ابو القاسم ابن عباد ، مؤسس دولتهم ، محبا للادب والشعـــر ، "يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر وحوك البلاغة ويشجعهم"(١). وقـــد وردت له مقتطفات من الاشعار معظمها في وصف الازهار ، كما ذكر له شعر في الفخر قال فيـــه :

ولا بد يوما ان اسود على الورى ... ولو رد عمر والزمان وعامـــر
فما المجد الا في ضلوعي كامـــن ... ولا الجود الا من يميني ثائر(٢)

وقال يصف النيلوفـــر

يا ناظرين ندى النيلوفر البهـــج ... وطيب مخبره في الفوح والارج
كانه جام در في تالقـــــه ... قد احكموا وسطه فصا من السبج (٣)

وله في الياسمين اوصاف عدة جارى فيها شعراء الاندلس في الاهتمام بوصـــف الرياض

---

(١) ابن خاقان ، المطمح ، ص ١١ ، ابن بسام ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .
(٢) ابن الابار ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٤٧
(٣) ابن خاقان ، المطمح ، ص ١١

والازهار ، كما ورد له شعر في الغزل وغيره [١].

وكان المعتضد ابن ابي القاسم على غرار ابيه في حبه للادب ونظمه الشعر حتى ذكروا انه خصص يوم الاثنين من ايام الاسبوع للشعراء ، يفدون فيه عليه فيطارحهم الشعر ويستمع اليهم ويقيم لهم المباريات الشعرية ويجيز السابقين ويثير الخصومة الادبية بينهم فيشحذ هممهم لنظم الشعر [٢]. وقد ذكر ابن بسام انه رأى اسماعيل ابن اخي المعتضد قد جمع شعر عمه في ديوان [٣]. غير ان هذا الديوان لم يصل الينا وجل ما بقي من شعره ابيات متفرقة في كتب الادب.

وكان المعتضد يرعى الشعراء ويغدق عليهم الجوائز ، روى انه جاءه ذات يوم من ايام اجتماعاته الشاعر ابن جاخ ، ولم يكن معروفا عند شعراء بلاطه ، فازدروه على ان المعتضد قربه وجعله من شعرائه بعد ان سمع شعره واستحسنه [٤]. وقد انتمى الى بلاط المعتضد الادبي شعراء كثيرون ، منهم ابو الوليد ابن زيدون الذي فر من سجن ابن جهور في قرطبة وقصد اشبيلية فرحب به المعتضد وقربه ، ولابن زيدون في المعتضد امداح كثيرة [٥]. ومدح المعتضد عدة شعراء كانوا يفدون عليه ليشتركوا في مجالسه الادبية ويتقربوا اليه [٦].

---

(١) وردت له مقتطفات شعرية في ابن خاقان ، المطمح ، ص ١١-١٢ ، ابن الابار ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

(٢) المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٩٦

(٣) ابن بسام ، في دوزى ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ ، ابن الابار ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

(٤) المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٩٥ - ٥٩٦

(٥) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٧٩ - ٨٠ و ٨٨ - ٨٩

(٦) ذكر شعراء المعتضد ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٢٥٣ و ٢٥٩ و ٢٦٠ .

اما شعر المعتضد فقد وصلنا منه مقتطفات في اغراض مختلفة ، ولكن معظمه يتميز بتمثيله نفس صاحبه الطموحة وخلقه القاسي وعزيمته الجبارة فمن ذلك قولـــه

حميت ذمام المجد بالبيض والسمر ... وقصرت اعمار العداة على قسـر
ووسعت سبل الجود طبعا وصنعة ... لاشياء في العلياء ضاق بها صدري
فلا مجد للانسان ما كان ضـده ... يشاركه في الدهر بالنهي والامـر (١)

وقوله الذي يدل على طموحه وبعد مطامعه

هذي السعادة قد قامت على قدم ... وقد جلست لها في مجلس الكرم
فان اردت الهي بالورى حسنـا ... فملكني زمام العرب والعجـــم

هذا وان بعض شعر المعتضد الذي يصف طموحه وقوة عزيمته يذكرنا من حيث اللهجة والروح بشعر المتنبي الذى يصف نفسه الكبيرة وهمته العالية وان كان المتنبي متفوقا كل التفوق في عمق معانيه وجزالة اسلوبه . اسمعه يصف مضاء عزيمته يقول

أنام وما قلبي عن المجد نائـم ... وان فؤادي بالمعالي لهائـم
وان قعدت بي علة عن طلابها ... فان اجتهادي في الطلاب لدائم
يعز على نفسي اذا رمت راحـة ... تراخ فتثنيني الطباع الكرائـم
واسهر ليلي مفكرا غير طاعـــم ... وغيري على العلات شبعان نائم
ينادي اجتهادي ان احس بفترة ... الا اين يا عباد تلك العـزائم
فتهتز امالي وتقوى عزيمتـــي ... وتذكرني لذاتهن الهـزائم (٢)

---

(١) ابن الابار في دوزى ، ج ٢ ، ص ٤٩
(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٢

ومن شعره الذي يدل على صلابة خلقه قوله

لعمري اني بالمدامة قـــوال ... واني لما يهوى الندامى لفعال
فامسي على اللذات واللهو عاكفا ... واضحى بساحات الرياسة اختـــال
ولست على الادمان اغفل بغيتي ... من المجد اني في المعالي لمحتال (١)

ويتباهى بقدرته على ابادة الاعداء يقول

زهر الاسنة في الهيجا غدت زهري ... غرست اشجارها مستجـزل الثمـــر
ما ان ذكرت لها في معرك جلـل ... الا تجللته بالصارم الذكـــــر
حتى غدوت واعدائي تخاطبني ... يا قاتل الناس بالاجناد والفكـــر

وقد مر معنا تباهيه بالانتصار على رندة ونظمه في ذلك شعرا امر الناس بحفظه (٢)

وللمعتضد شعر في الغزل تعمد فيه الرقة ولكنه لم يأت فيه بجديد في المعاني والافكار منه

تنام ومد نفهـا يسهـر ... وتصبر عنه ولا يصبـر
لئن دام هذا وهذا به ... سيهلك وجدا ولا يشعر

ومنه ويبدو فيه التقليد

يطول علي الدهر ما لم الاقها ... ويقصر ان لاقيتها اطول الدهر
لها غرة كالبدر عند تمامـه ... وصدغا عبير نمقا صفحة البـدر
وقد كمثل الغصن مالت بها الصبا ... يكاد لفرط اللين ينقد في الخصر
ومشي كما جاءت تهادى غمامة ... ولفظ كما انحل النظام عن الدر (٣)

---

(١) ابن الابار، في دوزي، ج ٢، ص ٥٣.
(٢) راجع ص ٣٧-٣٨ من هذه الاطروحة
(٣) ابن الابار، في دوزي، ج ٢، ص ٥٩.

وله اشعار في وصف الخمر منها

شربنا وجفن الليل يغسل كحله بماء صباح والنسيم رقيق
معتقة كالشبر اما بخارهـــا فضخم واما جسمها فرقيـــق (١)

وفي الخمرة يقول

اشرب على وجه الصبـــاح وانظر الى نور الاقاح
واعلم بانك جاهـــل ما لم تقل بالاصطباح
فالدهر شيء بارد اذا لم تسخنه بـراح (٢)

وللمعتضد اشعار اخرى في الغزل والوصف والاعتذار وغيرها (٣) ، ولكن افضل شعره هو ذلك الذى قاله يعبر به عن خوالج نفسه الطموحة المحبة للمجد على حساب ارضاء الاعداء ، لانها كانت صادقة في تصويرها تلك النفس التي قيل عنها ان صاحبها " ما مات حتى قبض ارواح ندمائه وخواصه بيده " (٤)

على ان ما يهمنا في هذه الكلمة الموجزة عن ميل القاضي ابي القاسم ابن عباد وابنه المعتضد للشعر ونظمهما له وهو ان نبين ان الشعر كان متأصلا في عائلة بني عباد ، ونذكر هنا ايضا ان زوجة المعتضد الملقبة بالعبادية ـ ولعلها

---

(١) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٦٠

(٢) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٢٤٥ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٩٥

(٣) راجع شعر المعتضد في مختارات من الشعر الاندلسي ، جمع أ . ر . نيكل ، (بيروت دار العلم للملايين ، ١٩٤٩) ص ٧٥ ـ ٨٧ . وراجع ايضا ديوان ابن زيدون ، شرح وضبط كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة ، (مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٥١ هـ) ص ٣٧٠ ـ ٣٧٦

(٤) ابن شاكر الكتبي ، ج ٢ ، ص ٢٥٤

ام المعتمد - كانت اديبة شاعرة (١) . وهكذا نشأ المعتمد في بيئة تميل الى الشعر ونظمه ونشأ مثل ابيه وجده مكرما لاصحاب الادب يقيم للشعراء المجالس الادبية ويشجعهم . وكان الشعراء يقصدونه من جميع انحاء البلاد حتى قيل انه " لم يجتمع بباب احد من ملوك عصره ما كان يجتمع ببابه " (٢). ورووا عنه انه كان لا يستوزر وزيرا الا ان يكون اديبا شاعرا (٣). وقد ذكرنا سابقا كيف كان بدء اعجاب المعتمد بالرميكية لسرعة بديهتها الشعرية وقد كانت اديبة شاعرة (٤) .

وكان المعتمد يعجب بكل من كان يقول الشعر ويعطي كل شاعر حقه من التقدير والمكافأة . حدث مرة انه ابدى استحسانه - وفي حضرته بعض الشعراء - بقول المتنبي

اذا ظفرت منك المطي بنظرة اثاب بها معيي المطي ورازمه

فارتجل ابن وهبون

لئن جاد شعر ابن الحسين فانما تجيد العطايا واللهى تفتح اللهى

تنبأ عجبا بالقريض ولو درى بانك تروي شعره لتألهـــا

فقيل ان المعتمد سر بحسن اصابته الغرض فامر له بمئتي دينار (٥) .

---

(١) المقري ، ج ٢ ، ص ٦٢٦

(٢) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٣٧

(٣) المراكشي ، ص ١٠٥

(٤) التيجاني ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٥١ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٥٦٨ راجع ص ٥٦ - ٥٧ من هذه الاطروحة .

(٥) ابن ظافر الازدي ، ج ٢ ، ص ١٣١ ، المقري ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

وجاء ان المعتمد خرج يوما للنزهة في البساتين فرأى شجرة قد اينعت وبرزت فيها ثمرة فسدد اليها عصا كانت في يده فاصابها وثبتت في اعلاها فاطربه ما رأى من حسنها وثباتها والتفت ليخبر به من لحقه من اصحابه فرأى ابن جامع الصباغ فقال له اجز

كانها فوق العصا

فقال هامة زنجي عصا

فسر من ارتجاله وامر له بجائزة سنية " (١).

ومهما يكن من بساطة هذه الحادثة وهذا الارتجال فانها تدل على ان المعتمد كان يتسلى بالشعر في اوقات فراغه ، وكثيرا ما كانت نفسه تميل الى سماع الشعر والاجتماع بالشعراء فيستدعيهم اليه ، وقد ينظم بيتا ويسألهم ان يجيزوه فمن يحسن ذلك يكافئه (٢). وقد مر معنا الكلام عما كان من تلهى المعتمد مع ابن عمار بالشعر ومجالسه وذلك في ايام شبابهما في شلب ثم في اشبيلية .

وكان للمعتمد في الشعر آراء كما كان له فيه نقد ، حتى قيل ان الشعراء كانوا يخافون نقده ويحسبون لذلك حسابا . حدث عبد الله ابن ابراهيم الحجاري (عم صاحب المسهب) عن زيارته للمعتمد ، وقد حمل له قصيدة مدح قال : " فجعل يجيل النظر والفكر في القصيدة وانا مترقب لنقده لكونه في هذا الشأن من ائمته ، وكثيرا ما كان الشعراء يتحامونه لذلك الا من عرف في

---

(١) ابن ظافر الازدي ، ج ١ ، ص ٦٧ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٤١١

(٢) المقري ، ج ٢ ، ص ٤١٣ و ٤١٥

يوما

نفسه التبريز ووثق بها " (١). "وتباحث المعتمد/ مع الجلساء في بيت المتنبي الذي زعم انه امير شعره

ازورهم وسواد الليل يشفع لي وانثني وبياض الصبح يغري بي

فقال : ما قصر في مقابلة كل لفظة بضدها الا ان فيه نقدا خفيا ، ففكروا ثم قالوا ما وقفنا على شيء فقال الليل لا يطابق الا بالنهار لان الليل كلي والصبح جزئي . فتعجب الحاضرون واثنوا على تدقيق انتقاده " (٢). وهذا النقد على ما فيه من بداهة ، يدل على ان عناية المعتمد بالشعر لم تقتصر على نظمه فقط بل تعدت ذلك الى حبه التوسع والتعمق فيه ، واهتمامه الشديد بمجالسه وتنشيط الحركة الادبية عن طريق التحدث في الشعر ونقده وتشجيع الشعراء وتقديرهم .

اما الشعراء الذين قصدوا المعتمد وترددوا على مجالسه الادبية الشعرية فكثيرون ، ويمكن القول ان معظم شعراء الاندلس الذين عاصروا المعتمد قصدوا بلاطه او ارسلوا له شعرهم او مدحوه بقصائدهم . نذكر منهم ابا الوليد ابن زيدون (٣) ، الذي كان وزيرا بيه واحد شعرائه ، وبقي ابن زيدون عند المعتمد بعد موت المعتضد ، وقد ذكرنا سابقا كيف اغرى اعداء ابن زيدون المعتمد بقتله في القصيدة التي اولها

يا ايها الملك العلي الاعظم اقطع وريدي كل باغ ينئم

فابى المعتمد ان يسمع لهم ومدحه ابن زيدون بقصيدة طويلة مطلعها

الدهر ان اسأل فصيح اعجم يعطي اعتباري ما جهلت فاعلم (٤)

---

(١) التيجاني ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٤٨ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧

(٢) المقري ، ج ٢ ، ص ٦١١

(٣) راجع اخبار ابن زيدون الادبية مع المعتمد في المقري ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ و ٦١٤ - ٦١٧

(٤) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٦ - ٢٠ . راجع ص ٦٣ من هذه الاطروحة

ومن شعرائه الوزراء ابو بكر ابن عمار الذي يعد بين الشعراء المجيدين والذي وصفه المراكشي بانه كان على طريقة ابن هاني الاندلسي وان كان له ديوان بين ايدي الناس (١). وكان المعتمد معجبا بشعره مكثرا من صحبته ، الى ان حصل بينهما ما ادى الى غضب المعتمد عليه وقتله له (٢).

اما اقرب الشعراء الى المعتمد واكثرهم اتصالا به لا سيما بعد موت ابن عمار فكان الشاعر ابو بكر ابن عيسى الداني الملقب بابن اللبانة الذى وفد على المعتمد اخر حياته (٣) ، لذلك نجد اكثر شعره فيه يتناول حادثة نكبته وسجنه . وقد ذهب ابن اللبانة اكثر من مرة يزور المعتمد في منفاه (٤) وله في المعتمد وفي حالته بعد النكبة ورثائه اروع القصائد . وكان المعتمد يجيبه شعرا على كل ما يوجهه اليه ابن اللبانة من قصائد ويجيزه عليها ما استطاع الى ذلك سبيلا (٥) . ولا يتسع المجال هنا الى الالمام بكل ما قاله ابن اللبانة في المعتمد وابنه الرشيد ووصف نكبة آل عباد ورثائه المعتمد ، وجميعها قصائد تستحق ان تفرد لها دراسة خاصة (٦).

---

(١) المراكشي ، ص ١١١

(٢) راجع ص ٧٣-٨٠ من هذه الاطروحة

(٣) المراكشي ، ص ١٤٩

(٤) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣٢ و ٢٨٢ ، ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٢٧ ، النويري ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٢٧ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٧٣ ، ص ٦٠٩ .

(٥) ابن بسام ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣٠٩-٣١٣ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

(٦) راجع امداح ابن اللبانة في المعتمد في المصادر الاتية : ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٥ - ٢٦ و ٣٢ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ٤١٥-٤١٦ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ - ٤٨٨ ، ص ٥٢٣-٥٢٤ ، ص ٥٢٨-٥٢٩ وص ٦٠٦-٦٠٧ .

ومن شعراء المعتمد ابن وهبون الذي كثر تردده على المعتمد وكان بين الذين وفدوا عليه ليهنئوه بنصر الزلاقة (١). وهو الذى اجازه المعتمد بالف مثقال اثر سماعه قوله :

غاض الوفاء فما تلقاه في احد ... ولا يمر بمخلوق على بال

قد صار عندهم عنقاء مغربة ... او مثل ما حدثوا عن الف مثقال (٢)

وهو القائل في يوم عيد ، وقد كان المعتمد مبعدا له ، وبعث في طلبه المعتصم ابن صمادح فقال " ابعد المعتمد احضر منتدى او استمطر جودا او ندى ، وهل تروق الاعياد الا في فنائه او تحسن الامداح الا في سمائه" ثم قال :

دنا العيد لو تدنو لنا كعبة المنى ... وركن المعالي من ذؤابة يعرب

فوا اسفا للشعر ترمى جماره ... ويا بعد ما بيني وبين المحصب (٣)

ومن الذين وفدوا على المعتمد ، ابن عبادة المعروف بابن القزاز ، الذى اشتهر بالموشحات وكان قد قصده مهنئا بعد واقعة الزلاقة وقال فيه قصيدة يذكر فيها جرح يده في القتال يقول :

وقالوا كفه جرحت فقلنا ... اعادیه توافقها الجراح

وما اثر الجراحة ما رايتم ... فتوهنها المناصل والرماح

ولكن فاض سيل الجود فيها ... فامسى في جوانبها انسياح

---

(١) راجعي ص ٦٥ من هذه الاطروحة

(٢) المقري ، ج ٢ ، ص ١٥٨

(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٨٠

وقد صحت وسحت بالاماني وفاض الجود منها والسماح (١)

ومن الشعراء الذين قصدوا المعتمد عبد الجبار ابن حمديس الصقلي الذى وفد عليه من المغرب. اسمعه هو يحدث عن بدء اتصاله بالمعتمد قال : "اقمت باشبيلية لما قدمتها على المعتمد ابن عباد مدة لا يلتفت لي ولا يعبأ بي حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبي وصممت بالنكوص على عقبي ،فاني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي ، اذا بغلام معه شمعة ومركوب فقال اجب السلطان ، فركبت من فوري ودخلت عليه فاجلسني على مرتبة فنك ، وقال لي افتح الطاق التي تليك ففتحتها ، فاذا بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه وواقدة تفتحهما تارة وتسدهما اخرى ، ثم دام فتحهما ، فحين تأملتهما قال لي اجز

انظرهما في الظلام قد نجما فقلت : كما رنا في الدجنة الاسد

فقال يفتح عينيه ثم يطبقهما فقلت : فعل امرئ في جفونه رمد

فقال فابتزه الدهر نور واحدة فقلت : وهل نجا من صروفه احد

فاستحسن ذلك وامر لي بجائزة سنية والزمني خدمته " (٢)

ولابن حمديس شعر في خلع المعتمد وسجنه اجاب به المعتمد على قصيدته التي قال فيها :

غريب بارض المغربين اسير سيبكي عليه منبر وسرير

وقد قال ابن حمديس في قصيدته التي يرد فيها على قصيدة المعتمد

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٤ ، ابن سعيد، المغرب ،ج ٢ ، ص ١٣٥ .

(٢) المقري ،ج ٢ ، ص ٤١٦ - ٤١٧

جرى لك جد بالكرام عشور وجار زمان كنت منه تجير

لقد اصبحت بيض الظبا في غمودها اناثا لترك الضرب وهي ذكور

وفيها يرثي المأمون ابن المعتمد الذى قتل في قرطبة والراضي الذى قتل برندة اثناء النكبة :

ولما رحلتم بالندى في اكفكم وقلقل رضوى منكم وثبير

رفعت لساني بالقيامة قداتت فهذي الجبال الراسيات تسير[١]

ومن شعراء المعتمد ابن عبد الصمد صاحب القصيدة المشهورة في رثاء المعتمد

ملك الملوك اسامع فانادي ام قد عدتك عن السماع عوادي[٢]

ومن الذين تردوا على بلاط المعتمد الطبيب ابو حمد القرطبي المعروف بالمصري لطول اقامته في مصر وكان مقربا الى المعتمد يأنس به ويجزل عطاءه[٣]. ومنهم ابو العرب الصقلي[٤]، وابن مرزبان[٥]، وابن القبطورنة، وابو الحسين ابن سراج، وابو الحسن ابن اليسع[٦]. ومنهم الوزير ابو بكر ابن الملح وحسان ابن المصيصي الذى له في المعتمد شعر مدح يقول فيه

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص٢٧ ، ابن بسام ، في دوزي ، ج ١ ، ص٣١٨ ، النويري في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٣٨ ، المقرى ، ج ٢ ، ص٦٠٧ و٦٢٠ .

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص٣٤ راجع ص ١١٣ من هذه الاطروحة

(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص٧ - ٨ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص١٢٩

(٤) المقرى ، ج ٢ ، ص٢٨٥ و ٦١٠ - ٦١١ و ٦١٢ .

(٥) المقرى ، ج ٢ ، ص٤١٥

(٦) ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص٢٤٩

من استطال بغير السيف لم يطل ولم يخب من نجاح سائل الاسل

اعدتك صحبتك الارماح شيمتها فانفذ نفوذ القنا في الامر واعتدل (١)

ومن مداح المعتمد ابن المرعز النصراني (٢). كما قصد المعتمد من الوافدين على الاندلس الشاعر ابو الحسن البغدادي الملقب بالفكيك ومدحه (٣).

هذا وقد مر معنا تفصيل لذكر الشعراء الذين وفدوا على المعتمد في منفاه ومدحوه . هؤلاء وغيرهم من الشعراء والكتاب والفقهاء عجت بهم مجالس المعتمد ابن عباد حبا منه بالشعر ورعاية لهولاصحابه .

ولا يسعنا ونحن في معرض الكلام عن الشعر في عائلة المعتمد الا ان نذكر شيئا عن اولاد المعتمد الشعراء ، اذ كان بينهم من كان يقول الشعر ويعنى به وجاء في ترجمات بعضهم شيء من اشعارهم . وليس غريبا ان نجد في ابناء المعتمد ميلا للشعر وحبا له وقد نشأوا في بيئة رعت الشعر وشجعت اصحابه .

جاء في ترجمة يزيد الراضي ابن المعتمد انه "كان فاضلا فريدا في الادب ، شاعرا مفلقا ، مقتدرا على التصريف كيف شاء" (٤). وقيل كان كلفا بالمطالعة والدراسة محبا للعلوم والاداب وقال عنه ابن اللبانة انه شاعر بني عباد بعد ابيه (٥).

وقد ورد للراضي شعر يجمع بعضه بين الجزالة والرقة والعذوبة ، معظمه في

---

(١) ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٣٨٥ .

(٢) ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١

(٣) المقري ، ج ٢ ، ص ٨١ - ٨٢

(٤) الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٤١٧

(٥) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٧٥

الاعتذار والاستعطاف ، وجهه لابيه الذى كان قد غضب عليه ، لانه امره بقيادة جيش ليرد به هجمات المسيحيين وكان الراضي قد امتنع واكب في بيته على مطالعة الكتب فارسل اليه ابوه قصيدة يهزأ به فيها ويقول :

الملك في طي الدفاتر ... فتخل عن قود العساكر

يقول منها اولست رسطاليس ان ... ذكر الفلاسفة الاكابر

وكذاك ان ذكر الخليـــــــل ... فانت نحوي وشاعر

الى ان يقول

فحجبت وجه رضاي عنـ ... ـك وكنت قد تلقاه سافر (١)

فكتب اليه الراضي مراجعا

ملاي قد اصبحت كافـر ... بجميع ما تحوي الدفاتر

وملت سكين الـدوا ... ة وظلت للاقلام كاسر

وعلمت ان الملك مـا ... بين الاسنة والبواتر

ويعتذر اليه ويستعطفه فيقول بعد ان يذكره بابلائه في محاربة الجزيرة وضبطها

هبني اسأت كما اسأت ... اما لهذا العتب اخر

هب زلتي لبنوتي ... واغفر فان الله غافر (٢)

فصفح المعتمد عنه وقد تأثر بشعره هذا .

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣٨ - ٣٩

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣٩ - ٤٠ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٦٠٣ - ٦٠٥ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٤١٨ .

وبعث لابيه بابيات استعطاف مع ابن صغير له وكان قد احس من ابيه جفاء واهتماما ببعض اخوته اكثر منه يقول منها :

اعيـذك ان يكون بنا خمـول ... ويطلع غيرنا ولنا افـول

حنانك ان يكن جرحي قبيحـا ... فان الصفح عن جرحي جميل

وان عثرت بنا قـدم سفاهـا ... فاني من عـثاري مستقيـل

ويقول في اخرها

بعثت برقعتي هذي رسولا ... صغير السن ليس له حويـل

لترحمه وافراخا اذا مـا ... عتبت علي عاد لها عويـل

بقيت لهم على عتب وعتبـى ... فان حياتك الظـل الظليل (١)

ولم من قصيدة اخرى في الاستعطاف وفيها يحاول ادماج المثل في شعره

سجية ذي الدنيا عداوة ذي الفضل ... وروميك نقل الطبع من اعظم الجهل

فصبرا على ضيقاتهـا فلعلها ... تفرج يوما والعقـول الى حـل

سأشكو الى مشكي فؤادي بعتبـه ... ومن عجب شكوى الجريح الى النصل (٢)

ولما رضي عليه المعتمد وزاره في شلب التي ولاه عليها نظم الراضي شعرا انشـده اباه قال فيـه

الان تعود حياة الامـل ... ويدنو شفاء فـؤاد معـل

ويورق للعـز غصن ذوى ... ويطلع للسعد نجم افـل

---

(١) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص٧٦

(٢) الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص٤١٩ ، ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص٧٧ .

وفيها مدح للمعتمد وتعظيم له [١].

وللراضي غير هذه كثير من الاشعار في معنى الاعتذار لابيه والاستعطاف له [٢]

وورد للراضي شعر في الغزل يقول فيه

مروا بنا اصلا من غير ميعـــاد فاوقدوا نار قلبـــي اي ايقـاد

لا غروان زاد وجدي في مرورهم فرؤية الماء تذكي غلة الصادي [٣]

وله اشعار اخرى في الغزل [٤] ولكن شعر الراضي في الغزل وفي غيره قليل ، ويظهـر ان الرواة والمؤرخين عنوا اكثر بنقل شعره الموجه لابيه لاهتمامهم بكل ما يمت الـى المعتمد بصلة .

ومن اولاد المعتمد الشعراء ابنه حكم الملقب بذخر الدولة وذكر انه مال الى الهجاء في شعره ، وقد تجول بعد نكبة ابيه في اقطار المغرب واستقر بمدينـــة فاس يكتب الوثائق كاخيه يحي . وذكر ابن الابار شعرا قليلا منه ابيات يذكـــر فيها آل عباد ونكبتهم ويتذكر الاندلس يقول :

صاح انا عـــرب ملكتها عجـــم

كل فضل ونهـــى عدم عندهـــم

الى ان يقول عن بني عباد

لعب الدهر بهـــم ومحـا رسمهـــم

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢) راجع الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٤١٧ - ٤١٩ ، ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٧٨ و ٧٩ و ٨٠

(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣٧ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٤١٩

(٤) الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٤١٩ .

ليت شعـــرى والمـــنى خلب اوحلـــم
هل الـــى الاندلـــس نظـرة تغتنـــم (١)

وكان المعتمد يدعوه الى مجالس انسه ويساجله الشعر وينشده اشعاره (٢). كذلك كان يحي ابن المعتمد كما وصفه ابن اللبانة " حريصا على طلب الادب مسارعا فـــي اقتناء الكتب مثابرا على نسخ الدواوين " (٣). وقد اورد له ابن الابار ابياتا من الشعر قليلة لا اهمية لها (٤).

وعبيد الله الرشيد من ابناء المعتمد الذين عنوا بالعلم والادب وكان على مـا يصفه ابن اللبانة ميالا الى الغناء يجيد ضرب العود ، كما كان له ادب وشعر (٥). وقد اقام الرشيد في المغرب بعد نكبة ابيه في احدى القلاع الى ان مات . وذكـر لـــه شعر رقيق يشف عن عاطفة صادقة ونفس حساسة من ذلك قوله :

قالوا غدا يوم الرحيل فامطرت عيناي دمعا واكف العبرات
لم لا واناى عن احبة مهجتي كرها فقلبي دائم الحسرات
من كل بيضاء العوارض طفلـة مثل البدور تضيء في الظلمات
لولا الرجاء بان يعجل بيننا وشك التلاقي لاشتهيت مماتي (٦)

---

(١) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٨٢ - ٨٣
(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص٦ و ٩ ، المقري ، ج ٢ ، ص٦٢٤ - ٦٢٥
(٣) المقري ، ج ٢ ، ص٤٨٧
(٤) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص٨٠ - ٨١
(٥) المصدر نفسه ، ص ٧١
(٦) المصدر نفسه ، ص ٧٣

وله، يخاطب ام ابنه المعلى عند ولادتها اياه وفيه يظهر الطموح العبادى :

اهنيك بل نفسي اهني فانني ... بلغت الذى كان اقتراحي على الدهر
خلاصك من ايدي المنون وغرة ... بدت للمعلى مثل دائرة البدر
كأني به عما قريب مملكا ... زمام المعالي نافذ النهي والامر
يقود الى الهيجاء كل غضنفر ... ويضرب من ناداه بالبيض والسمر

وكان الرشيد كابيه يعقد مجالس الانس والادب فيتجمع عنده الشعراء والمغنون وتردد عليه ابن اللبانة عندما تولى الرشيد امر القضاء باشبيلية ، وكان ابن عمار ايضا متصلا به وله فيه مدح (١).

كذلك ذكر المؤرخون ابنة للمعتمد شاعرة اسمها بثينة ، وامها اعتماد الرميكية وقد قيل عنها انها " كانت نحوا من امها في الجمال والنادرة ونظم الشعر " وكانت من جملة من سبي لما اخرج ابوها عن بلده . فجزع عليها المعتمد والرميكية اشد الجزع ولم يعرفوا من امرها شيئا الى ان كتبت اليهما تستأذنهما في امر زواجها ، وذلك ان احد التجار كان قد اشتراها على انها سرية واراد تزويجها من ابنه فابت الا بعقد شرعي يرضى عنه والداها وطلبت منهم ان يوجهوا لها كتابا لابيها وينتظروا جوابه . وكانت قد كتبت لابويها شعرا من نظمها تقول منه

لما اراد الله فرقة شملنا ... قدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازني امرؤ ... لم يأت في افعاله بسداد

---

(١) ابن الاثير، ج ١٠ ، ص ١٢٤ - ١٢٥ ، المقري ج ٢ ، ص ٤٨٦ - ٤٨٧ و ٦١٧ - ٦١٨ .

اذ باعني بيع العبيد فضمني ... من صانني الا من الافكار

وارادني لنكاح نجل طاهر ... حسن الخلائق من بني الانجاد

ومضى اليك يسوم رأيك في الرضى ... ولانت تنظر لي طريق رشادي

فعساك يا ابتي تعرفني به ... ان كان مما يرتجى لودادي

وعسى رميكية الملوك بفضلها ... تدعو لنا باليمن والاسعاد

فلما وصل شعرها لابيها باغمات سر هو وامها بحياتها واشهد على نفسه بعقد نكاحها (١).

هذه هي عائلة بني عباد المحبة للادب والشعر حبا اشتهر عنها واثر نظمه عن معظم افرادها . ومع ان الكثير من شعرهم لا يعتبر في مصاف الشعر العالي الا انه لا يمكن المرور عليه بدون ان يعد لهم ذلك من الفضائل الادبية.

---

(١) التيجاني ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ١٥٣ - ١٥٥ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٦٢٧-٦٢٨

المؤثرات في شعر المعتمـــد

كان لبيئة المعتمد واحوال حياته اثرعظيم في شعره بحيث جاء شعـــره منطبقا على حياته ومرتبطا باحوالها ومتميزا بميزات هذه الاحوال . ذلك ان الشعـر لم يكن صناعة المعتمد ، ولم يضطر الى قوله كباقي الشعراء ، ولم يلزمه ان يقـول ما لا يعتقد او يشعر به ، بل كان يدفعه الى قول الشعر ميل فطري لقوله وحـب الاندماج في سلك الشعراء الذين كانوا يترددون على بلاطه . لذلك جاء معظـم شعر المعتمد متأثرا بصفات البيئة التي كتبه فيها وممثلا الحالة التي كان المعتمـد يعيشها تمام التمثيل . ومن هنا يمكن تقسيم شعر المعتمد بحسب ادوار حياتـه الى ثلاثة اقسام : دور امارته ودور حكمه ودور سجنه في اغمات.

للمعتمد شعر كثير قاله في الدور الاول من حياته وهو دور شبابه حتى الثلاثين من عمره وقبل توليه حكم اشبيلية . وهو دور كان للمعتمد فيه نصيب من اللهو والجـد ، فقد نشأ اميرا في عز ابيه وترعرع في ابهة الملك وسؤدد الحكم المتسع ، فكان لـه من بيئته المترفة كل اسباب النعيم واللهو والمجون ، ولكنه في الوقت نفسـه عرف حياة الجد والعمل وعرفها صغيرا حين ولاه ابوه امارة بعض الولايات التي كان استولى عليها ، وقد قيل انه تولى امر اول عمل وعمره لا يزيد على ثلاثة عشر عامـا . وعهد اليه ابوه بقيادة جيش سيره للاستيلاء على مالقة وهو دون العشرين من عمره ، ثم كانت توليته على شلب وهو بعد شاب ، وقضى المعتمد في شلب اوائل سني عملـه

واجمل ايام حياته [١]. وهكذا جاء شعر المعتمد في هذه السنين ممثلا نواحي حياته تلك ، ففيه الشعر الماجن في وصف الخمر ومجالس الانس والغزل وفيه الجد الذي حمله على نظم ارق شعر الاعتذار لابيه المعتضد الذي كان قد غضب عليه بعد ان احس منه تقصيرا في مهامه السياسية .

ولعل اول شعر نظمه المعتمد هو ابياته في وصف مجن وكان ابوه قد امره ان يصف ترسا لازوردي اللون مطوقا بالذهب في وسطه مسامير فقال

مجن حكى صانعوه السماء ... لتقصر عنه طوال الرماح
وصاغوا مثال الثريا عليه ... كواكب تقضي لنا بالنجاح
وقد طوقوه بذوب النضار ... كما جلل الافق ضوء الصباح [٢]

ويعتقد نيكل [٣] ان المعتمد لا بد نظم هذه الابيات قبل ان يستولي حكم الولايات الغربية وبذلك يكون قد نظمها وهو في الثانية عشرة من عمره والذي يساعد على هذا الظن ما ورد في الروايات من ان المعتضد امره ان يصف الترس وهذا الامر يرجح ان يكون لابن صغير ، يعد له ابوه موضوع الشعر ويشجعه على قوله .

ومهما يكن من امر هذا الترجيح في قول المعتمد للشعر صغيرا فمما لاشك فيه ان المعتمد قال الشعر وهو دون العشرين ، اذ ان من بواكير شعره الذي يستحق الذكر قصيدته التي نظمها في الاعتذار لابيه واستعطافه عندما غضب عليه المعتضد

---

(١) راجع ص ٤٥ من هذه الاطروحة

(٢) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٦٣ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣٩٤ .

(٣) نيكل ، ص ١٣٦ .

لاخفاقه في الحملة التي ارسله فيها لفتح مالقة ، وقيل ان اخفاق الحملة كان بسبب تهاون المعتمد ورجاله اثناء القتال وانهماكهم في الملذات وعكوفهم على الخمر واللهو مع الحسان [1]. وقد لجأ المعتمد بعد الاخفاق في الحملة الى رندة وبقي فيها ينتظر عفو ابيه وارسل اليه يعتذر ويستعطف في قصيدة قال فيها :

سكن فؤادك لا تذهب به الفكر ... ماذا يعيد عليك البث والحذر
فان يكن قدر قد عاق عن وطر ... فلا مرد لما يأتي به القدر
وان تكن خيبة في الدهر واحدة ... فكم غزوت ومن اشياعك الظفر
يا فارسا تحذر الابطال صولته ... صن حد عبدك فهو الصارم الذكر
قد اخلقتني ظروف انت تعلمها ... وغال مورد آمالي بها كدر
فالنفس جازعة والعين دامعة ... والصوت منخفض والطرف منكسر
قد حلت لونا وما بالجسم من سقم ... وشبت رأسا ولم يبلغنيَ الكبر
ما الذنب الا على قوم ذوي دغل ... وفى لهم عدلك المألوف اذ غدروا
قوم نصيحتهم غش وحبهم ... بغض وظلمهم ان صرفوا ضرر
يميز البغض في الالفاظ ان نطقوا ... ويعرف الحقد في الالحاظ ان نظروا

وفيها يقول مادحا المعتضد :

سميدع يهب الالاف مبتدئا ... وبعد ذلك يلقى وهو معتذر
له يد كل جبار يقبلها ... لولاداها لقلنا انها الحجر

ويقول مستعطفا ونافيا ما ذاع عنه انه انعكف على الشرب واللهو لذلك اخفق :

---

(١) راجع ص ٤٥ من هذه الاطروحة

اجب نداء اخي قلب تملكه　　اسى وذى مقلة اودى بها سهر
لم اوت من زمني شيئا الذبه　　فلست اعرف ما كاس ولا وتر
ولا تملكني دل ولا خفر　　ولا سبا خلدى غنج ولا حور
رضاك راحة نفسي لا فجعت به　　فهو العتاد الذى للدهر ادخر

الى ان يقول :

ما تركي الخمرعن زهد ولا ورع　　فلم يفارق لعمري سني الصغر
وانما انا ساع في رضاك فان　　اخفقت فيه فلا يفسح لي العمر(١)

وقد ارسل المعتمد الى ابيه مقطوعة اخرى في الاعتذار اليه وطلب عفوه حتى قيل ان المعتضد تأثر باشعار المعتمد وعفا عنه (٢).

ويمكننا ان نعزو كثيرا من شعر المعتمد في الغزل ووصف الخمر ومجالس الانس واللهو الغزل ووصف الغلمان والمساجلات الشعرية مع ابن عمار وغيره من الشعراء الى هذا الوقت من حياته مع انه يصعب تحديد المقطوعات التي قيلت في هذا الدور اذ ان المعتمد لا بد نظم كثيرا من شعره في هذه الاغراض اثناء سني حكمه . على ان شعر المعتمد في هذا الدور يتصف بروح الشباب وعاطفته كما يتصف ببساطة معانيه وبداهة افكاره . فقد احب المعتمد الشعر والشعراء وترعرع في جو ادبي حدب على الشعر واهله لذلك اشترك في قوله ونظمه في معان واغراض استمدها من حياته، وقد يكون المعتمد نظم معظم ما وصلنا من شعره في وصف الجوارى والغلمان ووصف الخمر ومجالسها في هذا الدور من حياته ذلك لانه كان اكثر تفرغا لمثل هذا

---

(١) ابن خاقان ، القلائد، ص ٢١ - ٢٢ ، ابن الابار، في دوزى ،ج ٢ ، ص ٦٣-٦٥، الملك المنصور في دوزى ،ج ٢ ، ص ٢٩ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ،ج ١ ، ص ٣٨٥ . وتبلغ القصيدة عند ابن الابار ٣٥ بيتا .

(٢) ابن الابار، في دوزى ،ج ٢ ، ص ٦٧ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ج ١ ،ص ٤٨٦ .

الشعر ، اذ رووا عنه انه لم يعد يظهر شرب الراح منذ ولي الملك (١).

وانك لتحس في شعر المعتمد الغزلي نزوة الشباب وصراحته وبداهته ، فمن ذلك قوله في جارية اسمها سحر وقد زارته وهو عليل :

سأسأل ربي ان يديم بي الشكوى ... وقد قربت من مضجعي الرئباء الاحوى
اذا علة كانت لقربك علة ... تمنيت ان تبقى بجسمي وان تقوى
شكوت وسحر قد اغبت زيارتي ... فجاءت بها النعمى التي سميت بلوى
فيا علتي دومي فانت حبيبة ... ويا رب سمعا من ندائي والشكوى (٢)

ومن غزله في هذا الدور :

ولج الفؤاد فما عسى ان اصنعا ... ولقد نصحت فلم ارد ان اسمعا
اسفي اود ولا اود واغتدي ... واروح احفظ عهد من قد ضيعا
ما كان ظني ان اجود بمهجتي ... حبا واقنع بالسلام فامنعا
يا هاجرين قد اشتفيتم فارفقوا ... وهبوا لعثرة عاشق لكم لعا
ردوا بردكم السلام حشاشة ... لم تبق لولا ان فيكم مطمعا (٣)

ومنه مما يشعر بروح الشباب وتوثب عاطفته :

ايا نفس لا تجزعي واصبري ... والا فان الهوى متلف
حبيب جفاك وقلب عصاك ... ولاح لحاك ولا منصف

---

(١) المقرى ، ج ٢ ، ص ٢٧٦
(٢) الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٨٨
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٩٢ .

شجون منعن الجفون الكـــرى وعوضنها ادمعا تنزف (١)

وفي هذا العهد تعرف المعتمد على اعتماد الرميكية التي اصبحت فيما بعد زوجته . وقد مر معنا خبر تعرفه عليها واعجابه بسرعة بديهتها في اجازة الشعر . وللمعتمد في الرميكية شعر يجمع فيه بين رقة العاطفة وجزالة الاسلوب ، وهووان لم يذكر اسمها الا في القليل من شعره فانه من المعقول جدا ان يكون كثير من شعره في الغزل موجها اليها . وله في اعتماد ابيات ضمنها حروف اسمها قال :

أغائبة الشخص عن ناظري وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون ودمع الشؤون وقدر السهاد
تملكت مني صعب الحـــزام وصادفت مني سهل القياد
مرادي اعياك في كل حيـــن فيا ليتاني اعطى مرادي
اقيمي على العهد في بيننا ولا تستحيلي لطول البعاد
دسست اسمك الحلو في طيه والفت حبا حروف اعتماد (٢)

اما الدور الثاني من حياة المعتمد الشعرية فهو دور ملكه الذى دام حكمه فيه ثلاثة وعشرين عاما ، كان للمعتمد فيها من عز الملك وسعة السلطان ونشـــوة الانتصار ما لم يكن لغيره من ملوك عصره . ويتميز شعر المعتمد في هذا الدور بميزه العزة والجلال ففيه شعر ملك زخرت حيانه بضروب المظاهر الملكية مـــن كرم وجود ونبل اصل واباء نفس وبسط قوة ، وفي شعره كثير من النضج والرزانـــة

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٩ ، المقرى ج ٢ ، ص ٦٢٤ .
(٢) ابن الابار ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

التي اسبغهما عليه تثبيت امره وهدوء نفسه . على ان الكثير من شعره في هـذا الدور شبيه من حيث اغراضه ومعانيه بشعره في الدور الاول من حياته ، ففيه الغـزل وفيه الوصف للخمر ومجالسها ومجالس الشعر ومساجلة الشعراء. وليس من السهل ان ينسب الى هذا الدور من حياته الشعرية مقطوعات معينة الا اذا كان في الشعر ومناسبته ما يدل على انه قيل في اثناء حكمه ، فمن ذلك الابيات التي وجهها الى ابن عمار وقد خرج الى شلب والياً عن المعتمد والتي يقول فيها

الا حي اوطاني بشلب ابا بكـر ... وسلهن : هل عهد الوصال كما ادري
وسلم على قصر الشراجيب عن فتى ... له ابدا شوق الى ذلك القصـر
منازل آساد وبيض نواعـم ... فناهيك من غيل وناهيك من خـدر
وكم ليلة قد بت انعم جنحهـا ... بمخصبة الارداف مجدبة الخصـر
وبيض وسمر فاعلات بمهجـتي ... فعال الصفاح البيض والاسل السمر

ويسير فيها يصف ايام لهوه ومجونه في شلب ايام كان والياً عليها (١)

ومن شعره في هذا الدور قصيدته الفخرية التي نظمها اثر استيلائه علـى قرطبة والتي يقول فيها

من للملوك بشأن الاصيـد البطل ... هيهات جاءتكم مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء اذ منعـت ... من جاء يخطبها بالبيض والاسل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها ... فاصبحت في سري الحلي والحلل
عرس الملوك لنا في قصرها عرس ... كل الملوك به في مأتم الوجـل

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٥ - ٦

فراقبوا عن قريب لاابا لكم هجوم ليت بدرع البأس مشتمل (١)

ومن شعره في هذا الدور ، وهو يبين حبه للحياة وتمتعه بكل ما فيها من لهو وخمر وانس قوله :

علل فؤادك قد ابل عليل واغنم حياتك فالبقاء قليل

لو ان عمرك الف عام كامل ما كان حقا ان يقال طويل

اكذا يقود بك الاسى نحو الردى والعود عود والشمول شمول

لا يستبيك الهم نفسك عنوة والكأس سيف في يديك صقيل

بالعقل تزدحم الهموم على الحشا فالعقل عندي ان تزول عقول (٢)

كذلك للمعتمد في هذا الدور من حياته شعر كثير في اغراض مختلفة من غزل ووصف ومساجلات شعرية وشعر مناسبات اهداء اوعتاب او دعوة او شكر وغيرها . وسيأتي الكلام عنها في مظانها .

اما الشعر الذي اشهر المعتمد ورفع منزلته الادبية بل وضعه في مصاف الشعراء المجيدين فهو ذلك الذي نظمه بعد محنته واثناء اسره في اغمات اربع سنين . ففي هذا الدور من حياته نظم المعتمد اجود شعره واغزره ، وكان شعره صادق العاطفة عميق المعاني رقيق الاسلوب . فقد كانت الامه وما لاقاه في السجن من ذل الاسر وضيق العيش باعثا على استنهاض ملكة الشعر فيه ومنبعا من منابع شعره ، يجد فيه المعاني الغزيرة وتتدفق منه عاطفته فتسيل شعرا وجدانيا مؤثرا ينفث فيه المعتمد بعض بؤسه والامه ويجد في قوله عزاء وتسلية عن احزانه . وبكلمة يمكن القول انه كان للنكبة التي حلت بالمعتمد الفضل الاكبر في اذكاء

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٢ - ١٣ ، المقرى ، ج ١ ، ص ٤١٢ - ٤١٣

(٢) المراكشي ، ص ١٠٣ .

شاعريته وحمله على نظم افضل شعره الذى خلده كشاعر له منزلته الشعرية كما خلدت لشعره قيمتها الادبية . وسنفرد للكلام عن شعر المعتمد في نكبته كلمة خاصة .

تقييم شعر المعتمد بالنسبة الى الاغراض الشعرية

للمعتمد شعر كثير ، ولكن لم يصلنا ذلك الشعر مجموعا ، ولم يقم بين الادباء ومصنفي الادب الذين جاءوا بعده من جمعه في ديوان مع العلم ان شعر ابي المعتمد ، المعتضد ، قام بجمعه ابن اخيه ، بالرغم من انه لم يكن بوفرة شعر المعتمد ولا بجودته . وقد ظل شعر المعتمد منتشرا في عشرات الكتب الادبية والتاريخية وخاصة ما كان يتناول اخبار الاندلس وتاريخه السياسي والادبي ، الى ان قام بعض ادباء مصر ، منذ سنوات قليلة ، بجمعه في ديوان طبع سنة ١٩٥١ (١).

وشعر المعتمد مختلف الاغراض متعدد المعاني . وقد طرق الشاعر معظم ابواب الشعر التقليدية التي نظم بها شعراء ذلك العصر . الا ان المعتمد لم يجر توازنا بين تلك الاغراض فاكثر في بعضها واقل في بعضها الاخر ، تبعا لميوله الشخصية وظروف حياته ومسؤولياته .

والمدح من الابواب الشعرية التي لم يطرقها المعتمد كثيرا ، ذلك انه لم يضطر ان يمدح احدا غير ابيه . وقد ورد للمعتمد ابيات كثيرة في مدح المعتضد ، ومعظمها اجزاء من مقطوعات شعرية كان المعتمد يوجهها الى ابيه في شبه رسائل ، مختلفة الغايات والمناسبات والكثير منها اعتذارات يطلب الشاعر فيها غفران ابيه ورضاه (٢). واننا نلمس في تلك المدائح الاباء الملكي . فالشاعر يصف اباه بالقوة والسطوة والغلبة على الاعداء والظفر الواسع والسخاء الوافر . وان قارئ ذلك

---

(١) راجع ص د من المقدمة

(٢) راجع ديوان المعتمد ابن عباد ، جمع وتحقيق احمد بدوى وحامد عبد المجيد ، (القاهرة ، المطبعة الاميرية ، ١٩٥١) ص ٣١ - ٤٥

المديح يشعر كانه يقرأ شيئا هو اقرب الى الفخر مما هو الى المدح . وفيما يلي ابيات قالها المعتمد في قصيدة استرضى بها اباه بعد ان غضب عليه لتهاونه في حرب مالقة .

من مثل قومك من مثل الهمام ابي ... عمر ابيك له مجد ومفتخر
سميدع يهب الالاف مبتدئا ... ويستقل عطاياه ويعتذر
له يد كل جبار يقبلها ... لولا نداها لقلنا انها الحجر
يا ضيغما يقتل الفرسان مفترسا ... لا توهنني فاني الناب والظفر
هو الذى لم تشم يمناك صفحته ... الا تأتى مراد وانقضى وطر

ويقول ذاكرا وقائع ابيه وانتصاراته

كم وقعة لك في الاعداء واضحة ... تفنى الليالي ولا يفنى بها الخبر
سارت بها العيس في الافاق فانتشرت ... فليس في كل حي غيرها سمر (١)

وقال في ابيه ايضا :

وهل انا ظمآن لمنهل وردكم ... وحسبي موقوف على وردكم حسبي
فجئت اغذ السير حتى كأنني ... لافراط اغذاذي على اظهر النجب
فالفيت اعلى الناس قدرا وسؤددا ... وعدلا فدته النفس صدقا بلاكذب
يهش الى راجيه ، كالوامق الصب ... ويهتز للمعروف كالصارم العضب (٢)

---

(١) ابن الابار ، في دوزي ، ج ٢ ، ص ٦٤ و ٦٥
(٢) ديوان المعتمد ، ص ٣٢ .

وقال ايضا فيه :

يا متبع الاكرام انعاما ... ومتبع الانعام اتماما
وعادلا في الناس لكنه ... اصبح للاموال ظلاما
قرنت في كفك بحر الندى ... بصارم اسكنته الهاما
وجمعت فيك خصال الورى ... وحزت آراء واقداما
فالموت والعيش بيمناك قد ... صرفت اسيافا واقلاما (١)

ولقد اضطرت المعتمد ظروف الزمان ان يمدح ابن تاشفين ذاكرا له انتصاره في يوم الزلاقة وذلك في القصيدة التي قالها بعد وصوله الى منفاه ورفض ابنة تاشفين تلبية طلبه خباء منها ، واول القصيدة :

هم اوقدوا بين جنبيك نارا ... اطالوا بها في حشاك استعارا
اما يخجل المجد ان يرحلوك ... ولم يصحبوك خباء معارا (٢)

ومما قاله في ابن تاشفين :

ويوم العروبة (٣) ذدت العدى و ... نصرت الهدى وابيت الفرارا
ثبت هناك وان القلو ... ب بين الضلوع لتأبى الفرارا
ولولاك يا يوسف المتقى ... رأينا الجزيرة للكفر دارا

---

(١) ديوان المعتمد ، ص ٤٣
(٢) الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٨٥ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٧٣
(٣) يوم العروبة هو يوم الجمعة - ابن ابي دينار ، ص ١٠٤ .

ويتحول مدح المعتمد الذى لم يكن الا ملاطفة لابن تاشفين الى وصف قتال يوحيه الى المعتمد حبه للقوة وتقديره للنصر يقول :

رأينا السيوف ضحي كالنجوم ... وكالليل ذاك الغبار المثارا
فلله درك في هولـــــه ... لقـد زاد باسك فيه اشتهارا
ترید اجتراء اذما الرمـــا ... ح عند التناجـزردن اشتجارا
كأنك تحسبها نرجســـا ... تديرالدماء عليهـــا عقـارا
تريك الرماح القدود انثناء ... وتجلو الصفاح/احمـــرارا
ستلقى فعالك يوم الحســا ... ب تنشر بالمسك منك انتثارا
وللشهداء ثناء عليـــك ... بحسن مقامك ذاك النهـارا

الى ان يقول

وقلبي يروع الى يـــوسـف ... فلو لا الضلوع عليه لطـــارا(١)

والتكلف في هذه القصيدة باد بوضوح وذلك لان الكلام لم يصدر عـــن شعور عميق وعاطفة صادقة .

كذلك فمن الاغراض التي لا ينتظران يكون للمعتمد شعر فيها ، الاعتذار والاستعطاف . ولم يكن المعتمد لينظم في ذلك لولم يمن بأب رزين صارم لم يتورع ان يقتل ابنه البكر عندما غضب عليه . ولقد اعتذر المعتمد لابيه عن تقصيـــره في المهمة التي اسندها اليه ، وارسل اليه اعتذاره شعرا كان له تأثيره الحسن في نفس ابيه وقد مر معنا ذكر قصيدته الطويلة التي مطلعها :

---

(١) الكاتب الاصفهاني في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٨٤ـ٣٨٥ . وفي الديوان ص ٩٧ "وقلبي نـــزوع" .

سكن فؤادك لا تذهب به الفكر (١) التي يبدو فيها المعتمد

لبقا حاذقا فهو فيها يعتذر ويمدح في آن واحد كما سبق وذكرنا . ويبدي خلال ذلك التذلل والانكسار ، يقول :

فالنفس جازعة والعين دامعة والصوت منخفض والطرف منكسر

قد حلت لونا وما بالجسم من سقم وشبت رأسا ولم يبلغني الكبر

ومت الا ذماء في يمسكه اني عهدتك تعفو حين تقتدر (٢)

ويعتمد المعتمد الانكسار ويبدى اليأس باسلوب ظاهر التكلف والصنعة يقول في مقطوعة اعتذار اخرى :

مولاي اشكو اليك داء اصبح قلبي به جريحا

ان لم يرحه رضاك عني فلست ادري له مريحا

سخطك قد زاد فيّ سقاما فابعث الي الرضا مسيحا

واغفر ذنوبي ولا تضيق عن حملها صدري الفسيحا (٣)

ويقول في قصيدة اخرى

تسخطك المحض اعل نفسي وما لي غير عفوك من طبيب

ولست بمنكر ذنبي ولكني قد جئت في حال المريب

---

(١) راجعي ص١٤٤ من هذه الاطروحة

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢١ ، ابن الابار ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٦٤

(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢١ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٨٦ ، ابن الابار ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

فان عاقبتني فجزاء مثلـــي وان تصفح فليس من الغريب (١)

غير ان مثل هذا التذلل وتكلف الانكسار والضعف لن نعد نسمعه من المعتمد بعد موت ابيه الشديد الفظ المعاملة ، اذ لم تضعف نفس المعتمد في شعره حتى في اشد حالات آلامه ويأسه ، وشعره في الشكوى والالم متميز برفعة نفسه وانفة طبـــاعه ، لم يظهر فيه اى ذل او انكسار وان ظهر اليأس في بعضه .

والفخر من اغراض الشعر التي كان المعتمد مقـلا في نظمها ، ولعله كان يشعر بان له من نبل اصله ورفعة شأنه واتساع ملكه وبعد سيطرته ما لم يجعله بحاجـة الى تأكيد ذلك عن طريق الفخر والمباهاة ، ومما يؤكد ذلك الى حد ما ان اول شعر قاله المعتمد مفتخرا كان عندما احس بقرب انتهاء ملكه ، فكأن افتخاره كان مقاومـة لذلك النقص والخوف الذى بدأ يشعر به على ضياع ملكه وفقد سلطانه . قال مفتخـرا شهرة ملكه ونبل اصله .

من عزا المجد الينا قد صـدق لم يلم من قال مهما قال حق
مجدنا الشمس سناء وسنـــا من يرم ستر سناها لم يطـق
ايها الناعي الينا مجدنـــا هل يضر المجد ان خطب طرق
لا نرع للدمع في آماقنـــا مزجته بدم ايدي الحـــرق
حنق الدهر علينـــا فسطـا وكذا الدهر على الحـر حنـق
وقديما كلف الملك بنا ورأى منا شموسا فعشـــق
قد مضى مناملوك شهـــروا شهرة الشمس تجلت في الافق

---

(١) ديوان المعتمـــد ، ص ٣٣ .

نحن ابناء بني ماء السماء نحونا تطمح الحاظ الحدق
واذا ما اجتمع الدين لنا فحقير ما من الدنيا افترق (١)

وقد ذكرنا قبل قصيدة المعتمد التي يفخر فيها بفتح قرطبة مطلعها

من للملوك بشأو الاصيد البطل هيهات جاءتكم مهدية الدول (٢)

كذلك يفخر المعتمد بوفائه وحلمه عند المقدرة وبطشه ان لزم الامر في القصيدة التي اجاب بها الذين حرضوه على قتل ابن زيدون ، قال :

اني رجوتم غدر من جربتم منه الوفاء وجور من لا يظلم
انا ذاكم ، لا البغي يثمر غرسه عندى ، ولا مبنى الصنيعة يهدم
كفوا والا فارقبوا لي بطشة يلقى السفيه بمثلها فيحلم (٣)

ويفخر المعتمد بشجاعته وابائه ونبل اصله في قصيدة قالها لما خلع ووصف فيها جهاده وتراميه على الموت ، قال :

قالوا الخضوع سياسة فليد منك لهم خضوع
والذ من طعم الخضو ع على فمي السم النقيع
ان يسلب القوم العدى ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
ما سرت قط الى القتا ل وكان من املي الرجوع

---

(١) ابن الابار ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٦٩ - ٧٠
(٢) راجع ص ٦١ وص ١٣٠ من هذه الاطروحة
(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٧٠

شيم الالى انا منهم والاصل تتبعه الفروع (١)

اما اغراض الشعر التي اكثر المعتمد من النظم فيها فمنها الوصف الذى جاء كثير منه خلال قصائده في الغزل والحنين والشكوى وغيرها ، كما ورد للمعتمد مقطوعات عدة في الوصف التقليدي الذي جرى فيه على سنن الشعر الاندلسي في وصف اشياء تعمد وصفها كوصفه مثلا شمعة ووصفه النرجس ووصف روضة وغيرها مما اعتنى بمثل موضوعاتها شعراء الاندلس الاخرون . وشعر المعتمد في تلك الاوصاف عادي المعاني قليل العمق بادي التكلف . ويظهر في الكثير منه روح المعتمد الفارس الذي يرى في كل شيء سيوف حرب والوية ملك ، وسخاء جواد ولهو مجلس من ذلك مثلا ما قاله في وصف نافورة :

ولربما سلت لنا من مائها سيفا وكان على النواظر مغمدا
طبعته لجيا فزانت صفحة منه ولو جمدت لكان مهندا (٢)

وما قاله يصف ليلة من ليالي مجالس الانس:

ولقد شربت الراح يسطع نورها والليل قد مد الظلام رداء
حتى تبدى البدر في جوزائه ملكا تناهى بهجة وبهاء
وتناهضت زهر النجوم تحفه لألأؤها فاستكمل اللالاء
وترى الكواكب كالمراكب حوله رفعت ثرياها عليه لسواء
وحكيته في الارض بين مراكب وكواعب جمعت سنى وسناء

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٤ ، ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٠٤ .
(٢) المقرى ، ج ٢ ، ص ٤١١

ان نشرت تلك الدروع حنادسا ملأت لنا هذي الدروع ضياء (١)

ومن وصف المعتمد الذى يبدو فيه اثره الشخصي في التشبيه والتصوير قوله :

وشمعة تنفي ظلام الدجى نفي يدي العدم عن الناس
ساهرتها والكاس يسقي بها من ريقه اشهر من الكاس
ضياؤها لا شك من وجهه وحرها من حر انفاسي

اما افضل اوصاف المعتمد فهي تلك التي تخللت قصائده عفوا ولا سيما اقواله في الشوق والحنين والذكرى ووصف حاله والامه في الاسر الى ما هنالك من شعر لم يتكلف المعتمد فيه الصنعة فجاء في بعض ذوب عاطفة ورقة مشاعر اسمعه يصف لياليه في شلب .

وليل بسد النهر لهوا قطعته بذات سوار مثل منعطف النهر
نضت بردها عن غصن بان منعم نضير كما انشق الكلام عن الزهر
وباتت تسقيني المدام بلحظها فمن كاسها حينا وحينا من الثغر (٢)

ويقول واصفا وداع من يحب :

دارى الغرام ورام ان يتكتما وابى لسان دموعه فتكلما
رحلوا واخفى وجده فاذاعه ماء الشؤون مصرحا ومجمجما
سايرتهم والليل غفل ثوبه حتى تراءى للنواظر معلما

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص٦ ، المقرى ج ٢ ، ص ٦٢٤ - ٦٢٥

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص٦ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص٣٨٧ ، المقرى ، ج ٢ ، ص١٣١ .

فوقفت ثم محيـرا وتسلبـــت مني يد الاصباح تلك الانجمـا (١)

ولقد اجاد المعتمد في بعض ابياته الخمرية وان كان وصفه في الغالب حسيا يقتصر على وصف شكل الخمر ولا يتعدى ذلك الى وصف ما تتركه الخمرة في النفس من مشاعر واحاسيس . وقد اكثر من ذكرها ووصفها في ذكر مجالس الانس والدعوة اليهـا . ومن احسن قصائد المعتمد في الخمر قوله يصف كاس بلور مملوء بالخمر ارسله مع هديـة لشاعره ابن اللبانة :

جاءتك ليلا في ثياب نهـــار من نورها وغلالة البـــلار
يتحير الراءون في نعتيهمـــا اصفاء ماء ام صفاء دراري (٢)

وقال ايضا في الخمرة مما يدل على وقوفه عند وصف منظرها الخارجي :

لو زرتنا لرأيت ما لم تعهـــد ذوب اللجين خليط ذوب العسجد
نطف يجملها فقاقع منه مـــا جمدت لتحفظ جسم ما لم يجمـد (٣)

وقال في ساق :

لاح وفاحت روائح النـــد محتضر الخصر اهيف القـــد
وكم سقاني والليل معتكـــر من جامد الماء ذائب الورد (٤)

وقال يستدعي عودا ويصف مجلس غناء وشـرب :

---

(١) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٢٩٨ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩٤ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٦٨٩

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٧ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٦٢٤

(٣) الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩٠ ، والبيت الثاني غير واضح راجع ديوان المعتمد ، ص ١١ .

(٤) الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩٣

غلب الكرى ورنت مطايا الراح واشتقن شد وحداتها النصاح
فابعث نشاط سؤومها وحسيرها بغناء حاديها اخي الافصاح
ليقيم ذاك العود من رسم السرى ويعود في الاجسام بالارواح
فنسير في طرق السرور ونهتدي بخفيهن بانجم الاقداح (١)

هذه بعض اوصاف المعتمد للخمر ومجالسها . وهي لا تخرج في جملتها عن المعاني المطروقة في الاندلس وفي المشرق . ولم يكن للمعتمد فيها جديد ، وانما نوهنا اليها وذكرنا بعضها ليستدل على غزارة شعر المعتمد وطرقه جميع ابوابه واغراضه .

ومن الاغراض الشعرية التي نظم فيها المعتمد واكثر ، الغزل - بالجنسين - الا ان غزله الارق هو ذاك الذى نظمه في الحسان ، وقد ذكرنا سابقا ان المعتمد لا بد ان نظم معظم شعره الغزلي في ايام شبابه وقبل توليه زمام الحكم في اشبيلية ، اذ كان ذلك الوقت وقت تفرغ للهو والغزل .

ويتميز معظم شعر المعتمد الغزلي برقته وعذوبته وجزالته، ولقد نظمه في اكثر من فتاة . من ذلك ما قاله في جارية اسمها سحر وقد هجرته :

عفا الله عن سحر على كل حالة ولا حوسبت عني بما انا واجد
اسحر ظلمت النفس واخترت فرقتي فجمعت احزاني وهي شوارد
وكانت شجوني باقترابك نزحا فها هن لما ان نأيت شواهد

---

(١) الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩٤ .

فان تستلذي برد مائك بعدنا فبعدك ما ندري متى الماء بارد (١)

وقال مجيدا التصوير:

يا غصنة اذا مشى يا رشأ اذا نظر
يا نفس الروضة قد هبت لها ريح سحر
يا ربة اللحظ الذي شد وثاقا اذ فتر (٢)

وله هذه الابيات التي تتدفق فيها العاطفة وروح الشباب المتوثب بالشعور، ويرجح ان تكون قد نظمت في اعتماد

انا في عذاب من فراقك نشوان من خمر اشتياقك
صب الفؤاد الى لقا ئك وارتشافك واعتناقك
هذي جفوني اقسمت لا تلتقي ما لم تلاقك
فصلي جميل الظن بي وثقي فقلبي في وثاقك (٣)

هذا وله شعر في اعتماد ذكر اسمها فيه صريحا - وقلما ذكر المعتمد اسمها في شعره- تظهر فيه صدق عاطفته وقوتها ورقة اسلوبه وطلاوته وجزالته من ذلك قوله :

بكرت تلوم وفي الفؤاد بلابل سقما وهل يثني الحليم الجاهل
يا هذه كفي فاني عاشق من لا يرد هواي عنها عاذل
حب اعتماد في الجوانح ساكن لا القلب ضاق به ولا هو راحل

---

(١) ابن بسام، في دوزي، ج ١، ص ٢٩٩
(٢) الكاتب الاصفهاني، في دوزي، ج ١، ص ٣٨٩
(٣) الملك المنصور، في دوزي، ج ٢، ص ٢٩ - ٣٠

يا ظبية سلبت فؤاد محمد ... اولم يروعك الهزبر الباسل
من شك اني هائم بك مغرم ... فعلى هواك له علي دلائل
لون كسته صفرة ومدامع ... هطلت سحائبها وجسم ناحل (١)

وله فيها قصيدة اخرى على غرار شعره الجزل الرشيق .

اد ار النوى كم طال فيك تلذذي ... وكم عقني عن دار اهيف اغيد
حلفت به لوقد تعرض دونه ... كماة الاعادي في النسيج المسرد
لجردت للضرب المهند فانقضى ... مرادي وعزما مثل حد المهند
فما حل في فؤاد خليله ... محل اعتماد من فؤاد محمد
ولكنها الاقدار تردي بلا ظبا ... وتعمي بلا قتل وترمي بلايد (٢)

ومن شعره الرقيق في الغزل ، ولعله في اعتماد .

مضت لي شئون مذ غبتم ثلاثة ... وما خلتني ابقى اذا غبتم شهرا
وما لي حياة بعدكم استلذها ... ولو كان هذا لم اكن في الهوى حرا (٣)

ومنه مخاطبا اعتماد وكنيتها ام الربيع

تظن بنا ام الربيع سآمة ... الا غفر الرحمن ذنبا تواقعه
اأهجر ظبيا في فؤادي كناسه ... وبدر تمام في ضلوعي مطالعه
وروضة حسن اجتنيها وبادرا ... من الظلم لم تخطر علي شرائعه

---

(١) ديوان المعتمد ، ص ٢٣
(٢) ابن خاقان ، المطمح ص ١٠ ، وكذلك المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٨٢ ، يذكر الابيات الثلاثة الاولى فقط اما البيتان الاخران فمن ديوان المعتمد ص ٩ .
(٣) ابن خاقان ، المطمح ، ص ١١

اذا اعدمت كفي نوالا تفيضـــه على معتفيه اوعدوا تقارعـه (١)

ومن محاولاته في الابتكار الغزلي قوله :

ثلاثة منعتها عن زيارتنـــــا خوف الرقيب وخوف الحاسد الحنق
ضوء الجبين ووسواس الحلي وما تحوى معاطفها من عنبر عبـــــق
هب الجبين بفضل الكم تستره والحلي تنزعه ما حيلة العـــرق (٢)

ولعل من ارق قصائده الغزلية والطفها معنى واسلوبا تلك التي قال فيها

القلب قد لج فما يقصـــــر والوجد قد جل فما يستـر
والدمع جار، قطره وابـــل والجسم بال، ثوبه اصفـــر
هذا ومن اعشقه واصـــــل كيف به لوانه يهجـــــر

الى ان يقول :

قد خبرت عني اني امـــرؤ فيه شحوب وضنى يظهـــر
فابدت الاشفاق من حالتي ومثل ما تبد به ما تضمـــر
واستفهمت ان كنت ذاعلـــة او ذا اشتياق ناره تسعـــر
سيدتي لم تنصفي عاشقـــا اضحى كما اخبرك المخبـــر
اذ قلت هل من الم طائـف ما بك او شوق فما تصبـــر
ظلمت بالشك هواي الـذى يعرفه الغيب والحضـــر
والله ما سقمي الا هـــوى كل هوى في جنبه يصغـــر

---

(١) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٢٩٨
(٢) المقرى ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

غير جسمي فاعلمي انني اروم لقياك ولا اقدر
فاستغفري الله من الظلم لي فان من يظلم يستغفر(١)

وكما ان كثيرا من شعر المعتمد جاء متأثرا بحوادث معينه من حياته وممثلا لها كذلك فكثير من شعره الغزلي كانت تمليه عليه مناسبات وظروف تحدث معه وتدفعه الى قوله ميوله واهواؤه المتأثره بمن حوله من جوار وندمان ، لذلك جاء معظم غزله صادق المعاني رقيق الحواشي بعيدا عن التكلف . اقبلت اليه يوما جارية تسقيه الخمر وكان كلفا بها ولمع البرق وهي امامه تناوله الكأس فارتاعت وجزعت فقال :

ريعت من البرق وفي كفها برق من القهوة لماع
يا ليت شعري وهي شمس الضحى كيف من الانوار ترتاع(٢)

وقال في جارية اسمها قمر وقفت امامه تحجب الشمس عنه :

قامت لتحجب قرص الشمس قامتها عن ناظري حجبت عن ناظر الغير
علما لعمري منها انها قمر هل تحجب الشمس الا غرة القمر(٣)

ومن حوادث لهوه مع الحسان وشعره فيهن انه جرى يوما عتاب بينه وبين جارية له اسمها جوهرة ، وكان يحبها ورأى ان يكتب اليها يسترضيها فاجابته برقعة لم تعنونها باسمها فقال :

لم تصف لي بعد والا فلم لم ار في عنوانها جوهرة

---

(١) ديوان المعتمد ، ص١٦ ، من مجموع شعر المعتمد المخطوط

(٢) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص٢٩٨ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٨٨ ، المراكشي ، ص١٠٤ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٦١١ ، وفي المقرى روعها البرق

(٣) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص٢٩٩ ، المراكشي ، ص١٠٤

درت باني عاشـق باسمها　　فلم ترد للغيظ ان تذكره
قالت اذا ابصـره ثابتـا　　قبله والله لا ابصـره (١)

وله في جوهرة هذه شعر كثير منه :

جوهرة عذبنـي　　منك تمادي الغضـب
فزفرتـي في صعـد　　وعبرتي في صـبب
يا كوكب الحسن الذي　　ازرى بزهـر الشهـب
مسكنك القلب فـلا　　ترضي له بالوصـب (٢)

أما غزل المعتمد بالغلمان فهو اقل من غزله بالجواري ، ولعل ما حمله على نظمه شيوع مثل ذلك الفن في زمنه عند اهل المشرق واهل الاندلس . وكان قد شجع انتشار الشعر في وصف الغلمان والتغزل بهم كثرة الجواري والموالي الذين كانت تعج بهم البلاد بسبب الغزو والفتح وكانوا يفرقون على البيوت ويباعون في الاسواق وتمتلئ بهم مجالس اللهو والطرب والشرب .

والمعتمد في غزله بالغلمان ووصفه الندمان يسير على اسلوبه في الغزل بالجواري في رقة معانيه ولطف دبياجته وسهولة كلامه والتعبير عن شعور عابر ووصف لحوادث وصور تجرى في تلك المجالس والمجتمعات اللاهية ، على غير افتنان في الصور وتعمق في المعنى . فمن شعره ذلك قوله :

يا معرضا عني ولم اجن ما　　يوجب اعراضا ولا هجرا

---

(١) الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩١ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٤٨٥
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩٢ ، والمقرى ، ص ٤٨٥

قد طال ليل الهجـر فاجعل لنا وصلك في آخره فجرا (١)

وقوله في غلام :

اكثرت هجرك غير انك ربمـــا عطفتك احيانا علي امـور
فكأنما زمن التهاجر بيننـــــا ليل وساعات الوصال بدور (٢)

وله في وصف غلام ابصره في يوم الزلاقـة :

ابصرت طرفك بين مشتجر القنا فبدا لطرفي انه فلـــك
او ليس وجهك فوقـــه قمـــرا يجلي بنير نوره الحلـــك (٣)

ومن الاوصاف الشائعة التي صاغها المعتمد ، قوله في غلام :

تم له الحسن بالعـــذار واختلط الليل بالنهـــار
اخضر في ابيض تبـــــدى ذلك آسي وذا بهـــاري (٤)

وقال في غلام اسمه سيـف :

سموه سيفا وفي عينيـه سيفان هذا لقتلي مسلول وهـذان
اما كفت قتلة بالسيـف واحـدة حتى اتيح من الاجفان ثنتان
اسرته وثناني غنج مقلتـــــه اسيره فكلانا آسـرعانـــي

---

(١) الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٨٩

(٢) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٢٩٨ ، الصفدى ، صلاح الدين خليل ، الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، (الاسكندرية ، المطبعة الوطنية ، ١٢٩٠ هـ) ج ١ ، ص ٣٢٣ .

(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٨ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٦٢٦ .

(٤) المراكشي ، ص ١٠٤ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

يا سيف امسك بمعروف أسير هوى لا يبتغي منك تسريحا باحسان (١)

هذا هو غزل المعتمد وهو وان كان لا يخلو من رقة معان وجود تصوير ولا سيما في مقطوعاته التي تنم عن عاطفة صادقة وشعور بالحب عميق ، غير انه لا يضع المعتمد في مصاف الشعراء المجيدين في الغزل .

هذا وقد كان للمعتمد شعر كثير في الغزل وغيره من الاغراض مما كان يقوله في المناسبات ليرضي في نفسه شوقا لنظم الشعر ويتلهى به . ومما يؤكد القول ان المعتمد كان يتلهى بالشعر وبمجالسه وفرة ما وردنا للمعتمد من مقطوعات في اغراض ومناسبات مختلفة يخلو معظمها من العاطفة الشعرية والافكار العميقة ، نظمها المعتمد جريا علي عادة شعراء عصره الذين كانوا يتكلفون قول الشعر ويحملون انفسهم على نظمه في مناسبات الدعوة والشكر والاهداء وغيرها . وقد كان للمعتمد كثير من الشعر في مثل هذه المناسبات . فعندما اراد ان يؤنب ابنه ويتهكم على تخاذله في امور الحرب انبه بشعر ، وعندما كان يهدي شاعرا يبعث اليه مع الهدية ابيات شعر ، واذا شكر على هدية فبشعر واذا دعا الى مجلس انس يدعو بشعر ايضا وكذلك كان يوجه عتابه شعرا ويرحب برسله بشعر الى ما هنالك من مناسبات . نذكر من اشعاره في مثل تلك الاغراض على سبيل التمثيل ما ارسله الى بعض الشعراء وقد سمع انهم يقضون اوقاتا طيبة في قصر الزهراء يدعوهم الى مجلس عنده قال :

حسد القصر فيكم الزهراء ولعمري وعمركم ما اساء
قد طلعتم به شموسا ضاحيا فاطلعوا عندنا بدورا مساء (٢)

---

(١) الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣٩٠ ، المراكشي ، ص ١٠٥
(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١١ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣٨٧ و المقري ، ج ٢ ، ص ٤١١ .

ومن شعره في هذا القبيل ما وجهه الى ابن زيدون معاتبا :

وعدت واخلفتني الموعـدا ... وخالفت بالمنتهى المبتدا

واطمعتني ثم ايأستنـــي ... ويمنعني الود ان احقـدا

واضعت بالمطل حبل الرجا ... فرث ، واعهده محصـدا

الى ان يقول :

وكان فعالك قبل المقـا ... ل فماذا عدا الان فيما بدا.(١)

وهي مقطوعة طويلة يسير فيها المعتمد من العتاب الى المدح . ومن شعره الذى قاله في اغراض يومية ما كتبه الى الوزير ابي الاصبغ ابن ارقم رسول المعتصم ابـــن صمادح اليه مرحبا به وكان الوزير قد بات على قرب من اشبيلية واعلم المعتمد انـــه وافد عليه صبيحة اليوم التالي :

اهلا بكم صحبتكم تحوى الديـم ... ان كان لم يتبحح لي بكم حلم

حثوا المطي ولو ليلا بمجهلـــة ... فلن تضلوا ومن بشري لكم علم

الى ان يقول :

سأكتم الليل ما القاه من بعد ... واسأل الصبح عنكم حين يبتسم(٢)

ومن شعره الذى استخدمه في اغراض رسائله ما رد به على بعض الشعراء الذيـــن حاولوا ان يوقعوا بينه وبين ابن زيدون ومطلعه :

---

(١) ديوان المعتمد ، ص٥٤ ـ ٥٥

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص٩ ، ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص٣٠٠

كذبت مناكم صرحوا اوجمجموا الـدين امتن والسجية اكرم [١]

وبلغه ان ابن صمادح يفسد بينه وبين ابن تاشفين فوجه اليه هذه الابيات:

يا من تعرض لي يريد مساءتي لا تعرضن فقدنصحت لمندم

من غره مني خلايق سهلـــة فالسم تحت لبان سم الارقم [٢]

وبكلمة اخرى ، كان المعتمد يستخدم الشعر كثيرا في رسائله واغراضه السياسية والشخصية بدل الكلام المنثور(٣) .

كذلك لا بد لنا في معرض الحديث عن شعر المعتمد في المناسبات والاغراض العادية من كلمة عن مساجلاته الشعرية مع الشعراء الذين كانوا يترددون عليه . واهم تلك المساجلات ما كان بينه وبين شاعره وصديقه ابن عمار وقد مر معنا الكلام عن ذلك ، ومساجلاته مع ابن زيدون [٤] ، ومع ابن اللبانة [٥] ، ومع ابن حمديس [٦] ، ومـــع ابن الصباغ [٧] ، وغيرهم . كذلك اولع المعتمد بالاجازة في الشعـــر فكان كثيرا مـــا ينظم بيتا او شطرا من بيت ويطلب من الشعراء ان يجيزوه [٨].

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص١٧ ـ ١٩ . راجع ص٦١و١٥٧ من هذه الاطروحة

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٥ ، الكاتب الاصفهاني، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩٥ ، ابن الابار، في دوزى ، ج ٢ ، ص٨٤ .

(٣) راجع شعره في الرسائل في ديوان المعتمد ، ص٤٩ ـ ٦٧ .

(٤) المقرى ، ج ٢ ، ص٦١٤ ـ ٦١٧

(٥) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص٣٠٩ ـ ٣١٤

(٦) المقرى ، ج ٢ ، ص٤١٦ ـ ٤١٧

(٧) المقرى ، ج ٢ ، ص ٤١١ ، راجع ص ١٢٩ من هذه الاطروحة

(٨) راجع ص١٢٩و١٣٣ من هذه الاطروحة وديوان المعتمد ، ص٧٤ ـ ٧٦

ومن شعر المعتمد في هذا الباب شعر المعميات التي دارت بينه وبين وزيره ابن زيدون ، فكان احدهما يرسل الى الاخر قصيدة يشير بها الى بيت او اكثر من الشعر ويرمز الى كل حرف من حروفه باسم طير ، ويسمى البيت المرموز اليه بالمطير والقصد من هذا ، التسلية والتلهي بالشعر[1] وهذا الشعر ايضا الذى نظمه المعتمد في المناسبات والاجازة والمعميات لا يخرج عن كونه نظما سطحيا ليس فيه شيء من معاني الشعر العميقة ولا اخيلته الجميلة . وقد حمله على نظم مثله شيوع هذه العادة في النظم من جهة وحب المعتمد للشعر وتلهيه بقوله وتفرغه له من جهة اخرى . وانما ذكرنا ذلك النوع من شعره للدلالة على مدى اهتمام المعتمد بالشعر وانشغاله بقوله .

ذلك كان شعر المعتمد في الاغراض والمعاني التي كانت تمليها عليه ظروف حياته الملكية والشخصية ، على ان الدهر كان يخبيء للمعتمد ظروفا ومناسبات اخرى اعمق اثرا في حياته واكثر شحذا لقريحته الشعرية وذلك في النكبة التي حلت به في اواخر حياته فنظم فيها ارق شعره واجوده الذى يعد من عيون الشعر الانساني بما فيه من عذوبة وعاطفة وصدق لهجة وبعد تأثير في القارىء

أسره

يدور شعر المعتمد في اسره حول ثلاثة اغراض او معان رئيسية هي الرثاء ، رثاء ولديه اللذين قتلا في النكبة ، والشكوى وبث الالم ثم ما تخلل تلك القصائد العديدة التي نظمها في هذين الغرضين من معاني الزهد وتعمد الحكم والتأمل في الحياة والاستسلام لمشيئة الله .

---

(١) راجع مثالا من هذه المعميات في المقرى ، ج ٢ ، ص ٦١٤ - ٦١٧ ، وشعر المعميات في ديوان المعتمد ، ص ٧٧ - ٨٦ .

- لقد نالت الالام من المعتمد واذابت مهجته واستولى عليه الجـزع ولا سيما وقد ثكلته النكبة بولديه فقال وقد اذكى الحزن قريحـته فاجاد تصوير الالم بوصف مشاركة الطبيعة له في التفجع والبكاء :

يقولون صبرا لا سبيل الى الصبر ... سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
نرى زهرها في مأتم كل ليلـة ... يخمشن لهفا وسطه صفحة البدر
ينحن على نجمين اثكلت ذاوذا ... واصبر ؟ ما للقلب في الصبر من عذر
مدى الدهر فليبك الغمام مصابه ... بصنويه يعذر في البكاء مدى الدهر
بعين سحاب واكف قطر دمعها ... على كل قبر حل فيه اخو القـطر
وبرق ذكي النار حتى كـأنمـا ... يسعر مما في فؤادي من الجمـر

- ويقول فيها متفجعا :

هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقـه ... يزيد فهل بعد الكواكب من صبر
هوى بكما المقدار عني ولم امت ... وادعى وفيا ! قد نكصت الى الغدر
توليتما والسن بعد صغيـرة ... ولم تلبث الايام ان صغرت قدري

- والمعتمد في رثائه لا ينسى المه وذل حاله والم قيوده ، يقول :

فلو عدتما لاخترتما العود للثرى ... اذا انتما ابصرتماني في الاسر
يعيد على سمعي الحديد نشيده ... ثقيلا فتبكي العين بالجس والنقر

ويقول ذاكرا زوجته وبناته وتفجعهن وبكاءهن

معي الاخوات الهالكات عليكمـا ... وامكما الثكلى المضرمـة الصدر

تبكي بدمع ليس للقطر مثلـه وتزجرها التقوى فتصغي الى الزجر[١]

- ويتذكر المعتمد ولديه عندما يرى قمرية على شجرة امامها وكر فيه طائران، يقول :

بكت ان رأت الفين ضمهما وكـر مساء وقد اضنى على الفها الدهر
وناحت وباحت فاستراحت بسرها وما نطقت حرفا يبوح به سـر
فمالي لا ابكي ! ام القلب صخرة وكم صخرة في الارض يجري بها نهر
بكت واحدا لم يشجها غير فقـده وابكي لالاف عديدهم كـثـر
بني صغير او خليل موافـق يمزق ذا قفر ويغرق ذا بحـر
ونجمان زين للزمان احتواهما بقرطبة النكراء او رندة القـبـر
غدرت اذن ان ضن جفني بقطره وان لؤمت نفسي فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكي معـي لمثلها فلتحزن الانجم الـزهـر[٢]

وقال فيهما ايضا

يا غيم عيني اقوى منك تهتانـا[٣] ابكي لحزن وما حملت احـزانا
ونار برقك يخبـو اثر وقد تهـا ونار قلبي يلقى الدهـر بركـانا

ومنها يقول

يا فلذتي كبدي يأبى تقطعهـا عن وجدها بكما ما عشت سلوانا

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٣ - ١٤ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩٦
(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٣ ، ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣١٤ ، المقـرى ج ٢ ، ص ٦٠١ - ٦٠٢ .
(٣) هكذا في الديوان ولعله اصح مما ورد في الذخيرة يا عين ... بهتانا

وقال ذاكرا امهمـا

مني السلام ومن ام مفجعـــة ... عليكما ابدا مثنى ووحدانـا

ابكي وتبكي ، ونبكي غيرنا اسفا ... لدى التذكر نسوانا وولدانا (١)

حلت النكبة بالمعتمد فجرحه قتل ولديه في صميم قلبه وافجعه فقد ملكه وآلمه نفيه عن بلاده وعضه واذله الاسر والقيود فكان من ذلك كله ان تفجرت عاطفتـــه شعرا ظل ينفث فيه شجونه حتى آخر ايامه . وشعر المعتمد في السنوات الاربع التي قضاها في الاسر تاريخ لنكبته ووصف لايامه تلك . على اننا نرى في شعره الذي قاله في بدء محنته مع حزنه العميق والمه الشديد كثيرا من الاباء والعزة التي ظلـت قوية فيه حتى بعد المحنة . اسمعه يقول بلهجة الفارس الشجاع وانفة الملـك العزيز يصف قتاله الاخير.

لما ثمـا سكـت الدموع ... وتنبـه القلب الصديع

وتناثرت لهمي لمـا ... يستاقها الخطب الفظيع

قالوا الخضوع سياسـة ... فليبد منك لهم خضوع

والذ من طعم الخضـو ... ع على فمي السم النقيع

ان يسلب القوم العدى ... ملكي وتسلمني الجمـوع

فالقلب بين ضلوعـه ... لم تسلب القلب الضلوع (٢)

وكان المعتمد في شعره الذي قاله في اوائل محنته يأبى ان يظهر الالم والحـزن

---

(١) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣١٦

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٤ ، ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ ، ابن الابار ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٧٠ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٦٢٢ .

فيقول وقد تذكر قصوره التي خلفها فنسب اليها الحزن والبكاء عليه بدل ان ينسب البكاء عليها لنفسه

بكى المبارك في اثر ابن عباد ... بكى على اثر غزلان وآساد
بكت ثرياه لا غمت كواكبها ... بمثل نوء الثريا الرائح الغادي
بكى الوحيد بكى الزاهي وقبته ... والنهر والتاج كل ذله باد (١)

والمعتمد لا ينسى محنته والمه يوم اخرج عن وطنه وملكه يقول وقد سير به في البحر الى طنجة :

لم انس والموج يدنيني ويقصيني ... والموت يكاد من الربان يأتيني
ابصرت هولا لو ان الدهر ابصره ... لا بصر الدهر امرا ليس بالدون (٢)

وهكذا يظل حزن المعتمد اول امره هادئا عميقا يتجلى في شعره عندما يقول وقد رأى وهو في طريقه الى منفاه - وقد وقفوا ببلد من بلاد المغرب - اهل البلد خارجين للاستسقاء

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم ... دمعي ينوب لكم عن الانواء
قالوا حقيقا في دموعك مقنع ... لكنها ممزوجة بدماء (٣)

ويظل للمعتمد شعور الاعتداد بنفسه وبسلطانه القديم فيصف نكبته واثرها في الارض كلها وذلك باسلوب جزل قوي ، يقول :

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص٢٦ ، المقري ، ج ٢ ، ص٦١٩
(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص٨٢ - ٨٣
(٣) الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص٣٨٣ .

انباء اسرك قد طبقن آفاقـا بل قد عممن جهات الارض اقلاقا
سرت من الغرب لا تطوى لها قدم حتى اتت شرقها تنعاك اشراقا
فاحرق الفجع اكبادا وافئـــدة واغرق الدمع آماقا واحداقـا
قد ضاق صدر المعالي اذ نعيت لها وقيل ان عليك القيد قد ضاقـا
انى غلبت وكنت الدهر ذا غلب للغالبين وللسباق سباقـــا
قلت الخطوب اذ لتني طوارقهـا وكـان عزمي للاعداء طـراقا
حتى رأيت صروف الدهر تاركـة اذا انبرت لذوي الاخطار ارماقا (١)

ويصف المعتمد سوء حاله ويقابلـه بعزه الماضي ومجده الزائل عندما اجاب ابنـه الرشيد الذى كتب اليه يستعطفه وقد عتب عليه المعتمد :

يا حليـف الندى ورب السماح وحبيب النفوس والارواح
من تمام النعمى علي التماحـي لمحة من جبينك الوضاح

اجاب المعتمد قائلا :

كنت حلف الندى ورب السماح وحبيب النفوس والارواح
اذ يميني للبذل يوم العطايا ولقبض الارواح يوم الكفاح
وشمالي لقبض كل عنـــان يقحم الخيل في مجال الرماح
وانا اليوم رهن اسر وفقـــر مستباح الحمى مهيض الجناح
لا اجيب الصريخ ان حضر النـا س ولا المعتفين يوم السمـاح

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٩ - ٣٠ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٧٥

فالتماحي الى العيون كريـــه ولقد كان ترفـة اللمـاح (١)

ويحن المعتمد الى ايام بطولته وشجاعته وذلك عندما سمع وهو في منفاه بثورة ابنه عبد الجبار يقول

كذا يهلك السيف في جفنه الى هزكفي طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم اعتقله ولم تروه من نجيع يميني
كذا يمنع الطرف علك الشكيـــــم مرتقبا غره في كميـــن
الاشرف يرحم السمهـــري ويشفيه من كل داء دفيـن
الاحنّة لابن محنيـــة شديد الحنين طويل الانين
يؤمل في صدرها ضمـــة تبوئه صدر كف معيـــن (٢)

- ويظل المعتمد متذكرا ماضيه المجيد في الملك والحرب والجود حتى في اشد حالات حزنه ، يقول من قصيدة يأسى فيها على عزه وقصوره :

غريب بارض المغربين اسيـر سيبكي عليه منبر وسريـــر
وتندبه الصوارم والقنـــا وينهل دمع بينهن غـزير
سيبكيه في زاهيه والزاهر الندى وطلابه والعرف ثم نكـــير
اذا قيل في اغمات قدمات جوده فما يرتجى للجود بعد نشور
مضى زمن والملك مستأنس به واصبح عنه اليوم وهو نفور (٣)

---

(١) ابن الابار ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٧٤
(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣٠ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٧٥ - ٥٧٦
(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٧ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٦٢٠ ، ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣١٨ .

- على ان ذلك الحزن الهادئ الابي لا يلبث ان يتحول الى بكاء شعرى مؤثر يصفه المعتمد في مقطوعة قالها وقد مر به سرب قطا فاستثار شجونه وتملكه من الحزن اشده :

بكيت الى سرب القطا اذ مرون بي ... سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك - والله المعيذ حسادة ... ولكن حنينا ان شكلي لها شكل
فاسرح لا شملي صديع ولا الحشا ... وجيع ولا عيناي يبكيهما ثكل
هنيئا لها ان لم يفرق جميعها ... ولا ذاق منها البعد من اهلها اهل
وان لم تبت مثلي تطير قلوبها ... اذا اهتز باب السجن او صلصل القفل
لنفسي الى لقيا الحمام تشوف ... سواي يحب العيش في ساقه حجل
الاعصم الله القطا في فراخها ... فان فراخي خانها الماء والظل (١)

وهكذا كان الحزن يحمل المعتمد على تمني الموت مع انه قال يوما :

لو ان عمرك الف عام كامل ... ما كان حقا ان يقال طويل (٢)

- واكثر ما كان يؤلم المعتمد ويكرهه بالحياة ان يرى عائلته معذبة محتاجة مما اضطر بناته الى الغزل باجرة حتى يتعيشن . حدثوا ان كان ابو العلاء ابن زهر بمراكش وقد استدعاه ابن تاشفين لعلاجه فكتب اليه المعتمد طالبا منه ان يأتي لعلاج زوجته ، فاجابه ابو العلاء الى طلبه برسالة دعا له فيها بطول البقاء فقال المعتمد في ذلك :

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣١ - ٣٢ ، ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣١٦ - ٣١٧ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ - ٥٧٨ .

(٢) راجع ص ١٤٩ من هذه الاطروحة

دعا لي بطول بالبقاء وكيف يهوى ... اسيران يطول به البقاء
اليس الموت اروح من حيـــاة ... يطول على الشقي بها الشقاء
فمن بك من هواه لقاء حـــب ... فان هواي من حتفي اللقاء
أأرغب ان اعيش ارى بناتـــي ... عواري قد اضر بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان اعلـــى ... مراتبه ـ اذا ابدو ـ النداء (١)

- وذكروا ان دخلت عليه بناته في يوم عيد وعليهن اطمار بالية متذكر عزهن الســابق وما كن ينعمن فيه من ترف ورخاء فقال :

فيما مضى كنت بالاعياد مسرورا ... فعادك العيد في اغمات مأسورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة ... يغزلن للناس لا يملكن قطميـــرا
برزن نحوك للتسليم خاشعـــة ... ابصارهن حسيرات مكاسيـــرا
يطأن في الطين والاقدام حافية ... كانها لم تطأ مسكا وكافـــورا
لا خـد الا ويشكو الجدب ظاهره ... وليس الا مع الانفاس ممطـــورا
افطرت في العيد لاعادت اساءته ... فكان فطرك للاكباد تفطيـــرا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا ... فردك الدهر منهيا ومأمـــورا
من بات بعدك في ملك يسر به ... فانما بات بالاحلام مغرورا (٢)

وانتاب المعتمد لوعة وحزن شديدان عندما اطلق سراح جماعة من الاسرى من فاس كان بينهم ادباء وكان المعتمد يقضي معهم اوقاتا يتسلى بها عن حزنه فلما رحلوا عنـــه

---

(١) المراكشي ، ص ١٥٥

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ، ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣١٧ ، النويرى ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ، ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤٣ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٦١٨ ـ ٦١٩ .

وخلف وحده قال :

اما لانسكاب الدمع في الخد راحة ... لقد آن ان يغنى ويغني به الخد
تخلصتم من سجن اغمات والثوت ... على قيود لم يحن فكها بعد
خرجتم جماعات وخلفت واحدا ... ولله في امري وامركم الحمد (١)

وكانت تهيج المعتمد الذكرى ويتملكه الحنين الى ايام عزه وجوده عندما يمر به الشعراء زائرين احيانا ومادحين ومستجدين احيانا اخرى فلا يستطيع ان يكافئهم ويعجز في نفسه الحزن لضيق ذات يده ، فقد وجه الى ابن اللبانة الذى زاره في سجنه بما يستطيع من مكافأة ماليةومعها هذا الاعتذار:

اليك النزر من كف الاسير ... فان تقبل تكن عين الشكور
تقبل ما يذوب له حياء ... وان غدرته حالات الفقير
وج لجبره عقبى يداه ... فكم جبرت يداه من كسير (٢)

ووجه الى شاعر اخر بهذه الابيات :

لو استطيع على التزويد بالذهب ... فعلت لكن عداني طارق النوب
اصبحت صفرا يدي ما تجود به ... ما اعجب القدر المقدور في رجب
ذل وفقر ازالا عزة وغنى ... نعمى الليالي من البلوى على كثب
قد كان يستلب الجبار مهجته ... بطشي ويحيا قتيل الفقر في طلبي (٣)

---

(١) ابن خاقان، القلائد ، ص ٣٠ - ٣١ ، المقرى ،ج ٢ ،ص٥٧٦ - ٥٧٧ .
(٢) ابن بسام ، في دوزى ،ج ١ ،ص٣٠٩ - ٣١٠ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ،ج ١ ،ص٣٩٧
(٣) ابن بسام ، في دوزى ،ج ١ ،ص٣١٤ .

على ان حزن المعتمد ويأسه كانا يبلغان اقصى حدودهما كلما ذكر قيوده وما كانت تلحقه فيه من الم وذل فيتشكى في شعره ويألم ويذكره ذله بعزه الزائل فيقول :

تبدلت من عز ظل البنـــود ... بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سنانا ذليقـا ... وعضبـا رقيقا صقيل الحديد
فقد صار ذاك وذا اد همـــا ... يعض بساقي عض الاســـود (١)

- ودخل عليه ابنه المكنى بابي هاشم وهو يرسف في قيوده فخنقت الطفل العبـرة فقال المعتمد في ذلك :

قيدي اما تعلمني مسلمـا ... ابيت ان تشفق او ترحما
دمي شراب لك واللحم قد ... اكلته لا تهشم الاعظمـا
يبصرني فيك ابو هاشـــم ... فينثني القلب قد هشما
ارحم طفيلا طائشا لبـه ... لم يخش ان يأتيـــك مسترحما
وارحم اخيـــات له مثله ... جرعتهن السم والعلقمـــا
منهن من يفهم شيئا فقد ... خفنا عليه للبكاء العمـــى
والغير لا يفهم شيئا فما ... يفتح الا لرضاع فمـــا (٢)

وله في وصف القيد الذى تفنن المعتمد في تصويره

غنتك اغطاتيـة الالحان ... ثقلت على الارواح والابدان
قد كان كالثعبان رمحك في الوغى ... فغدا عليك القيد كالثعبان

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٥ ، ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣١٨ ، المقرى ج ٢ ، ص ٥٧٠

(٢) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣١٧ ، ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤٤ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٧٣ .

متمددا بحذاك كل تمدد متعطفا لا رحمة للعاني

الى ان يقول :

يا سائلا عن شأنه ومكانه ما كان اغنى شأنه عن شاني
هاتيك قينته وذلك قصره من بعد اي مقاصر وقيان
من بعد كل غريرة روميـة تحكي الحمائم في ذرى الاغصان (١)

ومما لا شك فيه ان القيود في ايدي المعتمد وارجله التي كانت تؤلمه بما تحمل رؤيتها من ذل وهوان ، كانت ايضا تؤلمه بحديدها الماجسديا يشبهه المعتمد بالعض اكثر من مرة ، يقول مثلا :

تعطف في ساقي تعطف ارقم يساورها عضا بانياب ضيغم
اليك فلو كانت قيودك اسعرت تضرم منها كل كف ومعصم
مخافة من كان الرجال بسيفه ومن سيفه في جنة وجهنم (٢)

- ولما احس المعتمد بقرب وفاته نظم شعرا رثى فيه نفسه واودعه ما تبقى منها من شعور بالعز والاباء والذكرى قال فيه :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقا ظفرت باشلاء ابن عباد
بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا بالخصب ان اجدبوا بالري للصادي
نعم هو الحق وافاني به القدر من السماء فوافاني لميعادي

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٩ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ - ٥٧٥ .

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٥ ، ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٠٣ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩٥ ، ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٧٠ ، النويرى في دوزى ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٧٠ .

ولم اكن قبل ذاك النعش اعلمه ... ان الجبال تهادى فوق اعواد

كفاك فارفق بما استودعت من كرم ... رواك كل قطوب البرق رعاد

يبكي اخاه الذى غيبت وابلـه ... تحت الصفيح بدمع رائح غـاد

حتى يجودك دمع الطل منهمرا ... من اعين الزهر لم تبخل باسعاد

ولا تزال صلوات الله نازلـة ... على دفينك لا تحصى بتعـداد (١)

- هذا وقد كان لهذه المحنة التي حلت بالمعتمد اثرها في نفسيته وفي فلسفته ، فكثيرا ما كان الحزن والالم يحملان المعتمد على التأمل فيبدي رأيه في الدهر ومصائبـه وفي الحياة وتفاهتهـا وينثر هذه التأملات في شعره فتخرج من اعماق نفسه هادئـة مؤثرة وان لم تكن جديدة في معانيها يقول مثلا :

ارى الدنيا الدنيـة لا تواتـي ... فاجمل في التصرف والطـلاب

ولا يغررك منها حسن بـرد ... له علمان من ذهب الذهـاب

فاولها رجاء في سـراب ... واخرها رداء في سـراب (٢)

ويقول ذاما الدهـر :

قبح الدهر فماذا صنعـا ... كلما اعطى نفيسا نزعـا

قد هوى ظلما بمن عـادته ... ان ينادي كل من يهوى لعا (٣)

ويقول مما يدل على تشاؤمه ويأسه :

---

(١) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ ، المراكشي ، ص ١٥٩ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٨٤ .

(٢) ابن الابار ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٧١

(٣) المقرى ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ .

تؤمل للنفس الشجيـة رجعة وتأبى الخطوب السود الاتماديا
لياليك في زاهيك اصفى صحبتها كذا صحبت قبل الملوك الليـاليا
نعيم وبؤس ذا لذلك ناسـخ وبعدها نسخ المنايا الامانيا (١)

وفي قصيدة اخرى يقول :

الملك لا يبقي علـى احـد والموت لا يبقى له احـد (٢)

ويتعمد الحكمة والمثل احيانا فيقول :

من يصحب الدهر لا يعدم جوازيه والشوك ينبت فيه الورد والآس (٣)

- ومعظم تأملات المعتمد وآرائه التي ضمنها شعره في آخر ايامه تدور على ان الدهـر بَدَهِيَة قلب لا يبقى على احد ولا ينفع الانسان احتياطه ، وهي اقوال ومعان جنيهية معروفة شائعة ، جاء بها المعتمد باسلوب بسيط عادى . وما كانت تستحق الذكر لو لـم يقلها المعتمد صادقا معبرا عن اختبار وشعور وهذه الحقيقة فيها هي التي تضفـى على هذه التأملات حيوية وتجعل لها قيمة ادبية .

وجدير بالذكر ان المعتمد يكثر من ذكر الله في شعره الاخير الذى قاله في نكبته . فهو وان بدا متشائما يائسا احيانا غير ان استسلامه كان في الغالب استسلاما لمشيئـة الله . وكأن اباء المعتمد وعزة نفسه كانا يأبيان عليه ان يكون استسلامه الا لله وان

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص٢٩ ، المقرى ،ج ٢ ،ص٥٧٥ .
(٢) ابن بسام ، في دوزى ،ج ١ ،ص٣٠٦ .
(٣) الصفدي ، ج ٢ ، ص٢٦٤ .

يكون رجاؤه الا في الله . اسمعه يقول في احدى قصائده وقد حن الى ايامه الماضية في قصوره وجنائنه :

فيا ليت شعرى هل ابيتن ليلة امامي وخلفي روضة وغدير
تراه عسيرا لا يسيرا منالـــه الاكل ما شاء الاله يسير (١)

ويقول في اخرى :

اقنع بحظك في دنياك ما كانا وعز نفسك ان فارقت اوطانا
في الله من كل مفقود مضى عوض فاشعر القلب سلوانا وايمانا (٢)

ويأس المعتمد من الحياة والامها يلجئه الى الله واضعا امله فيه :

قلبي إلى الرحمن يشكو بثـــه ما خاب من يشكو الى الرحمن (٣)

ويقول مستغفرا الله عما يبديه من تشكك

اسر وعسر ولا يسر اؤملـه استغفر الله كم لله من نظـر (٤)

وعندما يفقد كل امل له في الدنيا يطلب الاجر في الاخرة يقول :

يا رب ان لم تهب حالا اسر به فهب لعبدك اجرا غير ممنون (٥)

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٧ ، ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣١٨ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٦٢٠ .

(٢) المقرى ، ج ٢ ، ص ٥١١

(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٩ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٧٥ .

(٤) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣١٩ .

(٥) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

هذا هو شعر المعتمد في نكبته ، فيض من العاطفة والالم تسيل فيه قريحة الملك الشاعر شعرا عذب الاسلوب رقيق الحواشي صادق التعبير . رسم فيه صورة نفسه الحزينة التي لاقت من العذاب والمذله بعد العز صنوفا فجرت ينابيع شعره . وان شعر المعتمد في نفيه ليذكرنا بشعر ابي فراس في اسره ، فكل منهما لاقى الهوان والالم بالاسر وكل منهما ذاق ذلك بعد عز ملك وصفاء عيش ، كما كان لكل منهما حظ من الشجاعة والسماحة والانتصار حرماها في الاسر ، فعمدا في بلائهما الى الشعر يسكبان فيه عصارة المهما . فجاء شعرهما انسانيا رائقا يثير اللوعة ويحرك العواطف . وقد يكون المعتمد اكثر حظا من الخيال واروع صورا واعمق نظرا في تقلب الدهر واحوال الايام واكثر اثارة للعاطفة من ابي فراس ، ذلك لان النكبة التي حلت بالمعتمد كانت اعمق جرحا واشد اثرا في حياته من تلك التي حلت بالامير . ولئن قيل في ابي فراس ختم الشعر بملك فان المعتمد احق بهذا القول منه لانه مارس الملك وعاش في عزه وذاق سلطانه وقام بمهامه وعرف اتعابه ومسؤولياته ، ولم يشغله كل ذلك عن الادب والشعر . فهو بذلك جدير بلقب الملك الشاعر كل الجدارة .

تقييم شعر المعتمد بالنسبة الى الشعر الاندلسي

لقد عرضت فيما سبق لشعر المعتمد من حيث انطباقه على حياته السياسية والشخصية كما تناولت شيئا من شعره في مختلف اغراضه بالتحليل والتقييم بقي لي ان اكرس هذه الكلمة الاخيرة لدراسة المعتمد كشاعر اندلسي وتبيان العلاقة بين شعره وشعر عصره لنرى الى اى حد كان المعتمد شاعرا اندلسيا بارزا مثلما كان ملكا اندلسيا بارزا . وسأورد قبل التعرض لهذه الدراسة بعضا من آراء الادباء الاندلسيين والمصنفين القدامى في اداب الاندلس ، في شعر المعتمد مما يدل على انه كان في رأى اهل عصره ، والعصور التي تلت عصره احد شعراء الاندلس المجيدين .

كان ابن بسام - وهو المعروف ببعد نظره في الشعر وتصديه لنقد الشعراء الذين عرض للتعريف بهم - معجبا بشعر المعتمد . وقد قال في كلام له عن المعتمد وشعره انه كان متمسكا من الادب بسبب وضاربا في العلم بسهم وله شعر كما انشق الكمام عن الزهر ولو صدر مثله عمن جعل الشعر صناعة واتخذه بضاعة لكان رائقا معجبا ونادرا مستغربا ، فما ظنك برجل لا يجد الا راثيا ولا يجيد الاعابثا وهو مع ذلك يرمي فيصيب ويهمي فيصوب وشعره يوضح ما شرح ويعبر ما ذكر (١).

ولعل اكثر الادباء عناية بتقييم شعر المعتمد ابن الصيرفي الذى اورد ابن

---

(١) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٢٩٧ .

الخطيب رأيه في شعر المعتمد قال : " قال ابن الصيرفي ، المعتمد ابن عباد نسيج وحده في الجود واصلب نظرائه مكسر عود ، فذ في البلاغة ، طرف في الشعر والكتابة بارع النظم والنثر ، كثير الادب جزل الالفاظ كثير المعاني ، حر المآخذ ، لدن معاطف الكلام ، رقيق الحاشية ، كثيف المتن ، كثير البديع ، رائق الديباجة ، لائق الاستعارة ، حسن الاشارة جم التوليد ، لم ينشده من الوزراء والشعراء اشعر منه ، على كثرة ما اجتلب اليه من اعلاق الثناء ونثر عليه من در الحمد ووضع في يديه من بر القريض " (١)

ولسنا بحاجة الى ايراد كلام ابن اللبانة في شعر المعتمد ، ويكفي ان نعلم ان ابن اللبانة الف مصنفا سماه نظم السلوك في وعظ الملوك قصره على المعتمد واشعاره في السجن واشعار اولاده (٢) . كما ذكروا له كتابا اخر في شعر بني عباد اسمه سقيط الدرر ولقيط الزهر (٣). كذلك فان شعر المعتمد مرتفع في نظر ابن خاقان (٤)، وابن الابار (٥)، كما اورد المقرى عشرات الاقوال لجامعي ادب الاندلس ورواته مما فيها اطراء لشعر المعتمد . ومهما يكن في اقوال الادباء من مبالغات احيانا وتعصب لشعراء الاندلس احيانا اخرى ، فان هذه الاقوال تدل على منزلة شعر المعتمد عند اهل عصره وعند من جاءوا بعده وعنايتهم بدرسه ، كما

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٥٧

(٢) الصفدي ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ ، المقرى ج ٢ ، ص ٥٧١

(٣) ابن شاكر الكتبي ، ج ٢ ، ص ٣٢٥

(٤) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٥

(٥) ابن الابار ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

يدل على ان المعتمد،الذي كثيرا ما اسقط ذكره في دراسة الادباء المحدثين ، كان عند اهل عصره احد شعرائهم المرموقيـن ٠

هذا وليس غريبا ان يعد المعتمد احد شعراء الاندلس البارزين ،اذ ان شعره ينطبق في اغراضه ومعانيه واسلوبه الى حد كبيرعلى الشعر الاندلسي ، فهو في اغراضه غنائي كماكان معظم الشعر الاندلسي ،وهوفي معانيه وتصويراته مقلـد في الكثير من شعره لمعاني شعر المشرق وتصويراته كما كان الشعر الاندلسي مقلدا لشعر المشرق في هذه المناحي ، وهو في اسلوبه رقيق جزل كما كان معظم الشعـر الاندلسي ٠ وما من ميزة تذكرعن الشعر الاندلسي عامة الا وتنطبق على شعر المعتمد ان قليلا اوكثيرا ٠ لكن هناك خصائص يتميز بها شعر المعتمد لا تنطبق على جميع الشعر الاندلسي ٠

لقد سبق وذكرنا ان المعتمد نظم في معظم اغراض الشعر التي شاعت فـي العصر الاندلسي ، نظم في الفخر والغزل والوصف والرثاء والشكوى والحنين والعتاب والزهد وفي اغراض المخاطبات والمراسلات والاجازات التي كانت شائعة في عصـره ٠ فاذا تميز الشعر الاندلس بالاكثار من ذكـر الاوطان والحنين الى ربوعها فقد ورد للمعتمد شعر في مثل هذا المعنى ، منه ما قاله في الحنين الى شلب وايامـه فيها ٠ واذا عني بعض الشعراء الاندلسيين برثاء الممالك الزائلة فقد كان كذلك للمعتمد في التفجع على مملكته وسلطانه اقوال مؤثرة جميلة ٠ ومع ان المعتمـد شغل بمهام حكمه وترف حياته الملكية عن الطبيعة ومناظرها فانه جارى شعـراء الاندلس في ولعهم بذكر الطبيعة الموثقة والتغزل بها ووصف مظاهر العمران الحديثة

في الاندلس ، فاكثر مثلا من ذكر البدر والهلال والرياض في اثناء وصفه للحسان والخمر ومجالس اللهو والانس التي شغله وصفها ، كقوله في وصف فتاة :

هي الظبي جيدا والغزالة مقلة ... وروض الربى عرفا وغصن النقا قدا (١)

ويتذكر محبوبته بتثني الغصن وهبوب النسيم وطلوع الشمس، يقول :

يذكرنيك الغصن يهتز عندما ... يهب نسيم والغزالة تطلع (٢)

وتسترعي الطبيعة اهتمامه في ليالي انسه وشربه فيصف الليل والبدر بقوله :

ولقد شربت الراح يسطع نورها ... والليل قد مد الظلام رداء

حتى تبدى البدر في جوزائه ... ملكا تناهى بهجة وبهاء

لما اراد تنزها في غربة ... جعل المظلة فوقه الجوزاء

وتناهضت زهر النجوم يحفه ... لالأؤها فاستكمل اللألاء (٣)

والمعتمد اذ يقدم قصيدة اعتذار لابيه لا يجد لها شبها احسن من الروضة يقول في آخر تلك القصيدة :

اليك روضة فكر جد منبتها ... ندى يمينك لا طل ولا مطر

جعلت ذكرك في ارجائها زهرا ... وكل اوقاتها للمجتنى ثمر (٤)

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١١ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٦٢٣

(٢) ديوان المعتمد ، ص ٢٠

(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٦

(٤) ابن الابار ، في دوزى ، ج ٢ ، ص ٦٥ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩٤ ، ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٠٠ .

اما مجاراة المعتمد شعراء عصره في الجري وراء معاني الشعر المشرقي وافكاره ومحاكاته في تشبيهاته وصوره فهو ظاهر في جميع شعره . فشعره وان تميز في الغالب بصدق عاطفته ورقة اسلوبه فانه مقلد في بعض معانيه وصوره لمعاني الشعر في المشرق وصوره . وقد فطن لهذا بعض المصنفين في الادب الذين ترجموا للمعتمد واوردوا شعره . قال ابن بسام مثلا في بيت المعتمد :

ما سرت قط الى القتال وكان من املي الرجوع

" قوله هذا كقول قيس ابن الخطيم

واني في الحرب الضروس موكل بتقديم نفس لا اريد بقاءها "

ثم يزيد ابن بسام ان بيت المعتمد هذا يشبه ايضا قول احد الخوارج في وقعة قديد ايام مروان الجعدي ، حين تمثل الخارجي وقد خرج اليه ابو دلامة ليحاربه طمعا في خمسة الاف كان مروان قد ندبها لمن يقاتله قال :

وخارج اخرجه حب الطمع فر من الموت وفي الموت وقع

من كان ينوي اهله فلا رجع (١)

وقد علق صاحب الخريدة على بيت المعتمد نفسه وشبهه بقول الخارجي هذا (٢).

وعلق ابن بسام ايضا علي قول المعتمد :

اي نفع يجدي احتياط شفيق مت ضرا فكيف ارهب ضرا

---

(١) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩٦ ، الصفدى ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

قال : " وهذا المصراع الاخير كأنه الى بيت ابي الطيب يشير

انا الغـــريق فما خوفي من البلـــل " (١)

وذكر ابن بسام قول المعتمد :

بكت ان رأت الفين ضمهما وكـــر مساء وقد اضنى على الفها الدهر

بكت لم ترق دمعا واسبلت عبرة يقصر عنها القطر مهما همى القطـــر

وناحت وباحت واستراحت بسـرها وما نطقت حرفا يبوح به ســـــر

وقال " وهذه القطعة يشبه اولها قطعة عوف ابن ملحم وما اراه الا بها الم وعلى منوالها سدى والحم وهي :

وآرقني بالرن نوح حمامـــــة فنحت وذو الشجو الغريب ينوح

على انها ناحت ولم تذر عبـــرة ونحت واسراب الدموع سفـــوح

وناحت وفرخاها بحيث تراهمـــا ومن دون افراخي مهامه فيـح (٢)

ويورد ابن بسام بيتي المعتمد اللذين قالهما من قصيدة يصف فيها السجن وقد مر به سرب قطا لا يعرف الهم :

هنيئا لها ان لم يفرق جميعها ولا ذاق منها البعد من اهلها اهل

وان لم تبت مثلي تطير قلوبها اذا اهتز باب السجن او صلصل القفل

وما ذاك مما يعتريني وانمـــا وصفت الذي في جبلة الخلق من قبل

---

(١) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣١١

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

ويقول ابن بسام " ومعنى هذا البيت الاخير يشبه قول ابي عامر ابن شهيد

وما اهتز باب السجن الا تغطرت قلوب لنا خوف الردى وكبود
ولست بذي قيد يرن وانما على اللحظ من سخط الانام قيود

ويشبه قول السمهرى العكبي من شعراء الدولة الاموية في العراق :

اذا حرسي قعقع الباب ارعدت فرائص اقوام طارت قلوبها
ترى الباب لا تستطيع شيئا وراءه كانا قسي اسلمتها كعوبها (١)

ويذكر عماد الدين المعروف بالكاتب الاصفهاني ايضا ما أخذه المعتمد عن معاني اهل المشرق في قوله

لاح وفاحت روائح الند مهتصر الخصر اهيف القد
وكم سقاني والليل معتكر من جامد الماء ذائب الورد

قال " وقد اكثر الشعراء من اخذ هذا وتصرفوا في قول ابن المعتز

وخمارة من بنات المجوس ترى الدن في بيتها شائلا
وزنا لها ذهبا جامدا فكالت لنا ذهبا سائلا " (٢)

هذا ما ذكره ابن بسام والكاتب الاصفهاني في تقليد المعتمد لبعض معاني شعراء المشرق وصورهم ولو اردنا التفصيل في هذا لوجدنا في شعره غير هذه الابيات والمعاني مما شابه فيها المعتمد اقوال شعراء المشرق ولقلنا مثلا في ابياته التي قالها وقد

---

(١) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .
(٢) الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩٣ .

رأى قمرية نائحة "بكيت ان رأت الفين ضمهما وكر"[1] انها تشبه ابيات ابي فراس- وهناك اكثر من شبه بين الشاعرين - التي مطلعها :

اقول وقد ناحت بقربي حمامة ايا جارتا هل تشعرين بحالي

ولقلنا في بيتيه :

ويوم يقول الرسول قد اذنت فأت على غير رقبة ولج

اقبلت اهوي الى رحالهم اهدى اليها بريحها الارج [2]

ان الثاني يشبه في معناه قول عمر ابن ابي ربيعة في الرائية

فدل عليها القلب ريا عرفتها لها وهوى النفس الذى كاد يظهر

اقول لو اردنا التفصيل في هذا الكلام لوجدنا الكثير من التشابه بين شعر المعتمد وشعر اهل المشرق ، اما لكونه قصد التقليد والاخذ او لانه عمد الى معان قريبة المتناول عادية الافكار تخطر ببال كل شاعر مع العلم بان التقليد لشعر المشرق لم يكن عند شعراء الاندلس مما يشين لانهم عمدوا الى ذلك عن قصد ، لما كان للمشرق وشعره من اجلال عندهم ولاعتقادهم انه هو الاصل الذي يرجع اليه والقالب الذى ينسج على منواله ، يؤكد لنا ذلك اننا لا نشعر في كلام ابن بسام انه يذكر ذلك التطابق بين شعر المعتمد وشعر بعض شعراء المشرق بلهجة العائب ولا قصد التخفيض من قيمة الشاعر . كذلك لا يمكن ان يكون صاحب الخريدة قد ذكر التشابه بين قول المعتمد في الخمر وقول ابن المعتز كنقص يشين ويضع من

---

(١) راجعي ص ١٧٣ من هذه الاطروحة

(٢) المقرى ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

قيمة الشاعر الناقل والا لما اتبع كلامه عن نقل المعتمد معنى ابن المعتز بذكر مثل هذا التقليد عن نفسه قال : "ومما نظمته انا في هذا الاسلوب من قطعة ببغداد :

رعى الله عصرا فيه فارت كؤوسنا ... ودارت علينا بالمسرة اقداح

وقد راقنا ورد وراح تشابها ... فلم ندر ذاب الورد ام جمد الراح (١)

كذلك يدلنا على تعمد اهل الاندلس الاخذ عن شعر المشرق والتقليد له ما ذكر الشقندي في رسالته الطويلة التي فضل فيها اهل الاندلس على اهل العدوة وايد تفضيله بذكر شعرائهم وشواعرهم وفضائلهم الادبية والشعرية . وقال موجها الخطاب لاهل العدوة "وهل منكم من عمد الى قول امرئ القيس

سموت اليها بعد ما نام اهلها ... سموحباب الماء حالا الى حال

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الازهار في قول ابن شهيد

ولما تملأ من سكره ... ونام ونامت عيون الحرس

دنوت اليه على قربه ... دنو رفيق لارى ما التمس

ادب اليه دبيب الكرى ... واسموا اليه سمو النفس (٢)

ومع ان التشابه في هذين المعنيين قليل ، الا ان الشقندي قصد ان يذكر اجادة ابن شهيد للمعنى الذي اخذه عن امرئ القيس مما يدل على تباهيهم في ذلك واعتزازهم به . لذلك لا يعيب المعتمد بالنسبة لشعراء عصره ، ان يكون كثير من معانيه مشابه لمعاني اهل المشرق لان هذا كان شائعا ومصطلحا عليه في جميع

---

(١) الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص ٣٩٣

(٢) المقرى ، ج ٢ ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

شعر الاندلس ولم ينج من هذا التقليد افضل شعراء الاندلس لتعمدهم ذلك في اكثر الاحيان .

كذلك جارى المعتمد شعراء عصره في محاولة التفنن في اخيلة الشعر والابتكار في صوره وقد وفق في كثير من اخيلته وصوره نذكر من ذلك على سبيل المثال قوله في وصف حال بناته السيئة في يوم عيد :

يطأن في الطين والاقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
لا خد الا ويشكو الجدب ظاهره ... وليس الا مع الانفاس ممطورا (١)

وقوله من مقطوعة يسترضي فيها اباه :

علتني من السخط الاليم سحابة ... فاغر بها ريح الرضا كي تقشعا (٢)

وقوله في وصف فتاة :

واغن يلعب بالهموم كما غدت ... ارماح قومي بالعداة لواعبا
ذي نغمة يسبي القلوب بها رشا ... من عند رضوان اتانا هاربا (٣)

وهذا قول له يحسن فيه وصف بكائه وحر دموعه :

بكينا دما حتى كأن عيوننا ... لجري الدموع الحمر منها جراحات (٤)

---

(١) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٢٨ ، ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣١٧ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩٥ ، ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٧٠ .

(٢) ديوان المعتمد ، ص ٤١

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣

(٤) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٠ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩٣ المقرى ، ج ٢ ، ص ٦٢٣ .

وهذا وقد تغنن المعتمد في وصف قيوده والامه في السجن ومن يقرأ شعر المعتمد يعثر على الكثير من اخيلته الجميلة وصوره المبتكرة .

اما اسلوب المعتمد في شعره فيتصف بالطلاوة والرقة والجزالة التي كانت معروفة عن شعر الاندلس كما يتصف بالوضوح ، ذلك ان معظم قصائده ذات وحدة في المعنى تتحدث عن غرض واحد يريده او خاطر عن له او عاطفة هاجت في نفسه ومما يدل على اتساق خواطر المعتمد وعواطفه وتناسبهما في شعره ان بحوره كانت مناسبة لاغراضه وخواطره وعواطفه فنلاحظ في معظم شعره في الغزل واللهو والوصف انه كان ذا اوزان سريعة وموسيقى مطربة تمثل عاطفة الشعر ذلك ، كما كان شعره في الاسر يلتزم البحور الطويلة ذات التأمل والثروى .

والصناعة التي هي معروفة عن معظم شعر الاندلس ظاهرة في كثير من شعر المعتمد ، وقد احسن صوغها في بعض شعره العاطفي . من ذلك قوله :

ناحت وباحت واستراحت بسرها وما نطقت حرفا يبوح به سر[1]

وقوله يخاطب القيود عندما بكى ابنه المكنى بابي هاشم وقد رأى اباه مقيدا :

يبصرني فيك ابو هاشم فينثني القلب وقد هشما[2]

وقوله في الغلام الذى اسمه سيف :

---

(١) ابن بسام ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣١٤ راجع ديوان المعتمد ص ٣٠

(٢) ابن بسام وفي دوزى ، ج ١ ، ص ٣١٧ ، ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤٨ ، المقرى ج ٢ ، ص ٥٧٣ .

سميت سيفا وفي عينيك سيفان هذا لقتلي مسلول وهذان
اما كفت قتلة بالسيف واحدة حتى اتيح من الاجفان ثنتان
اسرته وثناني غنج مقلتـــه اسيره فكلانا آسرعـــــان (١)

كذلك لم تخفف الصناعة من جال مقطوعته التي نظمها في اعتماد وتعمد في جعـــل اوائل ابياتها حرفا من حروف اسمها (٢).

هذا وقد جاءت الصناعة في بعض شعره لا سيما ذلك الذى نظمه في اغراض الرسائل المختلفة في الاهداء والشكر وغيرها بادية التكلف قليلة القيمة الفنية ، من ذلك ما كتبه الى ابي محمد المصري الشاعر يدعوه الى مجلس شراب :

ايها الصاحب الذى فارقت عيـــ ني ونفسي منه الثاو السناء
نحن في المجلس الذى يهب الرا حة والمسمع الغنى والغناء
نتعاطى التي تسى من اللـــذ ة والرقة الهوى والهواء
فاته تلف راحة ومحيـــــــا قد اعدا لك الحيا والحياء (٣)

ومن شعره الذى تضعفه الصناعة قوله :

حسد القصر فيكم الـــزهـــراء ولعمري وعمركم ما اســـاء
قد طلعتم بها شموسا صباحـــا فاطلعوا عندنا بدورا مساء (٤)

---

(١) الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ، ص ٣٩١ ، المراكشي ، ص١٠٣ ـ ١٠٤
(٢) راجع ص ١٤٧ من هذه الاطروحة
(٣) ابن خاقان ، القلائد ، ص٧ ـ ٨ ، المقري ، ج ٢ ، ص٦٢٥ ـ ٦٢٦ . راجع ديوان المقدمة ص ٣١
(٤) ابن خاقان ، القلائد ، ص١١ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ج ١ ، ص٣٨٢ ، المقري ، ج ٢ ، ص ٤١١ .

هذا ومعظم شعره في الرسائل ظاهر التكلف قليل القيمة الفنيـة .

ويتميز شعر المعتمد كما يتميز معظم شعر الاندلس برقة الاسلوب وحلاوة الالفاظ والتأنق في اختيارها فقد جرى المعتمد على سنن شعراء عصره في هذا المنحـى ونال ما اراده بالتعبير عن معانيه في كثير من شعره بواسطة الفاظه الدقيقة المصورة لشعوره واحاسيسه وما فيها من موسيقى عذبة طلية . اسمعه يقول في شـوقـه لمحبوبتـه :

كتبت وعندي من فراقك ما عندي ... وفي كبدي ما فيه من لوعة الوجد
وما خطت الاقلام الا وادمعـي ... تخط سطور الشوق في صفحة الخد
ولولا طلاب المجد زرتك طيـه ... عميدا كما زار الندى ورق الورد (١)

ومع ان المعتمد كان مقلدا فان له ومضات شعرية تدل على شيء من الابتكار كقولـه في تشبيه الدموع بالدم بايحاء لفظة النزف للدموع :

شجون منعن الجفون الكـرى ... وعوضنها ادمعا تنـزف (٢)

والمعتمد دقيق في كثير من الاحيان في اختيار الفاظه التي توحي بمعانيها من ذلـك قوله "وسواس الحلي" فاضح لمحبوبته ان جاءته زائـرة :

ثلاثة منعتها عن زيارتنـا ... خوف الرقيب وخوف الحاسد الحنق

---

(١) الكاتب الاصفهاني ، في دوزي ، ج ١ ، ص٣٨٧
(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص٩ ، المقرى ، ج ٢ ، ص٦٢٤ .

ضوء الجبين ووسواس الحلي وما تحوى معاطفها من عنبر عبق (١)

ومنه مناداته محبوبته :

يا نفس الـــروضـــة هبت لها ريـح سحـــر (٢)

ومنه وصف الخمر الذي تحمل الفاظه على تخيل رؤية الخمر

نطف يجملها فقاقع منـــه ما جمدت لتحفظ جسم ما لم يجمد (٣)

وكلمة اوار توحى للقارئ بما يحس به الشاعر من لهيب

ابا هاشم هشمتني الشفـار فلله صبري لذاك الاوار (٤)

وتحمل كلمة تخمش كثيرا من المعنى والتصوير في البيت الذى وصف فيه مشاركة النجـم والبدر له في حزنه واقامتها مأتما لذلك كل ليلـة :

نرى زهرها في مأتم كل ليلة تخمش لهفا وسطه صفحة البدر (٥)

واسمعه يشبه نفسه بالموت الاحمر في رثائه لنفسه الذى قاله في اثناء سجنـــه باغمات واوصـى ان يكتب على قبـــره

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقا ظفرت باشلاء ابن عبـاد

---

(١) المقرى ،ج ٢ ، ص٢٩١

(٢) الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ، ج ١ ،ص٣٨٩

(٣) المصدر نفسه ،ج ١ ، ص ٣٩٠

(٤) ابن بسام ، في دوزى ،ج ١ ، ص٣١٧

(٥) ابن خاقان ، القلائد ، ص١٣ ، الكاتب الاصفهاني ، في دوزى ،ج ١ ،ص٣٩٦ .

بالحلم بالعلم بالنعمى اذ اتصلت　　بالخصب ان اجدبوا بالري للصادي
بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا　　بالموت احمر بالضرغامة العادي (١)

ومن حسن اختياره للالفاظ ودقيق معانيها قوله يصف نفس فتاته :

فلاقتك بالنفس النرجســـي　　وراقتك بالملبس العسجدي (٢)

على ان شعر المعتمد الذى ينزع منزع الشعر الاندلسي في اغراضه ومعانيه التقليدية وحسن اخيلته وتصويراته ، وجزالة اسلوبه ودقة الفاظه ، يمتاز على الكثير من شعـــر الاندلس بصدق عاطفة ورقة معانيه وبعد تأثيرها في النفوس لما فيها من صـــدق عاطفة وحسن تصوير اسمعه يقول في جاريته سحـر :

عفا الله عن سحر على كل حالة　　ولا حوسبت عني بما انا واجد
اسحر ظلمت النفس واخترت فرقتي　　فجمعت احزاني وهن شوارد
وكانت شجوني باقترابك نزحـــا　　فها هن لما ان نأيت شواهد

ومنها فان تستلذى برد مائك بعدنا　　فبعدك ما ندري متى الماء بارد (٣)

ومن شعره الرقيق المعاني العذب الاسلوب الذى يمكن ان يعد بين شعـــر الاندلس الجيـد :

---

(١) ابن بسام ، في دوزى ،ج ١ ، ص٣٠٦ ، المراكشي ، ص١٥٩ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ،ج ٢ ، ص٨٤ .

(٢) ديوان المعتمد ، ص ٥٤

(٣) ابن بسام ، في دوزى ،ج ١ ، ص ٢٩٩ .

بكرت تلوم وفي الفؤاد بلابـل سقمها وهل يثني الحليم الجاهل

يا هذه كفي فاني عاشـق من لا يرد هواي عنها عـاذل (١)

ومعظم شعره الذي قاله في اسره وجداني ينبعث عن عاطفة عميقة فيصور الامـه تصويرا حيا من ذلك قوله :

اما لانسكاب الدمع في الخد راحة لقد آن ان يفنى ويفنى به الخد (٢)

ومنه ويبدو في معانيه عمق وتأمـل

اقنع بحظك في دنياك ما كانا وعز نفسك ان فارقت اوطانـا

في الله في كل مفقود مضى عوضٌ فاشعر القلب سلوانا وايمانـا

اكلما سنحت ذكرى طربت لهـا مجت دموعك في خديك طوفانا

اما سمعت بسلطان شبيهك قد بزته سود خطوب الدهر سلطانا (٣)

هذه وغيرها كثير من شعر المعتمد الذى قاله في ايام شبابه وملكه ينبعث عن تدفـق عواطفه ويصور خلجات نفسه تصويرا صادقا ، كما ان جميع شعره الـذى قاله بعـد نكبته وفي اسره (٤) ، هو نفثات صدره الملتهب وآهات قلبه المنسحق . وقد اضفـى هذا التصوير الحي لنفس المعتمد ومشاعره في مختلف احوال حياته ، على شعره مسحـة

---

(١) ديوان المعتمد ، ص ٢٣ وقد وردت من قبل ، راجع ص ١٦٢ من هذه الاطروحة

(٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣٠ - ٣١ ، راجع ص ١٨٠ من هذه الاطروحة

(٣) الصفدي ، ج ٢ ، ص ٥٦ ، المقرى ، ج ٢ ، ص ٥٠١

(٤) راجع ص ١٧١-١٨٥ من هذه الاطروحة .

الجمال والفن اللذين يخلدان المعتمد الانسان كشاعر وجداني ، ويضعان المعتمد الملك ، الذي لم يكن الشعر صناعته وعمله ، في مصاف الشعراء المجيدين .

وبعد ، فقد ذهب المعتمد فيمن ذهب من رجال التاريخ والادب بعد ان سطر لنفسه في سجل التاريخ اسطرا من العمل السياسي في سبيل اشبيلية احيانا وفي سبيل الاندلس احيانا اخرى ، واسطرا مثلها من العمل الادبي الذى خدم فيه المعتمد الشعر العربي فى الاندلس بالاهتمام به وباصحابه وزوده بنفثات رائعة من شعره . لقد ذهب المعتمد وخلد ذانك العملان ، فاذا هما جزء من التراث الذى تتناقله الاجيال باعتزاز .

قد يؤخذ على المعتمد تأخر في بعض شعره ، وقد يعاب عليه سوء تصرف في بعض نواحي حياته الشخصية والسياسية ، الا ان شخصيته ونتاجه يظلان من دواعي افتخار تراثنا القومي والادبي بقدر ما فيهما من تعبير صادق عن آثار تلك البيئة في ذلك العصر .

ومهما يكن من امر فقد كان لي في دراستي المعتمد ملكا وشاعرا نفع وخير ارجو ان اكون قد وفقت في اظهارهما في هذه الرسالة .

المـــــآخـــــذ

المصادر

١) ابن الابار ، ابوعبد الله ، محمد ابن عبد الله ، الحلة السيراء ، فيي دوزي ، رينهارت بيترآن ، محرر ، تاريخ بني عباد ، اصول عربية مختلفة مع ترجمـــات وتعاليق عن دولة بني عباد . ليدن ، لشتمان ، ١٨٤٦ ـ ١٨٦٣ .

٢) ابن ابي دينار ، محمد ابن ابي القاسم ، كتاب المونس في اخبار افريقية وتونـــس . تونس ، دار الطباعة التونسية ، ١٢٨٦ هـ .

٣) ابن الاثير ، عزالدين ابوالحسين علي ابن محمد ، الكامل في التاريخ . ليدن ، بريل ، ١٨٦٣ . ج ٨ و ٩ .

٤) ابن بسام الشنتريني ، ابوالحسن علي ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ . قسم ١ مجلد ١ وقسم ١ مجلد ٢ .

٥) ـــــــــــ ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة . فيدوزى ، كما في علاه .

٦) ابن بشكوال ، ابوالقاسم خلف ابن عبد الملك ، الصلة في تاريخ ائمة الاندلس . القاهرة ، مكتبة الخانجـي ، ١٩٥٥ .

٧) ابن حزم الاندلسي ، ابو محمد علي ابن سعيد ، جمهرة انساب العرب ، نشـر وتحقيق ا . ليفي بروفنسال . مصر ، دار المعارف ، ١٩٤٨ .

٨) ابن خاقان ، الفتح ابو نصر ، قلائد العقيان . باريس ، ؟ ، ١٢٧٧ هـ .

٩) ـــــــ ، مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس . القسطنطينيـة ، مطبعة الجوائب ، ١٣٠٢ هـ .

١٠) ابن الخطيب ، محمد لسان الدين ، الاحاطة في اخبار غرناطة . مصر ، مطبعة الموسوعات ، ١٣١٩ هـ . ج ٢ .

١١) ـــــــــ ، تاريخ اسبانية الاسلامية او كتاب اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، تحقيق وتعليق ا. ليفي بروفنسال . بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٥٦ .

١٢) ـــــــــ ، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية . في دوزى ، كما في اعلاه .

١٣) ابن خلدون ، عبد الرحمن ابن محمد ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر . مصر ، بولاق ، ١٢٨٤ هـ . ج ٤ .

١٤) ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان . مصر ، بولاق ، ١٢٩٩ هـ .

١٥) ابن زيدون ، ديوان ابن زيدون ، شرح وضبط كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة . مصر ، مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٥١ هـ .

١٦) ابن سعيد ، ابو الحسن علي ابن موسى ، عنوان المرقصات والمطربات . مصر ، جمعية المعارف ، ١٢٨٦ هـ .

١٧) ـــــــــ ، المغرب في حلى المغرب ، تحرير شوقي ضيف . مصر ، دار المعارف ، ١٩٥٥ .

١٨) ابن شاكر الكتبي ، ابو عبد الله محمد ، فوات الوفيات . مصر ، بولاق ، ١٢٨٣ هـ .

١٩) ابن ظافر الازدى ، علي ، بدائع البداهة (على هامش كتاب ابن احمد ، عبد الرحيم ابن عبد الرحمن ، شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص) مصر ، المطبعة البهية المصرية ، ١٣١٦ هـ .

٢٠) ابن عباد ، المعتمد ، ديوان المعتمد ابن عباد ، جمع وتحقيق احمد بدوى وحامد عبد المجيد باشراف الدكتور طه حسين . القاهرة ، المطبعة الاميرية ، ١٩٥١ .

٢١) ابن عبد الحق الخزرجي ، ابو جعفر ، كتاب الاكتفاء في اخبار الخلفاء . في دوزي ، كما في اعلاه .

٢٢) ابن عذاري المراكشي ، ابوعبد الله محمد ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، نشروتحقيق ج. س. كولان وا. ليفي بروفنسال . ليدن ، بريل ، ١٩٥١ . ج ٢ .

٢٣) ابن المواعيني ، محمد ابن ابراهيم ، ريحان الالباب وريان الشباب . في دوزى ، كما في اعلاه .

٢٤) التيجاني ، ابوعبد الله محمد ابن احمد ، تحفة العروس ونزهة النفوس . في دوزى ، كما في اعلاه .

٢٥) الصفدي ، صلاح الدين خليل ، الغيث المسجم في شرح لامية العجم . الاسكندرية ، المطبعة الوطنية ، ١٢٩٠ هـ .

٢٦) الكاتب الاصفهاني ، عماد الدين محمد ابن محمد ، خريدة القصر وجريدة العصر ، في دوزى كما في اعلاه .

٢٧) المراكشي ، عبد الواحد ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، ضبطه وصححه وعلق عليه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي . القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٤٩ .

٢٨) المقرى ، ابو العباس احمد ابن محمد ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب . ليدن ، بريل ، ١٨٥٨ .

٢٩) الملك المنصور ، ابو المعالي محمد ابن عمر ، اخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء ، في دوزى ، كما في اعلاه .

٣٠) النباهي ، ابو الحسن عبد الله ، تاريخ قضاة الاندلس، نشر أ. ليفي بروفنسال. القاهرة ، دار الكاتب المصرى ، ١٩٤٨.

٣١) النويري ، شهاب الدين احمد ، نهاية الارب في فنون الادب . في دوزى ، كما في اعلاه .

المراجع

١) اشباخ ، يوسف ، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمه وعلق عليه محمد عبد الله عنان . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠ ، ج ١ .

٢) جبور ، جبرائيل ، "المعتمد ابن عباد" حديث اذيع من محطة الاذاعة اللبنانية .

٣) حتي ، فيليب ، وادوارجرجي وجبرائيل جبور ، تاريخ العرب . بيروت ، الكشاف ، ١٩٤٩ - ١٩٥١ ، ج ٣ .

٤) دوزى ، رينهارت بيترآن ، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام ، ترجمة كامل كيلاني . القاهرة ، عيسى البابي الحلبي ، ١٩٣٣.

٥) زامباور ، ادوارد فون ، معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، نشر زكي محمد حسن وحسن احمد محمود وغيرهما . القاهرة ، جامعة فؤاد الاول ، ١٩٥١ .

٦) الشدياق ، طنوس ، اخبار الاعيان في جبل لبنان . بيروت ، ؟ ، ١٨٥٩.

٧) الطود ، عبد السلام احمد ، بنوعباد في اشبيلية . تطوان ، كريمادس، ١٩٤٦ .

٨) نكل ، أ.ر. ، مختارات من الشعر الاندلسي . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٤٩.

(٩ Conde, J.A., History of the dominion of the Arabs in Spain. London, Bohn, 1854.

(١٠ Hitti, Philip, The Origins of the Druze People and Religion. New York, 1928.

(١١ Levi-Provencal, E., 'Al-Mu'tamid', Encyclopaedia of Islam. Leiden, Brill, 1936. V.3, pp. 779-781.

(١٢ Nykl, A.R., Hispano Arabic Poetry and its relations with the Old Provencal Troubadours. Baltimore,1946.